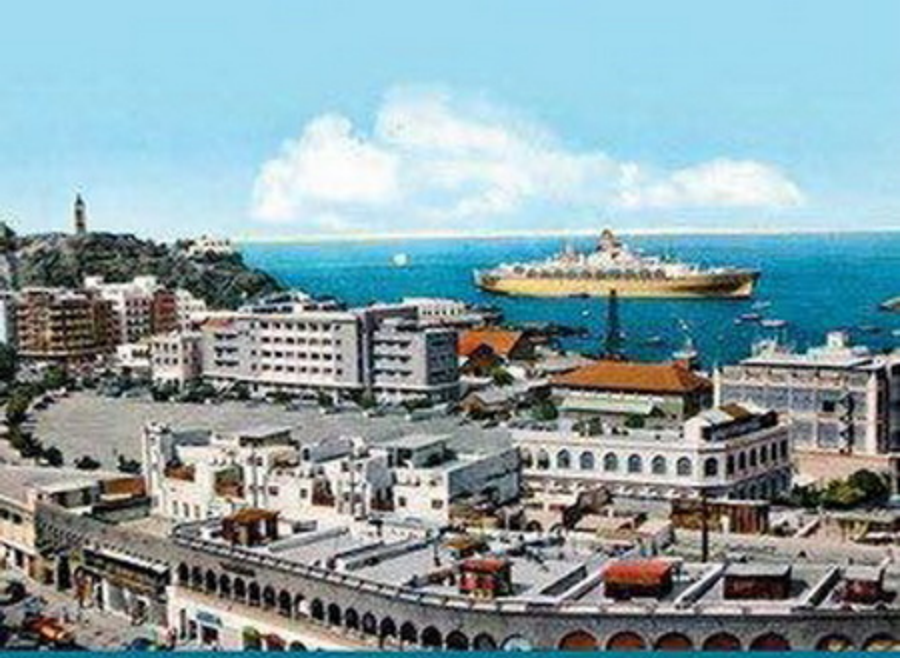

أحمد زين

ستيمر بوينت

رواية

السور

ستيمر بوينت

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

رئيس الإدارة المركزية للنشر
د. سهير المصادفة

تصحيح لغوى
أحمد اللاوندى

متابعة
سحر محجوب

سلسلة (الإبداع العربى)
تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب شهرية.
تعنى بنشر إبداع الكتاب العرب من غير المصريين
الكتاب: ستيمر بوينت
المؤلف: أحمد زين (اليمن)
الطبعة الأولى: دار التنوير - بيروت ٢٠١٥.
الطبعة الثانية: الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٧ .

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق - القاهرة
الرمز البريدى: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلى ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C: 11794
Tel: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة « الإبداع العربى »
(الإصدار الثانى)

رئيس التحرير
سمـيــر درويــش

مدير التحرير
عــادل سميــح

سكرتير التحرير
وردة عبد الحليم على

الإخراج الفنى
أيمن مرجان

العدد (١٥) - الإصدار الثانى
نوفمبر ٢٠١٧

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى المؤلف وتوجهه فى المقام الأول

حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب.
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابى من الهيئة المصرية العامة للكتاب، أو بالإشارة إلى المصدر.

ستيمر بوينت

رواية

أحمد زين
(اليمن)

الهيئة المصرية العامة للكتاب
2017

زين . أحمد .
ستيمر بوينت / زين . أحمد .
الهيئة المصرية العامة للكتاب
؟؟؟ ص، ٢٠سم - (سلسلة الإبداع العربى،٢)
تدمك
١-
أ-

رقم الإيداع بدار الكتب / ٢٠١٧
I.S.B.N 978 - 977-

إمبراطوريتنا تبدأ من أسوار عدن.

ونستون تشرشل

لا يمكنكم أبداً أن تتصوّروا هذا المكان.
لا توجد أية شجرة هنا، حتى يابسة،
ولا عود قش، ولا قطرة ماء عذبة، ولا ذرّة تراب.
فعدن قعر بركان ساكن ومطمور بالرمال البحرية.

آرثر رامبو

عدن عدن لك بحر تغرقي به
يا من دخل لك نسي حبيبه.

من الذاكرة الشعبية

رآك، أخيراً. سرت رعدة خفيفة في أنحاء جسمك، عندما تلاقت نظراتكما، وتخيلت المسافة بينكما ملبدة بالضباب، بغيمة من غبار أصفر. في الواقع صعب عليك إدراك المشاعر، التي انتابتك على الفور. منذ ضمك للخدمة في منزله، لم يبدر منه ما يطمئنك، أنك فعلاً مرئي بالنسبة له، ولا حدث أن نده عليك باسمك. أنت تطلق عليه العجوز أو التاجر الفرنسي، وهو لا يعرف سوى كلمة الشاب، عندما يفتش عنك. لم تسأل نفسك لماذا الآن رآك. هل هي اللحظة الرهيبة التي يتخبط فيها هذا التاجر الفرنسي؟ هو رآك عندما أبصرته يشرد من صورته في المرآة، يهرب منه إليك أنت. فيما مضى لم يمثل لك عدم رؤيتك قلقًا شديداً، كنت مشغولاً بوجودك في هذا المنزل الفخم، الذي شيِّده على الطراز الإنجليزي، منبهراً بتفاصيل الحياة الأجنبية، تعثر على نفسك مغموراً بروائحها وألوانها ونظافتها.

شخصاً آخر تتحول فور أن تكون داخل هذه الأبهة الكولونيالية. وتوخيًا للدقة حتى قبل أن تدلف من البوابة الشاهقة، تشعر بك تتخلص تدريجيًا من الشخص الذي تكونه، في منزل جدتك، حيث تلف وسطك بفوطة مخططة وتأكل الحلوى الشعبية وتحتسي القهوة المزغول، أو في الأزقة الضيقة لحارات كريتر القديمة، ودكاكينها البسيطة، المعتمة قليلاً.

الشخص الذي تكونه هنا هو الشخص نفسه الذي تحس به يخفق بين ضلوعك، في منزل آريريس، الإنجليزية التي تعادي قومها، وترى فيك شخصاً غريب الأطوار. وتلتقيه أيضاً بنسب متفاوتة، في الحي الأوربي الذي يعج بالمقاهي الحديثة وصالات السينما، وفي الماين روود بأضوائه وسياراته الفاخرة.

ربما لم تلتق عيناك بعيني الفرنسي، طوال ما مضى من وقت، إلا أن ذلك لم يؤثر، كان محفزاً غامضاً على الأرجح، في شعورك أن كيانك كله يتحقق، ما إن تكن في منزله.

تراه خلال المرآة، وهو يتكلم مع نفسه، لا تسمع شيئاً مما يقول إلا أنه بدا لك مغموماً، يدفعه ما يحدث إلى التخبط. "ما الذي يجري، أي شيء فظيع تقترفه عدن في حقي؟". كمن يعثر على نفسه في دوار شديد، أو يتدحرج في منحدرات حادة. نتف صغيرة تداهمه، من أحلام وذكريات وأحاديث لم تكن لتنتهي. عبارات ناقصة، وجوه ضبابية، أعين منطفئة، كل ما تبقى لهذا التاجر الفرنسي. يرى الأشياء حوله غائمة تترجرج، وراء جفنيه المطبقين، تند عنهما رعشات دقيقة. عند زاويتي العينين، نقطتان صغيرتان، لهما لون زجاجي رقيق. جفنان ثقيلان، يحاول الفرنسي رفعهما ويفشل، لم يعد قادراً على فعل شيء، فقد حتى قدرة تخيل أنه يفعل شيئاً. ويرغب في الكلام، في أن يصرخ، إلا أنه يشعر بفمه جافاً ومليئاً بعظام يابسة.

تجاهل التغطية الإخبارية، يبثها التلفزيون. يوجد ما يأخذه بعيداً. لكنه لم يستطع الابتعاد كثيراً، ورفع العدد الجديد من "إيدن كرونيكل"، الصادرة بتاريخ اليوم ٢٨ نوفمبر ١٩٦٧. كأنما ينقص الخبر تفاصيل أكثر، وراح يطالع ثانية الصفحة الأولى، وللمرة الثانية يرى صورتيهما، بين صور كثيرة. يوم طويل آخر، فكر. آخر يوم طويل ساعاته تمضي بطيئة، إلى حد أنه يشعر بنفسه يسحب سحبًا، ليسقط مشوشًا في الإعياء. نحّى الجريدة، التي تصدر باللغة الإنجليزية، وتخاطب الأجانب وموظفي التاج البريطاني، لم يستطع التفكير في أن يقذفها بعيداً.

طاشت نظرة ضيقة إلى وجهه في المرآة، سرعان ما سحبها، متوتراً، وردها إلى ظاهر يديه، فرأى النمش، تلك البقع الداكنة، كأنما يراها لأول مرة، ولأول مرة أيضًا لا يجد مفراً من الاعتراف، بأنه فعلاً كبر في السن. كان من المحال أن يقدم، في سهولة، على هذا القرار.

وبدرت منه إيماءة هي مزيج من غضب وعدم تصديق، ولم يتمالك شعوراً خالجه، له طعم لزج، اغتنى بخواطر وتفاصيل، أخذت تتوالى طيلة مكوثه جالسًا يفكر. ما إن تولّى برهة من الزمن، حتى يشعر بأنه أقرب ما يكون إلى حتفه، إلى نهاية لم يقترحها أبداً، ولا خطرت له على بال، لحياة طالما أحب أن يظن أنها كانت، ولعلها لا تزال، عريضة ومتشابكة. يفتقد تدريجيًا الرغبة في الإحساس، بما يحيطه من أشياء وكائنات. وتذكر صوته يصدح،

في تلك الأزمنة البعيدة، مدافعًا عن سؤال الوجود في بقعة غير مأهولة، حين كانت عدن مجرد مستودع للفحم، حوله أكواخ حقيرة، يسكنها بشر قليلون، نصف عراة.

الأمور التي دأب، فيما مضى، على وصفها بالتافهة، جعلت تشغله في الأيام الأخيرة، وحين يستلقي في فراشه، تبقى عيناه مفتوحتين على الظلام، يصغي تارة لدقات قلبه، منهكة تتناهى، وتارة لتكتكات الساعة، تعبر إلى زمن جديد، قد لا يكون في مقدوره بلوغه. هل يرقد بين اثنتين من العذارى، كي يطيل من عمره؟ هل يدفع جسمه إلى امتصاص الذهب، كما اقترح أحد الخيميائيين؟ أو أن عليه شرب دماء ثلاثة من الشباب ليتنفس الحياة بضع سنوات أخرى، كما قرأ في كتب تقترح طرائق لمقاومة الزمن. بات يكره التفكير في المنقلب الذي آل إليه جسده. يخشى، هذا ما انتبه إليه أخيرًا، أن يلمسه أو أن تمر عليه أنامله سهوًا، فتهزه القشعريرة، كما لو لمس جلد ميت. في أثناء ما يغتسل، يعثر على نفسه مرات مغمض العينين، بينما تمر أصابعه، بكل ما تستطيعه من خفة، فوق جسده، يتهدل في تثنيات رخوة، مثيرة للاشمئزاز.

صدحت موسيقى، قريبًا منه، تلفت ولم يعرف من أين انبثقت. غير متأكد أنها صوت حقيقي يصدر من الصندوق الخشبي الفاخر، يأخذ مكانه في ركن ينأى عنه قليلاً. ربما أصوات تهاجمه في هذه اللحظة، التي يشوبها الترقب، أو تطفر، رغمًا عنه، من ذاكرته الغنية بالموسيقى وبرسوم الفنانين، وبشذرات من أشعار، ومقاطع كاملة من

روايات وكتب في التاريخ والسياسة والاقتصاد والأدب. كم أحب أزنافور والأسطورة إديث بياف وجاك بريل، خصوصًا أغنيته "لا تتركيني"، سمعها مرات في فيلتها، التي عادت إليها بعد غياب دام سنوات، بينما يحيط بذراعيه جسدها الجامح، "لا تتركيني. أنا سأهديك، لآلئ من مطر. قادمة من بلد، لا تسقط فيه الأمطار. سأحفر الأرض، حتى بعد موتي. لأغطي جسدك، بالذهب والضوء".

مساء يوم عصيب، جال في بال الفرنسي. وتساءل ما هذا اليوم الذي لا يبدو أنه سينتهي، يوم في طول شهر، حتى وهو يرى من وراء زجاج النافذة العريضة، وقد أزيحت عن درفتيها الطويلتين الستائر، أشعة الشمس تفقد سطوعها وتكتسي احمرارًا، وراق له أن يتخيل ملامح وجهه تكسوها كآبة عذبة، تليق بالحدث الكبير. ومن مقعده يرى بعين خياله، سفينة سياح هائلة تتوقف ليومين أو ثلاثة، ثم تمضي مثل مدينة عائمة. في الليل ستبدو مثل مركبة فضائية عملاقة، تبحر في سديم خرافي، بينما يكون يتفرج عليها، وستصله، حيث يجلس في شرفة فيلته الواسعة هذه، موسيقى وأغنيات، يصدح بها مغنون إنجليز وأمريكيون وفرنسيون وإيطاليون وحتى أفارقة.

ارتاح للشعور الذي خامره، حين خطر له أن الظلال جعلت تنتشر حول منزله. لم يطلب إشعال النور، ولبث في ركن منزوٍ، مستسلمًا لهواجسه وسط أزيز المكيف وفيما يشبه الظلام الخفيف. قاوم، وبقي كذلك طوال السنوات الأربع الأخيرة، خسران حياته

هنا، حياته التي تنتشر في كل شبر من هذه المدينة. ليس هذا مجازًا، فكر الفرنسي، إنما حقيقة يعرفها الجميع. لكن عدن لم تكن مدينة، استدرك كأنما يذكر نفسه، عندما أبصر لأول مرة خرائب مرفأها، من بعيد، وقبل أن يطأ بقدميه التراب، يستلقي ساخنًا قدام جبال شاهقة وتلال جرداء، تثير الوحشة.

وقعت عيناه على أوراق تنتظر توقيعه. هم بإزاحة الجريدة وأخذ الأوراق ليتفحصها، ثم تراجع متجاهلاً كل شيء. دأب خلال الأشهر القليلة الماضية على فعل ذلك، وهو جالس على كرسيه، في ركن من صالة المنزل الفسيحة، أو مضطجعًا في سرير نومه، يوقع ورقة ثم يسرح في وجه أفريقي منحوت قدامه، في قطعة من الحجر مغطاة بنقوش مسندية، خلف مربع زجاجي، في صورة تظهره يستلم جائزة الحصان الرابح، في سباق للخيول يقام في خور مكسر، ويتبارى فيه كبار ملاك الأحصنة. يحملق في صورة أخرى تذكارية مع الملكة الشابة، مكثت ليالي في كرسنت هوتيل، فندقه الفاخر في ستيمر بوينت، الذي نزل فيه أيضًا سلاطين وأمراء العرش البريطاني ورؤساء عرب وأجانب. وجال في باله أنه قد لا يوقع هذه الأوراق، قبل أن يغمض عينيه لبرهة، ظنها ستأخذ أكثر من مجرد لحظة سريعة، على صورتي الشابين، من بين أعضاء الوفد توقفت نظراته عندهما. هل هما شابان فعلاً، خطر له هذا السؤال، على نحو غريب، غير أنه لم يشغل خاطره بهذه الغرابة الآن تحديداً، إذ يوجد ما يستحق عناء التفكير.

في مثل سنهما كان، عندما جاء إلى هذه المدينة، أيضًا له الحماسة والاتقاد نفسهما. لهذا السبب تحديدًا، ترك اليقين أن يتسلل إلى كل حواسه، أن لحظة مختلفة آتية بلا شك. يحتاج أن ينطح بجبهته في صخور التلال المجاورة، من أجل أن يبدد شعورًا، راح يتفاقم ويتغذى على جملة ما حدث في الأوقات الماضية، منذ نحو سنتين، ربما أقل بكثير، ويجعله قلقًا.

تعود الأمريكيون على القول لي انطح رأسك في الجبل، ويستولون على بضائعي خلال الحرب العالمية الثانية، وحين دخلوا في لحظة عصيبة من علاقاتهما مع الإنجليز، لم يجدوا سواي ليتدخل. وعندما جاء اليوم الذي تفوه فيه الإنجليز أمامي بتلك العبارة، المشحونة بالغطرسة، كنت قد فزت بعقد توكيل شركة "شل" وأصبحت اسمًا صعبًا، وشخصًا مهمًا في يده يمسك ببعض مفاتيح اللعبة التجارية والاجتماعية في هذه المدينة.

ينصت إليه الشاب وهو يكلم نفسه، ويتناهى إليه صوت جلد الأريكة، كلما تحرك العجوز بعصبية. لا يرى البحر من مقعده الجلدي، بمسنديه المريحين لساعديه المغطيين بشعر كثيف، واللذين ينتهيان بتكوير ناعم تمسك بهما أصابعه، وترتاح للمسهما راحتا يديه، بخاصة في لحظات الانفعال، أو حينما يدرس مشاريع ويتأمل أفكارًا تتقلب في رأسه. شعر العجوز بالبرودة مع تقدم المساء، مع أن الجو يميل إلى الاعتدال في الخارج. وطلب شراب الزنجبيل بسكر زيادة، في الواقع هو لا يشربه كثيرًا في الأوقات خارج فصل الشتاء،

الفصل الوحيد الذي يؤثر أن يقضيه هنا، لكن خطر له أن يرتشف كوبًا منه الآن.

والتفت إلى الشاب، الذي يقوم على خدمته، فيتفاجأ أنه أحضر له كأس براندي، بقطعتي ثلج متماسكتين، ناصعتي البياض، التطامهما في الزجاج يصنع رنينًا متقطعًا. وهو يمس بشفتيه الشراب، ويدع الطعم يتخلل مشاعره وأفكاره، لم تختفِ نظرة لحها، ولم يطل عندها، في وجه الشاب، الذي يقول إنه من مملكة اليمن، ويختار أن يكون من ضواحي مدينة الحديدة. لم ينس أن يفكر أن هذا الشاب، أصبح يجيد تحضير الكأس جيداً. هل تراها علمته، تلك الإنجليزية؟ ونطق اسمها "آيريس"، رغمًا عنه فعل ذلك، ماذا قالت له أيضًا عني؟ "لا يمكن وصفك برجل واسع الثراء فحسب، إنما رجل عدن الذي لا غنى لها عنه". طالما اعتراه شك كبير، في أي امتداح يناله من طرف الإنجليز، غير أن ما سمعه منها يوم ذاك، ظهر في غاية الاختلاف.

لدى الشاب ما يشغله. ما يجري اليوم في صميم اهتمامه. تسكن الشاب هواجس حول حياته، وهي تصبح تفتقد للأحلام. يلوي رأسه إلى النافذة ويحدِّق. تلمع في عتمة الذاكرة، أساطيل الرومان وملوك البرتغال وسلاطين الترك، وهي تبحر في نهارات صامتة، غير آبهة بتلال الموج، متخطية الحواجز المائية، قبل أن يهاجموا سواحل عدن، لاحتلالها وتسهيل نقل الحرير والأفاويه من الهند والصين. وتذكّر المسرحية، التي ما عاد يجهل هل يمضي فيها

إلى النهاية أم لا، إذ تتضمن مشهداً للكابتن هينس، البحّار الإنجليزي وقائد الاحتلال الذي حلُم طويلاً بعدن، لم يخلُ حلم له، طوال شهر ديسمبر ١٨٣٩ من مشهد لعدن، تبدو فيه مباني بيضاء وأكواخ من البامبو، ومساجد قليلة أحدها بقباب والأخرى لها مآذن. في المشهد رجال من البدو يتمنطقون بالسيوف، ويخوضون بصعوبة في البحر. في الحلم، داخل المشهد، لم يعرف هينس، كما دون في مذكراته لاحقًا، لماذا هؤلاء يحملون السلاح الأبيض، ويغوصون بأقدامهم في المياه الضحلة.

وحيداً يرى الشاب نفسه يطوّح بها، في مهب طرق مجهولة، ومغاور بلا نهايات. كنت أصبحت تشم رائحة الدم يخرج مع الكلمات من فم نجيب. ما يفعله الفدائيون ببعضهم بعضًا، كان قد بات انعكاسه جليًا على نقاشكم. في غمضة عين أو ما يشبهها، حدث التحول، من خوض في الأفكار الجديدة، التي تشيع الآن وتمس جموح الشباب وتَحرُّر الفرد وتحرير الجسد والموقف من الدين، إلى الصدام العنيف والقسوة في إيذاء الآخر. لم تكن أنت سوى هذا الآخر، الذي وجد نفسه وحيداً في مواجهة بقية، لهم الموقف نفسه منك وإن بدرجات متفاوتة.

فيما يخصني لا رغبة لي في تخوين أحد. جئت مثل الميت من الحديدة، مدينة لا ملامح لها، مدفونة الآن في ركام من الصمت والتاريخ، وجثث الجنود المصريين واليمنيين، ملكيين وجمهوريين. ولا أريد أن أعود إليها، بعد أن عثرت على حياتي في عدن. ألا أحب

المواجهة، لا يعني أنني خائف. لكني فعلاً خائف، ويتأكد لي الشعور بالخوف الذي ينبثق من حدقتي ومسام جسدي، ليس منهم، إنما عليها هذه المدينة، عليها هي أيضاً، سعاد.

باكراً قطفت الثورة والدك، وباكراً هجرت أنت الحديدة. في ذلك النهار من أواخر ديسمبر ١٩٦٢، أي قبل حوالي أقل من خمس سنوات، التفتُّ وراءك ولم ترَ قوارب الصيادين، تخفق فوقها طيور بيضاء، ولم تصغ لنداءات الباعة الجائلين، يتعقّبون مسافرين مذعورين، لكنك شاهدت كتيبة مصرية جديدة تحط رحالها، وأبصرت أفرادها يمسحون العرق عن وجوههم، بمناديل ملونة، ويعتلون عتادهم الثقيل، فيما راحوا يتقدمون بخطوات واسعة فوق رصيف الميناء، تلفّه الرطوبة وتضوع في أجوائه رائحة سمك نافق. بدوا لك حينها في عجلة من أمرهم، كأنما يريدون إنهاء المهمة دون إبطاء والعودة ثانية إلى مصر. في آخر النهار كانت قدماك تخطوان خطواتهما الأولى فوق شوارع عدن، الفسيحة والمعبدة، تنيرها أضواء ساطعة. صدمتك عدن، لم تكن رحيمة عندما فاجأتك بكل ما فيها دفعة واحدة، أنت الذي جئت من مدينة لونها الغبار وملامحها ترابية. لم تكن رأيت مدنًا حديثة، سوى في الصور، ومع ذلك ظهرت عدن مدينة لا مثيل لها أبداً. بدت لي، من أول وهلة، قطعة من الجنة. وهمست لنفسي "أنا عدني". إذ خالجني يقين حينها أنني لا أريد الانتماء سوى لهذه المدينة.

يتخيل الشاب غيومًا في رأسه، ويشعر بخطواته تهوي في حُفر وأخاديد، تفوح بخليط من روائح عفنة. في لحظة تشبه كابوس، فطن إلى أنه أصبح مبعدًا عنهم، حاصروه بالشك أولاً، حولوا خشيته إلى استلاب وتماهٍ، حين لم يقدروا أن يتفهموا كلامه عن الإنجليز. مرات يفكر لو أنه يعرف المآل، الذي ستنتهي إليه حياته في هذه المدينة التي استولت عليه بالكامل، عندما أغوته بسياراتها الفارهة وبناياتها الشاهقة، واستدرجته إلى مقاهيها الحديثة وباراتها وصالاتها السينمائية وحفلاتها الغنائية ومكتباتها، لكان فضَّل البقاء في بؤس الحديدة، في شمال قصي بتخلُّفه وصمته.

لاحقته التقديرات السيئة، لكل ما يبدر منه. حتى منها لم يسلم. وينصت لدقات قلبه تسارع بعنف شاعري، كلما خطرت له سعاد على بال، ويرهف للدم يعبر، في رحلة مجهولة، جغرافيًا من الشرايين والأوردة، من العواطف والمشاعر المرتبكة والغامضة والحادة والمتناقضة. كيف لم تتفهم هي؟ تألَّم بصورة لم يتوقعها مطلقًا، حين أغمضت عينيها عن ذلك الغموض الذي يشعر هو به، قبل أي شخص آخر، يكتنف انحيازه للإنجليز، إنه شيء غير الخيانة، طالما ودَّ توضيح ذلك، ويختلف عن العمالة، وبعيد كليًا عن التواطؤ.

وتذكرها، كأنما هو يستطيع نسيانها؟ أخذت تكتسحه، في الآونة الأخيرة، بردود أفعالها، ما إن يفتح فمه ليقول شيئًا، حتى تنهره ليس في صورة مباشرة، إنما عندما تشمخ بأنفها بعيدًا، في نأي صريح عنه. وتمضي أوقات يصعب عليه حسابها، دون أن

يجرؤ على معاودة الكلام إليها. وعلى نحو فاجأك تذكرت أنك حلمت بها البارحة، هي التي كأنما اختفت من حياتك بغتة، مثلما ظهرت فيها بغتة أيضًا. كانت تلف حول عنقها الشال الشتوي، هديتك لها، وكنت أنت تلبس ذلك القميص، بمربعاته الصغيرة الملونة، الذي أعجبها كثيرًا واعتبرته أنت هدية منها. كأنما استيقظت الآن من حلمك. راحت تجرحك بحزمة من أزهار غريبة، يابسة ولها زرقة خامدة، لم تتأذَّ ولم تشعر بأي ألم، لكن عندما استيقظت شعرت بآلام في أنحاء من جسمك. كنت تراها خلال غلالة من الغموض، بعيدًا تتهادى وسط ضباب وذرات رماد، تخوض بقدمين حافيتين، في زبد يشوبه ريش طيور وقواقع وحصى، تلمع في جو داكن.

طالما رأيت جدك يتذمر من تصرفاتها، التي تبدو له طيشًا خالصًا، عندما تجلس بجوارك وتروح تتكلم معك، كأنما أنتما لوحدكما. بالنسبة له كانت صورة أخرى من عدن الجديدة، التي يعود إليها بعد غياب، ويشعر أنها تخونه. وتراه من آن إلى آخر، خلال رواق ضيق تنتشر فيه الظلال، في غرفة داخلية، يقعد وسط سرير خشبي، تحيط به الوسائد بأغطية بيض طُرِّزت فيها قوارب وتلال وورود وشمس، بألوان حمراء وزرقاء وخضراء، وفي حضنه تلك العلبة، تكاد لا تفارقه عندما يكون في حجرته، يلفّها دومًا بقماش من القطيفة، تراقبه وهو يفتحها ويتفحّص القطع ذات المربعات الصغيرة. وأحيانًا ينحي العلبة جانبًا ويتناول جوازه

الأحمر، عليه شعار الدولة القعيطية، يشمل صفحاته، تكر بين أصابعه، بنظرة طويلة وغامضة.

يفكر الشاب في كل ذلك، وفجأة يحدِّق في الفرنسي، عبر المرآة، التي عثر فيها على ما يشبه الوسيط، يمتص عنف الكلام وحدة النظرات المباشرة. ولربما أن البرهة المشوشة، التي يجد كل منهما نفسه مقذوفًا في جحيمها، تقترح طرق غريبة للتواصل. عريضة المرآة مثل جدارية، يراه خلالها، من الخلف، وهو يتململ في مقعده، يلبس العجوز بنطلونًا واسعًا من الكتان، لونه أخضر، ويرتدي فوقه رداءً أزرق فضفاضًا مفتوحًا إلى أسفل، ياقتاه عريضتان ولامعتان، تكشفان عن صدر عريض خالٍ من الشعر، وحزام من القماش يعقده حول بطنه.

ويسأل الشاب نفسه كيف رآه العجوز، عندما رآه أخيرًا بعد مضي وقت طويل؟ لم يصادف أن أبصره ينظر في وجهه، كان يأخذ منه كأس الشراب أو قدح القهوة أو أي شيء آخر، فيما يكون مشغولاً بأوراق في يديه أو بضيوفه أو وهو سارح بعيدًا، وربما لا حاجة به لأن يرى وجهه. ويعود للتحديق في الفرنسي ويفكِّر. تعيش في الصدمة أيها العجوز. لا يستحق الأمر كل هذا العناء منك. ومع ذلك أنت لا تصدق أن هذا يقلقني أنا أيضًا. قلق وغيوم سوداء تملأ رأسي. أكثر من أربع سنوات منذ تحطمت أسوار المدينة المحرمة، صنعاء، ماذا حدث؟ يتساءل الشاب في نفسه، ويرنو إلى التاجر الفرنسي بنظرات مشوشة، لم يعد يراه سوى في هيئة جسم

غريب، يقبع بعيداً عنه. لا شيء، الدماء هناك لا تزال تسيل، والرصاص يقتل حتى الأحلام، قبل أن تنبثق في مخيلة الجمهوريين. مثل شعاع ساطع وجميل اخترقته عدن، التي نهضت من رمادها، وخطت بقوة، باتجاه عالم جديد لا تنتهي مفاجآته، ووعوده لا تعرف الحدود.

لا يصغي الاثنان إلى ما يقوله واحدهما لنفسه. لكل واحد منهما هواجسه ومخاوفه في هذه اللحظة، التي يتخلى فيها كل شيء عن وضوحه. لم يتعود الشاب أن يكون بهذا القرب من العجوز الفرنسي. الحوادث هي من دفعت به إلى هذه المسافة. في الواقع أنت بدأت عملك في بيته مع شراراتها الأولى، وعندما بلغت حداً خطراً، أجبرك على التواجد بقربه، لم يطلب منك ذلك صراحة، ولم تحتج أنت إلى كبير عناء لتتفهم كبرياء الفرنسي العجوز، الذي يمنعه من التصريح بخوفه.

يتمنى الفرنسي، كما لم يتمنَّ شيئًا من قبل، لو أن في مقدوره السباحة الآن. يروق له أن يترك جسمه طافيًا. لو يقدر، كما في السابق وقبل الحوادث، أن يهبط المنحدر ويتسلل بين البنايات القليلة، إلى البحر، ويختار بقعة معزولة ويترك جسده يمضي، كأنما بلا مشيئة. بينما كان يسبح في تلك الأوقات، بعيدة باتت تمامًا عن أي اضطرابات حالية، يرفع رأسه فيرى شباك صيد سمك القرش، ومع ذلك يتمادى في السباحة ولا تثنيه الخشية أن ينقض عليه، ذلك المخلوق الشرس. يصعد الصخور المجاورة، بعد أن ينتهي،

ويذهب في شكل مستقيم، من تشارش أوف ذا روك، إلى ليدو، غير بعيد منه يشم رائحة الماعز ويشاهد القطط، تتقافز في الطرق الجانبية. يرى الصياد، نفسه في كل مرة، يرتدي إزاراً وفانلة بيضاء، ويحمل أسماكًا كبيرة، يربطها إلى طرفيْ عصى طويلة محدبة، ويحملها من المنتصف فوق كتفيه.

"ودائمًا تبقى لنا باريس" أراد أن يقولها الفرنسي مثلما فعل مراراً، لكن مرارة تعبئ فمه وشعوراً غريباً يتخلل كيانه كله. وتكدّر خاطره أكثر وهو يشم، ليس روائح البارود إذ تنتشر في الأمكنة كلها، إنما رائحة أنفاسه، صارت كريهة. هل هو تأثير الكحول، أم بعض الأكلات المحلية، التي أضحى يتناولها بين حين وآخر، كسراً للرتابة؟ ويروح يتذكرها. "جاءت عدن في عنفوان الشباب. كانت للتوّ تزوجت". يظن الشاب أنه يتحدث إليه، فيرفع رأسه ليقول شيئًا، غير أن الفرنسي يسترسل في الكلام عن آيريس. استُدعي زوجها، الضابط في وزارة المستعمرات، وتم إرساله في الحال إلى مكتب مساعد الحاكم هنا، بعد انفصال عدن عن حكومة بومباي، لتكون تابعة لوزارة المستعمرات مباشرة، وقبل حوالي عشر سنوات من حصول الهند على الاستقلال. قدمت وفي رأسها تلك الفكرة، التي ناقشتها مع أستاذها في جامعة ليدز. قالت لي في ليلة عاصفة، مفعمة بالعواطف المشبوبة وأبخرة الكحول وحمى الجسد، إن الأستاذ لم يتحمّس، ربما خبر خطاب الاستعمار، عبر الكتب فقط، إلا أنها حين أصرّت طلب منها أن تكتب له، أن تتأمل حياة

الإنجليزي، أن تحوله إلى فأر تجارب، في محيط هو دخيل عليه.

تحت ضغط الإرهاق، تنفر نظرات العجوز، تحدِّق في السقف الذي تغطيه النقوش، وتدلت منه ثريات الكريستال، في البسط العجمية، في اللوحات، بأحجام كبيرة، على الجدران، في واجهات الكتب، بتجليد فاخر، في تحف لافتة للنظر، ومنحوتات لها أشكال تعكس أوضاعًا إنسانية غاية في التعقيد.

مثل نقطة صغيرة يبدو، ضائعًا في البهو فائق الفخامة.

(١)

تعبر سيارة الفولكس واجن، بمصابيح مطفأة، الطريق المظلم، في آخره، فوق قليلاً، يطيش ضوء، تنشره الأنوار الكاشفة، لتحديد مواقع الطائرات المغيرة لضربها. كان الليل قد بدأ يهبط عندما اجتازوا أكواخًا مزرية، باتجاه معسكر الأمريكيين. وقبل أن يتخطوا، في طريقهم إلى داخل المدينة، مجسَّمًا من النحاس، يأخذ شكل قنبلة ترمي في داخله النقود، تبرعًا لشراء طائرة حربية، من طراز "هريكن"، استأنفت الغارات نشاطها الليلي، تستهدفهم من الصومال وشرق أفريقيا. كانت الغارات أشرس من أي ليلة مضت، وتضيء على نحو ساطع، الظلامَ العميق، وتحدث جلبة كبيرة في الصمت المطبق.

الفولكس واجن لم تعد تسير، كما لو أن إطاراتها انفجرت فجأة، راحت تنطلق في خطوط متعرِّجة، ثم توقفت أسفل الطريق. خرجوا ثلاثتهم، الفتاة والسائق وهو، وهبطوا أكثر في العتمة، حتى كادوا يلامسون مياه البحر. وهو يجعل من نفسه حاجزاً بين الفتاة والسائق، راودت قاسم أفكار حول المعنى مما يكرِّر القيام به من حين إلى آخر، سرعان ما صرفها بحركة شديدة التوتر من رأسه. تمدَّد ووضع يديه خلف رأسه وأشار إلى الفتاة أن تفعل مثله. تعلم ذلك في دورة سريعة، حول كيفية التصرُّف أثناء الغارات الجوية.

في الطريق من الشيخ عثمان إلى سكن ضباط القوات الجوية الملكية البريطانية، في خور مكسر، كان الظلام شديداً، بيد أنه كان يمكن لقاسم تخيل التلال الصغيرة للملح، وطواحين الهواء، التي تستعمل لدفع مياه البحر إلى أماكن التبخير، ويصغي لطيور النحام تصخب قريباً من مياه ضحلة، خلفتها عملية تصنيع الملح، تفتش عن شيء تأكله. يُنصت راح لأنفاس الفتاة، قصيرة وحادة، كأن سكيناً تقطعها في المنتصف. وشعر بجسدها وهو يلتصق بالأرض، يختلج بشدّة، مثل شاة ذبيحة. مرر يده وجَهد أن يشحن أصابعه بقدر كبير من الطمأنينة لترتاح الفتاة ويسكن جسدها. لم يكن يشفق عليها، كان همُّه في تلك اللحظة الرهيبة، ألا تدخل على الضابط وهي في وضع مزر، فيكفّ عن التفكير فيها، وهو الأمر الذي لن يغفره لنفسه.

أشعل السائق سيجارة، فلوى قاسم رأسه إلى الخلف، ولمحت عيناه فستانها ملطخاً بالطين، وانزلقت نظرة منه إلى ساقها، وخيل إليه أن يرى آثار دماء. كانت تمددت فوق حصى وقطع خشب صغيرة. نظر أمامه إلى الطريق، يلفه الصمت ثانية وبدأ يشاهد حركة في البعيد، علامة على عودة الحياة إلى طبيعتها، إلا أن حياته هو نفسه راحت تبتعد منه، هكذا راوده شعور لفرط مرارته وجد صعوبة في التصالح معه، حتى لو ركض بكل ما أوتي من سرعة، ليلحقها ويستردها لن يتمكن.

لم يُطل الضابط النظر فيها. تقف في منتصف الطابق الأرضي

من فيلّا صغيرة. ولم يلمح قاسم امتعاضًا على وجهه، مع ذلك سكنه شعور بالخيبة. تبعد الفيلا قليلاً عن بقية منازل، لها جميعًا اللون الأبيض، شُيّدت من الألواح المتينة، وتقع في صفوف قصيرة، تتقدمها مظلات تسندها أعمدة حديدية، وتتخلل هذه الأعمدة أشجار قصيرة زُرعت لتلطيف الجو. يعيش الضابط الستيني، الذي ليس سيئ المزاج على الدوام، إنما يصعُب إرضاؤه في كثير من الأحيان، في عزلة. ولا يتواصل مع الآخرين، سوى بقدر ما يحتّمه منصبه الرسمي، من احتكاك بمواطنيه والاختلاط ببعض المؤثرين، من الجاليات الأجنبية.

كان يمكن لقاسم، عندما كان على مشارف البوابة، أن يرى، من مكانه، الضابط لحظة وقوفه أمام النافذة، في الطابق الثاني، بكامل لباسه الرسمي، يرفع رأسه ويحك ذقنه، ثم تتلمس أصابعه شاربه المشذب. سيبصره، فيما لو فعل، يتحرك بطيئًا قدام النافذة، يروح ويجيء وحينًا سيعطيه ظهره. يمكن له، إذا ما راقب الضابط، الشعور بوجود ما يثقل كاهله، هو الذي كان يقترب من الزجاج، وجعل، بعصبية، يقرعه بأطراف أصابعه. لكن قاسم لن يعرف أن الضابط، قبل أن يظهر بجوار النافذة، كان يفرد خريطة بلاده فوق طاولة مستطيلة، ويروح بأصبعه السبابة، يلاحق، متخيلاً، جيش هتلر بينما يتقدم في الريف الإنجليزي ثم المدن. لا يقدر أن يقترب من الضابط كثيراً، وأن يحدّق في ملامحه، ليستشف مقدار المهانة التي يشعر بها، أو حجم الإذلال الذي يصارعه، فيما لو احتل

الفوهرر بريطانيا، مثلما فعل بفرنسا. هل سيعتد الضابط كونه محتلاً، هم الذين احتلوا بلدانًا كثيرة. اليوم أخرجت بريطانيا الأطفال من المدن، أرسلوهم إلى القرى، فيما ذهبت الفتيات والنساء، وحتى الجدات، للتطوع.

لم يكن تفكير الضابط منحسراً بالكامل في غارات الطليان، كثيفة ومركزة تلقي حمولتها من علو منخفض وتخلف حفراً هائلة، مرة تشطف بناية، وثانية تخترق أخرى من السقف، وحينًا من النوافذ الزجاجية العريضة، إنما في الجو الذي تشيعه، وتجعل من الأمريكيين يقدمون على التفكير في زيادة مساحة نفوذهم هنا. بقي حيِّز صغير، شغله الضابط بقاسم ومغامرته، وسط الغارات، التي هدأت الآن. لم تصل الأخبار بعد، عما أسفرت من ضحايا ودمار. لم يخالج الضابط، متوسط القامة، له بنية مشدودة، وشارب كثيف يتميز بلون قاتم، أدنى شعور أن قاسم، الذي كان يلبس مئزراً ملونًا وقميصًا أبيض بكم قصير، وكوفية مزركشة فوق رأسه، لا يتفانى في عمله، وأنه يحب أيضًا أن يرضيه.

لدى هذا الضابط أفكار وخطط صارمة، لديه حياة غامضة وشديدة السرية، لكن النازيين ليسوا في متناول يده، أما الإيطاليون فقد فاجأوا عدن كلها، وليس هم فقط، بقوتهم.

فيما هو واقف يترقّب كلمة من الضابط، لفه شعور بالوحدة وخطر له عنتر، فتكدر خاطره. زاره الأسبوع الماضي في الكرنتينا ورآه يبصق دمًا. في كل مرة يزوره، يرى هذا الدم. يمتلئ صدره

بالبلغم ثم يبصق كتلة حمراء. كان يرتعش وجسمه يتعرَّق، أصبح نحيلاً يهدُّه سعال لا ينقطع، وتبدو عليه آثار الإجهاد والوَهَن. تطلَّع حوله فشاهد مرضى آخرين ممددين في المكان الضيق، بعضهم على أسرَّة خشبية، وبعضهم ينام فوق الأرض بجوار الجدران. لم يعطوه دواء، فقط ملعقة من زيت كبد الحوت ثلاث مرات في اليوم، وكانوا يجبرونه على تجرُّع طعمه الكريه. وأبصر السيد حسين يتجوَّل بين المرضى، تعوَّد أن يشتري الفاكهة الرخيصة والأقمشة البيضاء للمرضى، والشراشف للأسرّة في العنبر. لا يخشى السيد حسين العدوى، عندما يكون في الحجر الصحي، أو في مستشفى الإرسالية حيث يعمل في إدارة شؤون المرضى.

يحملق قاسم في علب بيرة فارغة، يراها تملأ محيط طاولة صغيرة، بعضها مطعوج من المنتصف، كما لو أن من كان يحتسيها، داهمته لحظات عصبية، فراح يضغط بقوة أصابعه قوام العلبة الرقيق، حتى شطرها إلى نصفين، عندما سمعه يقول، "لا تأت حتى أطلبك". وشمله بنظرة لم تطل. دفع السائق، في رحلته الليلية الماضية لجلب البضائع، إلى اقتحام نقطة التفتيش. سمع صفيراً وإطلاقات ورأى في المرايا أنواراً ساطعة تتعقبهم، لكن لم تنجح في جعله يستسلم. مع ذلك تعب قاسم، لم يعد يحتمل مفاجآت الطريق، المدمِّرة لأعصابه. التشاحن بين الإنجليز، الذين يحمونه، والأميركيين، يعيق سلاسة العمل، وأحياناً يضطرُّه إلى التسلل عبر الجبال، أو إلى العبور بحراً عبر قوارب الصيادين. كان الأمر سيكون محتملاً، لولا إذعانه للضابط وتلبية

رغباته، وإلا لن يجد من يوفّر له الحماية.

كان توّاقًا لأن يسمع شيئًا مختلفًا عن إعجاب الضابط بالفتاة، وقبل أن يترك شم قاسم رائحة لم تعجبه، تفوح من جسد الضابط، لم تكن كريهة إلا أنها أفقدته توازنه لثوانٍ. ورآهم، بينما هو يغلق الباب، مشغولين بالحديث واحتساء الشراب، حتى عندما انحنى ظل الضابط، وارتسم كبيرًا فوق الجدار، وقعد بينهم.

وآخر ما خطفه، حين لوى عنقه، قبل أن يغيب تمامًا خلف الباب، ويختفي في الظلام، نظرة إلى وجه الفتاة، وشعر بألم خفيف في معدته.

(٢)

لم يتلاشَ الألم الخفيف في المعدة، بانتهاء تلك الليلة، التي أضحت بعيدة جدًا، سيتطوّر ويتحوّل مرضًا غامضًا أخذ يتفاقم، مع مرور الوقت، حيث أخذ يشعر بالخزي. ويخامره إحساس من يتخبط في بركة، قاعها وحل وتطفو فوق سطحها القذارة، كلما رأى الضابط، خلال الممر الطويل نفسه بستائره الخفيفة، في واحدة من الحجرات الداخلية، يقترب منها ويلتصق بها من الخلف، بينما تنحني على إناء أبيض فوق طاولة خشبية أنيقة، لونها أسود وتزينها زخارف ذهبية. لم يكن يحضنها الضابط، وهذا ما كان يفاقم من شعوره بالمهانة، إنما يلتصق بها في صورة داعرة، كمن يتسلى بامرأة لا قيمة لها عنده، هكذا يخطر له في كل مرة يراه يفعل ذلك.

يحملق فيه وهو يتفقد هندامه، ثم امتدت يداه، مثل كل مرة، وعصرت أصابعه ردفيها واستدار منصرفًا. هذه المرة اصطدمت نظراتهما خلال مروره، فأخفض قاسم رأسه، خشية أن يكون تسبب في غضب الضابط، الذي مر بجواره ولم يقل شيئًا، كأنما هو لا يراه.

كره الضابط وتمنى لو يؤذيه، لكنه يعرف في داخل نفسه أنه لن يفعل شيئًا، غير أن يغوص أكثر في النجاسة، طالما هو يوفِّر له الأمان، لتحقق رحلاته الليلية نجاحًا. وعاد ليراها منحنية تفرك يديها بالصابون، رفعت إبريقًا وجعلت تدلق الماء، ثم طفقت تغسل وجهها. تأملها وهي تتناول منشفة صغيرة، وتضعها فوق وجهها المبتل، ثم وهي تختفي من أمامه. كانت ترتدي ثياب النوم، فضفاضة بألوان زاهية، وتكشف ذراعين عاريتين، وصدرًا ممتلئًا.

تشغله المدة الطويلة، التي مكثتها حتى الآن في منزل الضابط، من دون أن تبرحه. ليست من عادته، إذ لا يمكثن معه سوى بضعة أيام. فيما يخص قاسم، لم يدرِ كيف استولت على تفكيره، كيف طفقت تتسلل إلى مناماته. لم ترق له أبدًا مهمات من هذا النوع، يطلب منه الضابط القيام بها، وفي كل مرة يحدث نفسه بأنه لا يصلح لأن يقوم بتلك الأعمال، فيجد نفسه يقع في دائرة التكرار.

ولئن تبدو هي راضية بما آلت إليه أحوالها، فإنه، في المقابل، يحس أنه يعوم في لزوجة كثيفة. بدأت المسألة معه، في شكل غير متوقَّع، لم تنبثق من الغموض الذي كانت عليه، سوى متأخِّر. كان يشعر على الدوام، في كل مرة يزورهما هنا وفي صورة مشوَّشة،

بميل ما اتجاهها. ظن أن الأمر لا يتعدى شعوره أنه هو من جلبها، وأنها تعني للضابط بقدر ما يعني هو له. لم تكن لديه أدنى فكرة، أنه يختبر شعوراً جديداً، شعوراً لم يعرفه من قبل، رغم أنه تخطى الثلاثين من عمره. لكن ما هذا الشعور الذي لا يتجه سوى إلى فتاة مثلها، جلبها من أكواخ سيئة السمعة؟ لم تعد كذلك، يفكر قاسم، تغيرت، غيّرها الضابط. لم يجعل منها امرأة مستقيمة ولا قديسة، ليس هذا ما يقصده، الأمر أكثر تعقيداً مما يمكن تصوره، لعله لهذا السبب أصبح متلهفاً إلى رؤيتها.

"إذا واصل البريطانيون، فسيُهزم روميل في العلمين خلال وقت قصير. وستكون بريطانيا هي الدولة الأوروبية القوية في البحر الأحمر". قال فارسي يرتدي ملابس فضفاضة، تتهدل مثل الحرير على جسده، وهو يمسح أسفل عنقه وصدره بمنديل أبيض منقّط، "لا بد من تحقيق النصر". رد هندي ولمس شاربه، طويل وكثيف كجناحين صغيرين، وتفقد على نحو خاطف العمامة فوق رأسه، كانت بين يديه صحيفة إنجليزية، تظهر جنوداً في صحراء وصورة لمونتجمري.

ولا عربي واحد بينهم، قدامهم كؤوس الشراب وعلب بيرة، كلما جاء وجدهم في الركن نفسه. وتذكر والده الذي كان مجنّداً سخرة في الجيش التركي، حين كان يحتل سلطنة لحج، جاء إلى عدن بعد الحرب العالمية الأولى، واختلط بالإنجليز وتعلم لغتهم سريعاً. ثم اشتغل في شركة الملح الهندية، في "الحسوة"، عانى كثيراً إلا أنه

صمد فرُقّي إلى مقدم، أي رئيس مجموعة من العمال. ظل يسكن في "حافة القحم" في الشيخ عثمان، حتى مرض بالتيفوئيد، ضمن كثيرين أصابهم هذا الوباء، ومات. يتذكر حرصه أن يتعلم القراءة والكتابة، وكيف احتفلوا بختمه القرآن الكريم، جاء المدّاحون ورفعوا البيارق الملونة، وأنشدوا الأناشيد الصوفية، فيما كان هو يتوسطهم يلبس المشدة والجاكيت والفوطة ويتقلد سيفًا، ثم ساروا به إلى مقام الوليّ الهاشمي.

يتواصل نقاشهم، وسط الأدخنة، ورائحة المشروبات والرطوبة، التي لم تبددها المروحة الكبيرة بجوارهم، يفهم بعض ما يقولونه إلا أنه يتوه عندما يختلط الكلام ببعضه. ويعتريه إحساس، يعاوده من حين إلى آخر، بالوساخة. في الحروب، كل شيء يمكن أن يباح دفاعًا عن الحياة. حتى وهو يسمعهم يبقى يرهف سمعه، لأي صوت يتناهى من الداخل. يقول لنفسه أحيانًا: إنه يستطيع أن يشم من هنا رائحتها، وأن يصغي لخفيف ثيابها وهي تحتك بالأشياء، أثناء مرورها الخفيف في حجرة النوم أو المطبخ، حيث يمكنه سماع رنين الملاعق وإغلاق المرطبانات.

ورآها تستدير حول طاولة كبيرة، محاطة بمقاعد مبطنة ولها مساند بتكئات مريحة، وفي وسط الطاولة تنهض منحوتة نحيلة، لامرأة بساقين طويلين يبرز نهداها، صغيرين، وبشعر يفر إلى الوراء. كم من الوقت مر ولم يرها، منذ آخر مرة، وفي غضون ذلك نمت كثيرًا، لم يعد يتعرف فيها تلك الفتاة القديمة. وفي كل مرة

يتساءل إلى أي واحدة فيهن تأخذه عواطفه المضطربة؟ مرات كثيرة جاء ورآها، ثم أخذها في مشاوير لشراء حاجيات للبيت ولها، وأحيانًا يعرجان على الفندق، لتناول مشروب بارد.

تناول قاسم كوب ليمون من صينية بنقوش دقيقة، في حوافها المقلوبة إلى أعلى، وامتثل لإشارتها وجلس إلى مقعد أسفل صورة للضابط، تجمعه بالملك جورج الخامس خلال زيارته لعدن. تعود الصورة إلى العام ١٩١١، ويبدو فيها الضابط، الذي كان يقود فرقة الاستعراض، يافعًا، وهو يصغي بانحناءة صغيرة، من رأسه، ويديه معقودتان خلف ظهره، فيما قدماه متلاصقتان في وضع التأهب. وخطر له وهو يحملق في صورة أخرى للحاكم هاثورن هول أمامه، ضمن صور أخرى، أن يذهب إلى منظمة الوقاية من الغارات الجوية، ليس لأنه تقدم بطلب الانضمام إليها، إنما فقط ليراه. فتيات المدرسة يهتفن باسمه، هو الذي أجبر الآباء على تعليم بناتهن. إلى اليسار على الحائط، صور كثيرة، واحدة منها لمساعد الوالي ستيورات بيراون، جالسًا في مبنى السكرتارية بكامل أوسمته العسكرية، ويتدلى سيفه على أحد جانبيه. يعرفه جيدًا فهو يزور بنفسه الفقراء، ولا يتوانى، على العكس من معظم الإنجليز، عن الجلوس فوق صندوق قدام أحد المحال، من أجل أن يتحدث مع عدني أو أحد اليمنيين.

وفاجأه أحد أولئك الأشخاص بوقوفه أمامه، ثم لوى عنقه وراح يختلس النظر إلى البقية، كما لو أن بينهم رهانًا ما. كان فيما يبدو

أصغرهم، له شارب أحمر خفيف وشفتين رطبتين، وسأله: "مع من أنتم؟ لا تقل إنكم معنا"، ورمقه بنظرة باردة. تلكأ قاسم، الذي شم رائحة خمرة هبت مع أنفاسه، ولم يقل شيئًا. "هيا قل إنكم تتوقون لأن ينتصر النازيون". الأشخاص هناك يترقبون حدوث شيء ما. مضت برهة من الصمت، شعر فيها قاسم بجسمه يتصبب عرقًا، لكن الضابط قطعها بأن نهض، وتقدم في خطوات متثاقلة، كأنما لتوّه انتبه لوجوده. "وصلت؟ احتاجك، انتظر". قال الضابط بلا مبالاة، ثم تركه بالخطوات الوئيدة نفسها، وتوقف قدام مكتبة من الخشب، جيء بها من ورشة الجيش. فكّر وهو يرى الضابط يخرج أوراقًا من أحد الأدراج، ويقول شيئًا عن الفتاة ونادي سيدات عدن، أن يتقدم منه ويقول له إنها من خشب الصنوبر، وإن سعر قدم مكعب منه، كان قبل الحرب بعشر آنات، وقدم مكعب من خشب البنتيك بـ ١٢ آنة، أما خشب الساج فتقريبًا بـ ١٠ آنات. افترض أن الضابط ستلفت انتباهه ملحوظة مثل هذه، وسيعجب بقدرته في التعرف على نوعية الخشب، رغم المسافة البعيدة نوعًا ما، وسيبادر بالتوضيح، في حال سأله عن مصدر خبرته، أنه كان تاجر أخشاب صغير.

وبغتة عاود طرح السؤال نفسه، الذي يشغله من حين إلى آخر، ماذا يفعل بهن؟ لم يفت قاسم ما يشيعه الآخرون عن الضابط أنه شاذ، أو أن مكمن رجولته أصيب بمقتل، إثر شجار قديم في شرق أفريقيا. والمؤكد أنه ولا مرة رآه أحد برفقة إنجليزية، يصر البعض على أنه يتجنّبهن بشدة، كما لو كنّ مصابات بمرض معد. ورآه يعود

لأصدقائه، وقبل أن يجلس مال الضابط بجسده، كمن يريد قليلاً من الهواء، الذي تضخه المروحة الكبيرة، وفعلا تحرك الشعر في مقدمة رأسه، ورفرفت ياقتا سترته.

(٣)

لم يفكر قاسم وهو يناول أوراقها، إلى موظفة في نادي سيدات عدن، في أن الضابط يجعل منه مسؤولاً مباشراً على شؤونها، غير أن أمراً راح يقلقه، أيريد أن يجعل منها سيدة عدنية، ثم ماذا؟ حتى الموظفة، التي كانت صغيرة وجميلة وأمكنه أن يرى فخذيها، مكتنزين، يضيق بهما لباسها القصير، قالت بينما تقرأ بعينين مندهشتين الأوراق، إنه قد يحتاج إلى موافقة زوجة الحاكم. لم يرد بأي كلمة وبقي صامتاً.

انتهيا من نادي السيدات، ثم ذهب بها ككل مرة لتتبضع في الفاملي ستور، بعد ذلك قصدا الفندق، لا يجد غيره مكاناً يليق بفتاة ضابط إنجليزي، ليجلسا فيه ويحتسيا مشروباً. يصعدان درجات قليلة للوصول إلى الباب، إلى يمينه ويساره ما يشبه الشرفة الفسيحة، تتناثر فيها المقاعد الخشبية. على يمين موظف الاستقبال، هندي أسمر وعيناه حمراوان على الدوام، سلم طويل يؤدي إلى الحجرات في الأعلى، أما المطبخ فخلف الموظف، يريان النُّدُل يخرجون، عبر رواق معتم، حاملين المشروبات وأحياناً أطباق الطعام. فرد الصحيفة على الطاولة، مغطاة بقماش عنابي،

ووضع إصبعه على الإعلان، "ستعرض سينما هريكن فيلم "ذهب مع الريح". يوم الأربعاء القادم. وهو شريط ملون قلّما شاهد العالم أحسن منه عرضاً وموضوعاً ومشاهدة. بطلاه كلارك جيبل وفيفيان لي".

بينما يقرأ خبر الدعاية، كان يصغي إلى صوته، وحيداً ترددده ردهات الفندق القديم والخالي. قالت كلاماً قليلاً، لم يكن متأكداً إذا ما كان سمعه جيداً، لكنه رأى نظراتها بوضوح، نظراتها التي جرحتها الشمس قبل قليل، وهي تسيل وتغمر القبلة الساخنة، تتلقاها الممثلة الصاعدة من شفتي النجم الوسيم النهمتين. لم ترد عليه ما إذا كانت موافقة أن يصحبها أم لا. بقيت تمضغ قطعة كيك وتأخذ رشفات صغيرة من عصير برتقال. لم ييأس، قلب الصفحة وأشار إلى إعلان آخر. "سيمثل رواية "علي بك الكبير" فريق من أعضاء نادي الإصلاح العربي بالتواهي. في سينما ريجال. تحت رعاية صاحب السمو السلطان عبد الكريم فضل بن علي العبدلي. سلطان لحج المعظم. مساء السبت القادم. الساعة سبعة ونصف. محلات التذاكر: مطبعة فتاة الجزيرة. نادي المعهد البريطاني". بقيت أيضاً ساكنة.

قال لها إنه لا يذهب للعمل في كل ليلة، وإن أياماً تمر قبل أن يقوم بواحدة من رحلاته. وأضاف أنه بات يخشى على روحه، حتى مع الحماية التي يمنحه إياها الضابط. وذكر أنه رأى كثيرات، لكنهن لم يغيّرن فيه شيئاً باستثنائها، إذ يشعر بأنه تغير كثيراً، وأنه

يتمنى، فيما يروح يلمس يدها، لو يكون أحدهما للآخر. ثم يسكت، لم يسكت، هو لم يتكلم أصلاً، يتمنى لو يصبح قادراً على الكلام معها، وأن يكون لديه كلام يقوله لها وحدها. تمر أمامهما، خلال الزجاج، سيارة أمريكية يقودها صومالي فوق رأسه عمامة. ينتبهان لصبيان حفاة بوجوه مغبرة وثياب قصيرة متّسخة يجرّون وراءهم حمارين محمّلَين بسلال كبيرة يجمعون فيها النفايات. وشاهدا هنديًا يبيع "التمبل" خلف عربته، يمسك بورقة خضراء ويحشوها فولاً مبشوراً وقليلاً من جوز الهند وسكراً مصبوغًا فيه مادة عطرية، ويقفلها بحبة قرنفل ثم يضعها في فمه، يتركها في فمه قليلاً ثم بصق في الأرض بقعة كبيرة حمراء.

ولا يدري لماذا سألها، لم يقدر أن يمسك نفسه، عما يفعلان... وعندما لم يكمل فهمت هي، وراحت تتكلم عن ملابس من الكتان، وثياب داخلية من الحرير، وشنط وأحذية من جلود الحيوانات، وقبّعات مزينة بالريش، وعطور في قناني كثيرة. يجعلها تلبس كل ذلك، ثم يأمرها أن تخلع ما لبسته قطعة قطعة، فيما يتفرّج عليها وهو في كامل لباسه العسكري، ويحتسي الخمر ويلتهم حباتٍ من الفول السوداني المملّح، وتختفي ملامح وجهه وراء سحب من الأدخنة.

ومثل كل مرة سيشعر قاسم، وهو يجلس بجوارها في طريق عودتهما، ولا يجرؤ أحيانًا على النظر في وجهها مباشرة، أنه غير قادر على التنفس من الرهبة، ويسأل نفسه، هل فعلاً غيّرها الإنجليزي؟

(٤)

لاح له من بعيد ، وأحس فجأة ببرودة خفيفة تغمره . ينبثق من الظلام خلال جمال قليلة تثقلها البضائع ، بن وجلود وعسل وتبغ ، قادمة من المستعمرات المحيطة بعدن ، تنزل حمولتها ، الضئيلة بسبب الحرب ، في الساحة الخلفية للمقهاية ، ثم يجرها الجمالة ويقدمون لها الأعلاف والماء ، قبل أن ينسحبوا إلى الداخل . الجمال نفسها ستعود عبر النفق نفسه ، محملة أيضًا بما أمكن من البهارات والأرز والدقيق والقماش .

دفع أفكارًا تزحم رأسه وحدق في الأنوار الواهية ، الملطخة بالغبار ، تبعثها مشاعل مزروعة في زوايا الطرقات ، تبدّت مثل عيون مجهدة . ينظر إلى جدران عديمة الألوان ، فيما الذباب يطن في الأنحاء ، يحط على عيني كلب هرم مغبر ، يستلقي بجوار طاولات مكسورة . يزرع نظراته في الرتابة المنتشرة ، في نساء يغطّين أجسادهن بالشيذر ، في أطفال عراة يجوبون الطاولات الخشبية ، المصنوعة بطريقة عشوائية ، يكرعون بقايا الشاي ، ويلتقطون حبات السمسم . يرى أيضًا صوماليين يلعبون الدومنة . ويسمع صوت السيد حسين يصله متقطعًا ، يلقي خطبة في ذم مخيم أبو الطيب المتنبي ، قدام المسجد ، ويهاجم دعوة هذا المنتدى وأعضائه ، إلى تحرير المرأة وإلغاء الحجاب .

وهو يجلس فوق مقعد مستطيل ، يتسع لثلاثة أشخاص ، يمكنه

معرفة أين يمضي كل شارع ترابي، وأين تنتهي الأزقة الضيقة في داخل حارات كريتر، المقسمة بحسب السكان، قسم للهنود وآخر لليهود وقسم ثالث للفرس، ورابع للإنجليز والأوروبيين، وقسم للعدنيين واليمنيين، القادمين من الشمال وبقية المستعمرات. بينما يرى شبح صاحبه يقترب أكثر فأكثر، سمع من يقول: "حتى هذه الصحيفة لا تنشر سوى انتصارات الحلفاء". التفت فرأى هنديًا عدنيًا، جاء والده مع الكابتن هينس، ومكث في عدن وتزوّج من فتاة تعود أسرتها إلى إحدى القرى في تعز، يرفع "فتاة الجزيرة". وأكد مُعارِض لنظام الإمام في اليمن، لاذ بالفرار رفقة معارضين آخرين إلى عدن حيث يواصلون معارضتهم، أن الإنجليز باتوا يتصرفون مثل المجانين، قائلاً إنهم اعتقلوا أمس تاجرًا اشتهر ببيع حبوب الأسبرين الألمانية "باير"، واتهموه بالنازية. وسمعوا من يتكلم عن إنزال في النورماندي، وتعرض المئات للقتل على أيدي النازيين، قبل أن ينجح الإنزال في نهاية المطاف.

جاء السيد حسين إلى المقهاية، بعد أن أنهى خطبته، ورآه يتكلم مع الحاج عبده. لم يكن أحد ينصت للراديو. لا إذاعة عدن التي لم يمضِ على انطلاقها زمن طويل، يمكن سماعها، ولا حتى إذاعة لندن. اختار السيد حسين أن يجلس بجوار قاسم، وسمعه يقول إنه تلقى برقية من عائلة مساعد المقيم السياسي، المقدم هـ. ف. جاكوب، تطمئنُ على أحواله في هذه الظروف. ترك أصابعه تتخلل لحيته الرقيقة، وبينما عيناه تسرحان، أو لعلهما تحدّقان في مشهد لا يرونه، تحجبه عنهم

رطوبة كثيفة، حكى عن الأيام التي عاشها بينهم، مستخدمًا في منزلهم. كان يشاهده وهو ينحني فوق مكتبه ويكتب لساعات. الكثير من الأوراق البيضاء تتحول بين يدي جاكوب إلى خطوط سوداء. وعندما يستفسر عما فيها يأتيه الجواب، إنه يكتب عن العطور والملوك في الجزيرة العربية، ويروح هو يشم عبير العود وشذى الفل، ورائحة الصندل، وأريج الزهور وفوح العنبر. قال إن المقدم جاكوب، الذي ترقّى فيما بعد إلى رتبة كولونيل، كان يحب سماع اللغة العربية تتردد في منزله، اللغة التي تعلمها وكتب بها أشعارًا، لهذا السبب كان يدفعه باستمرار للكلام معه.

خطر للحاج عبده ألا يشغل الراديو اليوم. يبدو نحيفًا مقوس الظهر، وجه أسمر تبقّعه السنون، يغطي رأسه بكوفيه ملوّنة تزينها تخريمات تأخذ أشكالاً لافتة للنظر، ويلبس قميصًا واسعًا مفتوح على فانيلة بنية، ويلف حول وسطه مئزرًا أبيض. خشيته من غضبة الإنجليز، تأخذ مساحة مبالغًا فيها أحيانًا. لا يرغب في أن يتهمه أحد، في مثل هذه الظروف، فاحتمال الاشتباه فيه بالاستماع إلى الإذاعة الإيطالية التي تبث من صنعاء وأديس أبابا، ليس مستحيلاً، خصوصًا وهو ليس عدنيًا.

وأخذ السيد حسين يقص لهم، كيف أن مساعد المقيم السياسي لم يكن يحب زوجته الثانية، التي كانت تعمل مبشّرة في المبنى نفسه، الذي كانت تشغله مكتبة الإرسالية الدنماركية. سكت ريثما ينهي كوب الشاي الملبن، وبغتة قال إن العمل مع الإنجليز مفخرة، "بس ما توسخش نفسك". ومع أنه لم يخاطب أحدًا بعينه، إلا أن

قاسم شعر أنه يقصده هو بما تفوّه به. سيمسك السيد حسين بمروحة من الخوص، ويروح يهوِّي بها تارة على صدره وتارة أمام لحيته. ولم يعلِّق قاسم ونظر في الوجوه القليلة حوله، وهي تحاول طرد الضجر ودفع رتابة أيام الحرب بعيداً، فقط تذكر حاجته إلى الاغتسال، وأن الوراد لم يدق بابه أمس ولا اليوم، ليزوِّده بالماء.

يتخطى عنتر لوكندة جعلتها الحرب مهجورة من النزلاء، ويمر بجوار بار الهندي مندرا، ويتلكأ عند سليم، صبي البار، ويراقبه وهو يقوم بجمع علب البيرة الفارغة، بينما يغازل فتاة بملابس سوداء، لكن وجهها كان منيراً، على الأرجح يهودية من طائفته. ولا يدري قاسم ما الذي تغوص فيه قدماه، تمسكهما، فلا ينهض ويمضي إليه في خطوات سريعة، لكن عنتر يختفي ثانية، حالت بينهما عربة بإطارين كبيرين، يجرها حمار، محملة بالكراتين، ثم تقطع الطريق حافلة هرمة تنزل ركاباً وتمضي مخلِّفة أدخنة سوداء كثيفة.

وهرع إليه أخيراً وحضنه بقوة، وتنشَّق قاسم رائحة المرض، لذلك لم يسأله كيف هي صحته الآن، ولا عن العزل الذي تركه. يتجنبان السجن ويمران بجوار مكتب الشرطة، وتأتيهما حمحمة الأحصنة من محطة عربات الخيل، في النهار يبصران الأبخرة تخرج من مناخيرها وتعلق في الهواء، فيما ذيولها، غزيرة الشعر، تلشط البعوض وهو يتجول فوق مؤخرات هزيلة. العاطفة التي تجمعه بعنتر، الصديق الذي بقي له بعد أن غادر الجميع عدن، تبدد مشاعر كثيفة في نفسه. تمر أيام ولا يشعر سوى بالكرب والتيه. تنبثق

علاقاتهما لتكون بذاتها حافزاً، يغذّي عزمه بما يلزم من الرغبة والحماسة، للذهاب في مشاوير طويلة، كأنما بلا نهاية.

يعبران إلى شارع أروى، يتركان عقبة عدن خلفهما ويسيران باتجاه "إيسترن بنك"، يأخذهما الطريق، حتى تخطيا مدرسة الملك جورج الخامس اليهودية للأولاد، ثم توقفا قليلاً عند مدرسة "جنة شالوم" للفتيات، أدارا وجهيهما باتجاه البنك، وبقيا يتفرجان على عربات الأحصنة، تقل يهوداً عائدين من محالهم في التواهي، وينصتان في الوقت نفسه إلى الأغاني اليهودية، تهل عليهما من الشبابيك الخشبية المخرمة. توغلا في أكثر من شارع، قبل أن يتركا معبد الهندوس على يسارهما، ومشيا ثم انعطفا يميناً إلى شارع الطويل ثانية، وواصلا سيرهما صامتَيْن، باتجاه مطعم يقع قرب تقاطع أزقة متربة.

قال عنتر بينما يتعشيان، صحنًا من العشار وبسباسًا وخبزاً وشايًا، في مطعم هو عبارة عن حجرة صغيرة، مفتوحة على مساحة ضيقة، إنه عمل قبل الحرب في البناء، وكان يحصل على 9آنات في اليوم، وأضاف أن البنّاء، الذي كان يريد أن يكون مثله، يتقاضى روبية و 10آنات. ونظر عاليًا فصدته العتمة، ثم صوب نظرة بلا معنى باتجاه صاحب المطعم، يقبع في الظلام سوى ما ينيره اللهب، الذي ينضج فوقه الطعام، وهو نفسه من يطهو، يصرخ الزبائن بما يشتهون تناوله، من أطباق محدودة، ثم يجلسون إلى كراسي بالية وطاولات أشبه بالحطام. واستمر عنتر في الكلام، فحكى أنه في

قريته تكفي قفزة صغيرة إلى الأعلى، ليلمس بأصابعه الغيم. وبغتة أخذ يشتكي من المقادمة، قال إنهم يستغلون حاجة العمال للشغل، فيجبرونهم على القبول بأجور زهيدة، ليرضوا أصحاب العمل، ويأخذوا هم أجرهم مضاعفًا. وهو يصغي إلى صوته الرقيق، شعر قاسم بأنهما على وشك أن يفترقا، ولن يعود أحدهما يرى الآخر. بدت سنوات الحرب خارج الزمن، عمرًا بكامله أضحت، حتى أنه كان يشعر خلالها، أنه كبر في السن وتشعث شعره.

وبدا كل ما قاله عنتر عن العمل قبل الحرب، ثم الكلام عن القرية، بالنسبة له مقدمة لما سبق أن سمعه منه مرات. أن يبقى قاسم ساكتًا ولا يرد عليه، لا يعني أنه يفكر في أن يشغله معه، ليس لأنه لا يحتاج إلى من يساعده، إنما لخطورة ما يقوم به، ويخلف في نفسه من هواجس تتخطى أحيانًا كونها هواجس. وقال لعنتر، بينما ينظر حوله في الظلام الخفيف والأزقة الخالية في البيوت التي تنكمش على نفسها، بعد أن تركها أصحابها خوفًا من الحرب، إنه كان يحلم، أثناء ما كان يتعلم اللغة الإنجليزية، بأن يبهر الإنجليز بمستواه المتقدم، لكنه لم يقطع شأوًا بعيدًا في ذلك. وعندما فكر وهو في أولى خطوات التجارة، أن يثبت نفسه تاجرًا متمرسًا يجعلهم يمضون إليه ليتفاوضوا معه على بعض الأمور، كما يفعلون مع تجار كبار، قامت الحرب. وسكت عن أن يقول لصاحبه إن الحرب أسقطت التاجر فيه، لكن شخصًا آخر استيقظ لا يكاد يعرفه، وأنه ما كان له أن

يصدق أن هذا الشخص، يمكن أن يضطلع بأمور كالتي يفعلها اليوم، ولا يجرؤ على البوح بها لأحد.

أنهيا عشاءهما ونهضا، تخللا ثانيةً أزقة وحارات إلى أن حدّتهما الحديقة، في مواجهة معبد الفرس، حيث يريان في النهار هنوداً تعود أصولهم إلى إيران، يمارسون شعائرهم الزرادشتية، وفي أوقات يراقبون طيوراً جارحة تطير فوق جبل قبالة المعبد وتنقض على موتى من تلك الطائفة، تنهش الجثامين التي تترك فوق قضبان مسننة، أسفلها حفرة تسمى المهلكة. "هل تعتقد أنني سأزور بومباي ثانية؟ كنت وعدتك أن نذهب معًا". تساءل قاسم والظلام يغمرهما بالكامل، وسط حياة خالية سوى من الضجر. وردد على مسامع عنتر ما سبق أن قاله له، إن التجار العرب في بومباي، تجار عدن الأثرياء، يستوردون اللؤلؤ من الخليج ويعيشون في شارع بيلاسيس، في عالم القمار وسباقات الخيل، التي يستوردونها من الجزيرة العربية لبيعها في بومباي.

أحيانًا يظلان سائرين حتى يبلغا المراحيض العامة، وقبل أن يريا الخزانات الطويلة، ينكفئان عائدين. وتلوح لهما، من أكثر من جهة، منارة الميناء تشمخ عاليًا، ويهتديان بها أحيانًا. يعودان أدراجهما، وفيما يذهب عنتر إلى المقهاية، لينام، ضمن آخرين تتناثر أسرّتهم الخشبية عارية من الفرش والوسائد، في الميادين وقدام المبارز، لا يعود قاسم إلى المنزل الذي يسكنه وحيداً، بعد عودة أمه وأختيه إلى حضرموت عقب اندلاع الحرب، إنما يأخذ

طريقه إلى حيث يبدأ إحدى رحلاته الليلية من أجل البضائع المهربة.

(٥)

رفض الإنجليز أن يغادر المبنى، أبيض بنوافذ خضراء يشبه حصنًا منيعًا، ويأخذ مكانه فوق جبل حديد. يزوره بعض الوجهاء من عدن. يتكلمون عن أمور كثيرة، ثم يمضون. وما يلبث هو أن يشرع في الكلام باللغة الإنجليزية، يتلعثم ثم يسكت. ونسمع صوتًا، يطمئنه بأنه سيجيدها تمامًا كما يتكلم الفرنسية بطلاقة. "تعود الإنجليز الاستئثار بكل شيء، فيما نحن مستسلمون، مستسلمون تمامًا". كنا نصغي إليه يحتد في الكلام، ويضرب بيديه الحافة العريضة للنافذة.

"باسمره معاهم مابا النحاس أو مكرم

هات لي خبرتي وسلم

حالي يا عسل نوب".

عندما دخل المقهاية، وقبل أن يطلب له الحاج عبده لاسي، أخبر السيد حسين الجميع عن المخدرة التي سيقيمونها غدًا بمناسبة زواج أحد شبان الحافة. حرك المتبقي في قعر الكوب من شرابه البارد، الممزوج بالبهارات، وشربه دفعة واحدة. تعود السيد حسين من الزبائن، ما إن يطل عليهم في المقهاية، حتى يطالبوه بحكاية، وسرعان ما يمتثل لرغبتهم. حكى لهم حكايات وملاحم كثيرة،

أبطالها ينتمون إلى أزمنة غابرة ويختلط فيها الخيال بالحقيقة، لكن الحكاية التي ينصتون لها الآن لا خيال فيها، وبطلها ابن زمنهم. بدا لهم كأنما هو يحاول تذكر التفاصيل، بالدقة التي حدثت بها، ولم ينتبه أحد إلى أنه كان يهز رأسه طربًا، على صوت الشيخ أبو بكر باشراحيل في أغنية أخرى. يميز رغم كبر سنه بين أصوات المطربين، فهو يبطل الكلام، أيًا كان الموضوع الذي يتكلم فيه حين يكون البث الإذاعي شغالاً، يعرف الاختلاف بين صوت عمر غابة وعلي عوض الجراش، ويتنبه إلى الفروق الطفيفة بين صوت محمد علي الدباش أو عوض عبد الله المسلمي، وينشرح صدره عندما ينصت إلى محمد جمعة خان وبامخرمة. ناضل السيد حسين ليمنع المسكر، وحارب بعض الرقصات المختلطة، لكن الغناء بقي بالنسبة إليه مسألة خارج ثنائية الحلال والحرام.

وطفق ثانية يحكي عنها، تلك الشخصية، كمن يصف مشهداً يحدث أمامه الآن وليس قبل أعوام كثيرة. يراه يسير بخطوات وئيدة، خلال البهو الواسع نوعًا ما في الطابق المخصص له وللمرافقين، ويسمعه يردد بصوت ملؤه الغضب والمرارة والغربة أيضًا، كلامًا عن الإنجليز وعن الخَوَنة. ساعات ينزل إلى الطابق الأرضي، يتجول في الأرجاء، وعندما يسمع الرجل صوت جلبة في الخارج، يصعد ثانية إلى الطابق العلوي، ويروح يراقب حركة القطار الصغير، ينقل الملح من منطقة المملاح في الشيخ عثمان إلى الميناء، ويتأمل ركابًا قليلين يهبطون وآخرين يركبون. المحطة تكاد تكون

خالية، وأحيانًا تبدو مهجورة. ويتذكر الرجل بلاده وقطارات التروماي.

انتهت الحرب، ومع ذلك يجد قاسم صعوبة في العودة بالحياة إلى ما كانت عليه. أو على نحو آخر، لا يريد لحياته أن تمضي كما قبل الحرب. هو على الأرجح يرنو إلى دنيا أخرى، وخصوصًا أن الصحف التي تصدر من مكتب الحاكم، تؤكد انتقال عدن إلى طور جديد كليًا. تغمره أمنياته القديمة بأن يعمل موظفًا في دائرة حكومية، لكن ذلك مستحيل لغير الهنود والفرس وكذلك الصومال. تمنى لو أنه أكمل دراسته في مدرسة "ريسدنسي" بكريتر، المدرسة التي تقبل المتفوقين. لكنه لم يعثر على مقعد سوى في المدرسة التبشيرية، وكانت تقبل الطلبة الفقراء والمطرودين من المدرسة الحكومية، ومع ذلك لم يكمل تعليمه فيها، فما أن التحق بها، حتى أغلقت بسبب الإفلاس، وانقطاع معونتها من إرسالية إسكوتلندا.

"مابا النحاس أو مكرم

حالي يا عسل نوب".

يسرد السيد حسين ويستعيد من الذاكرة إيقاع الأغنية، التي كتب كلماتها السلطان أحمد فضل، الملقب بالقومندان، الرتبة التي أنعم بها الإنجليز عليه، ووثّق فيها محبته للزعيم المصري، الذي أنزل في مبنى، قبل أن يتحول إلى نزل يقيم فيه السياسيون، ممن ينفيهم الإنجليز، كان مدرسة لأبناء السلاطين وشيوخ القبائل، التي

تحيط بعدن. لا يقدر السيد حسين أن ينسى ذلك الرجل، الذي نُفي إلى عدن، وجعل يحكي عن الباخرة الحربية "فرنسوا فرديناند" التابعة للأسطول البريطاني، وهي ترسو في ميناء عدن، وينزل هو من فوقها. في صباح ذلك اليوم الثلاثاء ٢٤ يناير ١٩٢٢، لفحت برودة الشتاء أفراداً كثيرين جاؤوا لاستقباله. "طيبتكم تخفف عني وطأة هذه الصخور الجرداء". يقول الزعيم، ويشمل المكان بنظرة واحدة، نظرة متمهِّلة، تروح تتأمل كل تفصيل في المشهد الملبدة سماؤه بغيوم خفيفة.

يسرح نظره يوميًا، على سبيل التسلية وطرد الغم، إلى بناية الجمرك ودور الحكومة، وتارة نادي ضباط الجيش والبحرية. مبانٍ تشبه الأكواخ، لكنها كانت جميلة بالقرميد الأحمر، وكان الإنجليز يهتمون بنظافتها. عرف أن الإنجليز في مصر أفرجوا عن المعتقلين، وبدأ يهيئ نفسه للعودة، ومر يوم ثم يومان، ولم يأتِ الكولونيل الذي ينقل إليه الأخبار ويطلعه على القرارات، وشك في أنهم هنا يخفون قرار الإفراج عنه.

وفي ليلة أخذ الرجل يقرأ واقفًا برقية، جلبها له الكولونيل، أسفل نور شاحب يأتي من مصباح، معلَّق في حائط حجرته الخاصة. في الخارج تسمع ريحًا خفيفة تحرك النوافذ المفتوحة، فتصطفق بالجدران، وتشيع شعوراً بالعزلة. يرفع الزعيم رأسه عن البرقية، وينظر في المقاعد. في الحجرة. في الطاولة المستديرة بمقاعدها القليلة، ثم يعود إلى القراءة. يراقبه السيد حسين، الذي اختار

العمل في خدمته ضمن مجموعة صغيرة، وهو يخطو خطوات ثابتة إلى النافذة ويرسل نظرة طويلة، فلم يرَ سوى الظلام، ولم يسمع غير الصمت، ثم يلتفت إلى مرافقيه، يقتلهم الفضول لمعرفة ما في البرقية، وقال بصوت هادئ وعميق: "غداً سنغادر إلى المنفى الجديد".

في النهار ينظر الرجل إلى الميناء فيرى قوارب فوقها أشخاص يرتدون مآزر بيضاء، وصدورهم عارية، ينادون على بضائعهم البسيطة، أو يحملون من باخرة راسية ركاباً إلى الضفة الأخرى. يشاهد مخازن الفحم، وأحواض تصليح البواخر، غير بعيدة من الشاطئ.

خلال الانقطاعات الصغيرة، التي يتوقف فيها السيد حسين، إما لتناول جرعة من مشروبه، وإما لاستجماع التفاصيل من الذاكرة، ينصت قاسم للأخبار يتناقلها الزبائن فيما بينهم. فعرف أن الإمام يحيى مات، قتله الثوار، وأنه خلف حوالي مئتي مليون طالر نقدية، عثروا عليها في قصريه "السعادة" و"غمدان". وتذكر قاسم أنه لم ير ابن الإمام سيف الحق الأمير إبراهيم، الذي نصب في عدن زعيماً لحزب الأحرار لتحرير اليمن من طغيان الإمام، الحزب الذي أسسه المعارضون هنا، وبدلاً منه رأى ولي العهد سيف الإسلام شمس الدين أحمد، الذي أصبح ملكًا خلفًا لوالده، عندما جاء يزور عدن بعد مدة من تأسيس ذلك الحزب. كان قصيراً وبديناً وله عينان جاحظتان. يومها احتفل به الإنجليز، وأنزلوه في قصر السلطان. ثم

أبصره عن قرب في المعبد الهندوسي، خلال استقبال الهنود، فاسانجي لال جي وراجي بهاي برشوتا مداس، وأيضًا في الجمعية الهندية في وادي الخساف. وزّع يومها هبات على المستشفى الأهلي، وعلى مدرسة جربي الخيرية. وأخذه كبار التجار في نزهة حول عدن، وفي المساء شاهد فيلمًا هنديًا في سينما ريجال.

لم يعد السيد حسين يسمع الأغنية تتردد، "مابا النحاس أو مكرم"، إلا أنه بقي يقصُّ عليهم بصوت رقيق، كأنه سيتكسر بين لحظة وأخرى، تفاصيل ذلك المساء، شديد البرودة من شتاء ١٩٢٢ الذي غادر فيه سعد زغلول عدن، على متن المدمّرة الحربية "كلما تس" إلى جزيرة سيشل، في المحيط الهندي، على قرع الطبول وأهازيج العدنيين، يردد صداها جبل حديد، وهي تحكي عن الشجاعة والبطولة ومقاومة المحتل.

(٦)

قعدت أمام المصوِّر، تلبس الفستان البنفسجي نفسه، الذي سبق أن رآه عليها، مفتوحًا في شكل دائرة فوق صدرها، مع كُمَّين قصيرين، وشريط أسود معقود حول عنقها، مع فصٍّ ذهبي في منتصفه، له هيئة زهرة اللوتس. هي من حددت الزاوية الجانبية لالتقاط الصورة، يداها كانتا مبسوطتين فوق فخذيها، الكف اليسرى تستريح على الأخرى، هكذا فعلت وحدها. صدرها الفسيح جعل عنقها طويلاً وأنيقًا، الشريط الأسود وذلك الميلان

الخفيف لوجهها عن عدسة الكاميرا، صنع منها امرأة غامضة بالنسبة إليه. في كل مرة يودِّعها عند بوابة المعسكر، يعتريه شعور بأنه لن يراها ثانية، ويفكِّر وهو يحاول أن يسرق نظرة متأنّية إلى وجهها، أنها أصبحت قوية بما يكفي، لأن تدفعه دفعًا لأن يحني رأسه ويتراجع خطوة إلى الوراء كي يسمح لها بالمرور.

قالت إنها لا تريد شراء أي شيء اليوم، لكنها طلبت الذهاب لتتفرج على رصيف الأمير ويلز. مجرد أن ينصت إلى صوتها يتدفق مثل أغنية شجية، بدا له ذلك أقصى ما يمكن أن يبلغه من سعادة. الرصيف، ببوابته الأنيقة إلى يمينهما، هو المكان الوحيد الذي لم تؤثر فيه الحرب كثيرًا، وظل طوال تلك الأيام الكئيبة يتنفس الحياة. كان الوقت ضحًى والطقس رائقًا رغم أشعة الشمس. يتخلل الهواء الرطب نوافذ العربة، يدفع أريج الجسد الأنثوي، إلى أن يضوع مثل عطر نادر، داخل السيارة، فيشعر قاسم بالانتعاش، وأخذ نفسًا عميقًا. يريان أعمدة الإنارة وسيارات الإنجليز، صغيرة وسوداء، تشبه العربات التي تجرها الأحصنة، ويمرّان بعمال يجلسون بجوار الحديقة، تأخذ موقعها بين الرصيف وبين مبان قليلة متناثرة، يلفّها غبار يثيره مرور حافلة قديمة لمالكها قهوجي دنشوا، لها أقماع تطرد الدخان إلى أعلى. واسترق النظر إليها، خلال المرآة العاكسة، ولم يرَ أن الفرجة تسرها كثيرًا، بدت عيناها شاردتين، وتكسو وجهها أمارات لهموم ومشاعر غامضة، كمن تخبئ سرًا أو تخشى شيئًا، وخطر في باله أنه لم يسبق له أن رآها هكذا من قبل. استمرا

يصغيان إلى باعة متجولين ينادون على سجائر وولاعات وعلك ومناديل ورقية، ويدفعون عرباتهم باتجاه إنجليز، يقضون وقتاً في تناول مشروب أو الشراء، قبل الولوج إلى مكتب البريد، ثم يخرجون حاملين طروداً ورسائل. وقبل أن يبلغا الكنسية الكاثوليكية الرومانية، انعطفا عائدين ثانية وتوقفت بهما العربة عند بوابة الفندق.

طلبا عصيراً وبسكويتاً وحلوى هندية. هذه المرة قدر أن يسألها عنه وكيف هي حياتها معه، ولمّح لها أنه يهتم كثيراً لأمرها، وكاد يلمس يدها، وتراجع عندما سمعها تقول: "مش مصدقة. يا عالم أيش بيكون شكل بكرة". ولم يدر على وجه الدقة، ماذا تقصد من وراء ذلك، ونظر في وجهها، كانت تنظر إلى الخارج، حيث الشارع يبدو مغبراً، يقطعه في اللحظة نفسها، رجل البريد فوق دراجته الحمراء، ويغيب في الشارع الفسيح قدام صيدلية أورينت.

كان الطقس شديد الحرارة، وراقب خيطاً من العرق، رغم المروحة التي تبرم وتدفع الهواء في كل الاتجاهات، يهبط من عنقها ويأخذ طريقه بتمهل، على صدرها ويتوقف عند مفرق نهديها. ومال بجسده ناحيتها، ورمقها بنظرة فيها من العاطفة، أكثر مما يحتمله هو، فيما اكتفت هي بوضع يدها فوق كتفه، لم تضعها تماماً، إنما حاولت مراراً ثم أعادتها. والتقطت أصابعها قطعة بسكويت ودستها في فمها، وانتظرت قليلاً قبل أن تأخذ رشفة من عصير الليمون.

يراقب قاسم عنقها حين يميل خفيفًا إلى اليسار، لتبقي نظرة صغيرة على امرأة شبه عارية، في لوحة كبيرة على أحد الجدران، يسترخي جسدها فوق أريكة، تسند وجهًا ملائكيًا إلى ذراعها، فيما تهمل الأخرى، تتركها تسقط، مثل ضوء، فوق الأرضية المكسوة بقطعة قديمة من السجاد.

ولأول مرة شعر، بعد انقضاء مدة ظن فيها أن الفتاة التي خرجت من تلك الأكواخ، التي لا يمكن ممارسة البغاء فيها سوى لمن لديهن شهادة ميلاد، اختفت تمامًا، وبدلاً منها انبثقت أخرى، جديرة بالعيش في فيلا جنرال إنجليزي وارتياد نادي سيدات عدن، إنها لا تزال هي الفتاة نفسها ولم تتغير.

سألته بينما تحدق بعيدًا عنه: "أمورك ماشية" ؟ وأحس بالأرض تجري تحت قدميه، لم يخشَ الغارات في تلك الأوقات، التي مضت دون رجعة، مثلما يخشى الآن تمدد الكلام بينهما. تكلم، تارة وعيناه لا تفارقانها، ومرة وهو ينظر بعيدًا، خلال النافذة نفسها، إلى تمثال الملكة فيكتوريا ينتصب مهيبًا في قلب الحديقة، وقال لها كلامًا كثيرًا، تدفّق من فمه وظن أنه لن يستطيع التوقف. وقدر أن يقنعها بالذهاب إلى ميدان كرة القدم. كانت سينما متنقلة تعرض في الهواء الطلق فيلمًا لشارلي شابلن، يسخر فيه من هتلر. اختارا مقعدين في الخلف وجلسا يتفرجان، ويصغيان إلى المترجم، الذي يقعد بعيدًا من الجميع، يقول بالعربي، خلال مكبر للصوت، ما يُكتب من تعليقات بين المشاهد.

قبل أن يتركها عند بوابة المعسكر ويعود، وبينما تمسك بيده بقوة، همست له إن الضابط سيترك عدن، عائداً إلى لندن. بدا له أنه لم يصغِ جيداً لما قالته، كانت أصابعها وهي تنشب في ذراعه، كأنما شَلّت، في درجة أو أخرى، تركيزه.

بعد يومين قرر قاسم زيارة منزل الضابط، لم يطلبه أحد، لكنه عزم على الذهاب، وصدمته المفاجأة، وهو يعود مشيًا، تاركًا ذلك المنزل، الذي جلبها إليه وداوم على رؤيتها فيه سنوات، خلفه، جعل يتخلل الأزقة والطرقات، ويصفعه من بعيد هواء ساحل أبين، راح يرهف السمع لصوت، يبدأ دقيقًا واهنًا، ثم يروح درجة درجة، يتّضح ويصبح قويًا، صوت يقول له إن المرأة التي أحب، والتي غار عليها من الضابط وهو يسلمها إليه في أول مرة، وشعر ليلتها بأنه يعطيه جزءاً منه، وفي غضون الأعوام التي مضت، لم ينفكّ يفكر فيها بصفة مستمرة، بعاطفة جياشة، منعته من التفكير في أية امرأة أخرى، هذه المرأة، التي شعر لوهلة قبل أن تطأ قدماه، حرم بوابة المعسكر، ويطلب الإذن للدخول، ويقابل بالمنع، أنها عادت إليه، لن يراها ثانية.

وراح يتقدم مقتحمًا الساحل. منذ اللحظة التي قالت فيها إن الضابط سيترك عدن، وهو يتمنى أن يذهب إليها ويجدها وحدها، فيما يكون هو قد رحل نهائيًا. لن يبقوا عليها بعد رحيله، في الفيلا، فكّر؛ حينئذ لا فرصة لها سوى أن يستعيدها. مشاعر هائجة تعتريه، تمسك به من أطرافه وتطوّح به بعيداً، لكن ما تلبث أن

ترميه فوق الأشواك والصخور الحادة، لكن إلى أين مضت وكيف؟ قدماه تتوغلان في المياه، وخطر له أنه لم يعرف بعد ما إذا كانت تبادله الشعور نفسه، الأحاسيس ذاتها، أم لا؟

ولم ينتبه سوى والبحر يغمره، يلتهم جسده.

عديداً من المرات رآك، منذ فعلها أول مرة عند بداية هذا المساء، الذي يطول إلى حد كأنما الدقيقة تتحول دهراً. وفي كل مرة يبدو لك أنه يتفرج عليك، مشدوهاً ربما، وربما يتساءل، هكذا تتصوره، تحت الضغط الذي يخضع له بسبب تداعيات هذا النهار الأخير في ماراثون المفاوضات: إلى أي حد يمكن لهذا أن يحرسني منهم؟ تنحرف بجسمك قليلاً، فتبصره خلال المرآة.

لم يحلّ الليل بعد، إلا أن شعوراً بالغرق في الظلام يلازم الفرنسي، يدفعه، راح، برشفات من البراندي، ولما لم يفلح نهض واقترب من النافذة، حدق بصعوبة في الخارج، لا يزال يحس بجفنيه ثقيلين، فلم يرَ شيئًا. ثم بدا له أنه يرى عدن أخرى، تلالاً جرداء ومرفًا قديمًا، مثلما هي صورتها الأولى. وخرج يسير حول المنزل، كبير وفاخر، يصغي إلى خطواته تنطبع في السكون، الذي يمسه في العمق، مكتومًا يتناهى إليه صوت حذائه، يحك السطح الخشن للفناء الواسع. جاداً ومتباعداً يلاحقه الصوت، كمن يسمع شيئًا لا يخصه. يكتشف أنه لا يزال ممسكًا بكأس البراندي، وهو يتخلل الممرات الصخرية، بين أشجار طويلة، ممرات لم ينجح العمال في زراعتها بالعشب. بغتة شعر به يقتلع خطواته اقتلاعًا، وراحت أنفاسه في التدافع، وتصور قدميه لم تعودا قادرتين على حمل جسده

الضخم، ثم لم يلبث طويلاً، إذ سرعان ما عاد إلى الداخل، حين خطر له أنهم قد يكونون الآن في طريقهم لتطويق المنزل.

وهو يمر، في طريقه إلى الحمام ليتبوّل، سقطت نظراته على تاريخ اليوم ٢٨ نوفمبر ١٩٦٧، في الجريدة نفسها، تأخذ مكانها فوق الطاولة، وشمل المانشيت، ليس مانشيتًا، كان عنوانًا فرعيًا، بنظرة واحدة، كان عن فارسيٍّ يحمل الشعلة المقدسة، ويصرُّ على إدخالها معه الطائرة المغادرة. الشعلة المقدسة، التي توهجت في معبد الفرس عشرات الأعوام، تفر الآن، خطر له، فهل تغرق المدينة في الظلام؟ لم يفكر لحظة إذا ما كان الخبر صحيحًا أو مفبركًا، مثلما يحدث غالبًا في مثل هذه الظروف، إنما وجد شعلة أخرى تطلع من بين ضلوعه، شعلة تدفعه إلى التفكير هو أيضًا، في القرار الذي يتوجب عليه اتخاذه سريعًا.

يخطف نظرة إلى وجهه في مرآة الحمام، لدى خروجه. لم يعجبه الوجه الذي رآه، وتفاداه قبل قليل عندما لاح له في مرآة البهو. ماذا يعني له كل ذلك؟ كل شيء فيه يسير إلى التلاشي. هو لا يريد ذلك، لا يرغب فيه على الإطلاق. يحرر شيكات مرات عدة، وللجهة نفسها وبالمبلغ ذاته. ينسى مواعيده، ينسى أحيانًا ماذا يتناول، أو تناول طعام الإفطار أم لا.

يفكر فيما يجري ويتخيلهم، أولئك الفدائيون، يفعلونها به مساء، في حجرة الجلوس، نصف المعتمة، يتركونه يتخبط في دمه، فيما تكون الستائر تتحرك ببطء، فتسمح بدخول نسيم خفيف،

يبدد لوهلة رائحة الموت واضمحلال الجسد. يلاحظه الشاب وهو يغوص بجسده في الأريكة المريحة. لم تعد بالنسبة لي كذلك. منذ متى؟ منذ اللحظة التي ظننت أن كل ما يحدث طبيعي، بل ضروري، مثل أخذ أنفاس قصيرة متدافعة، بعد ساعتين من صعود التل المجاور، بين المشي والهرولة. كان قد فكر أن عليها أن تبقى كذلك، مجرد هتافات. لم أتوقع أن تمضي الأمور إلى أبعد من ذلك، وأن أرى أعمدة الأدخنة تصّاعد عاليًا بكثافة، وأنصت لضجيج المروحيات تحلق في علوٍّ منخفض، وأن أرتطم، شبه يومي، بالحواجز، تارة يقف خلفها جنود إنجليز ومرة يختبئ وراءها فدائيون.

أضاءت الأنوار في البهو، أنوار قليلة بما يكفي لأن يرى الفرنسي الأشياء أمامه، لكن شعور الغرق في الظلام لم يبارحه. لا يغضبه ما يحدث، خلال هذه الساعات، في تلك القاعة في شارع كلي ولسن بجنيف، ولا يحمل، بالنسبة إليه، سوى إشارة واحدة، طالما خشي دنوّها، لا تحتمل أي تفسير آخر. يعود إلى الجريدة الأسبوعية، ويلمح أيضًا تاريخ اليوم ٢٨ نوفمبر ١٩٦٧، لم ينقطع ولا مرة عن مطالعتها، منذ بدأت الصدور في ١٩٥٢. يقف أمام التلفزيون. عند الراديو. ثم يترك كل ذلك ويمضي إلى مقعده، يواصل السقوط في مشاعر مضطربة. يخطف نظرة إلى صورته في المرآة، ويحسه عجوزًا أكثر من أية لحظة مضت، يشعر به يودع مراحل التحدي ولحظات العنفوان، كيف تنحت من صخرة كائنًا بديعًا، وتزرع في الجحيم زهرة متوحّشة؟ واجه تحديات مع الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين.

تحديه الأكبر كان مع نفسه، حين كان رب عمله يجبره على الأكل مع الخدم في المطبخ. طالما أساء معاملته، وهو الفرنسي مثله، تلك المعاملة المهينة دفعته إلى الاقتراض، وتأسيس شركته الخاصة.

مضى وقت طويل كان يصعب على التاجر، الذي استهل نشاطه في العام ١٩١٨ باستيراد الأقمشة من كلايتون غالب، ممثل الشركة الإنجليزية – اللبنانية في عدن، حَصْر مجالات تجارته. استورد الكثير من تلك الأقمشة، تصل إليه مباشرة من لانكشاير. وكان يضطر إلى السفر إلى الشركة الأم في مانشستر، لا يريد لمصيره التجاري أن يرتبط بممثلي الشركات، الذين يلتقيهم في التواهي، الحي الأوربي الذي يطلق عليه الإنجليز ستيمر بوينت، أي نقطة التقاء البواخر. هذا واحد من التدابير الأساسية، التي يضعها نصب عينيه وهو يمارس عمله بإتقان. كان يحجز طلبات تقدَّر بالمئات لتجار الملابس القطنية في عدن، تساوي مبالغ ضخمة بالعملة الإسترلينية. يزوّدهم بما يرغبون فيه من بضائع مصنعة في مانشستر، ولا مرة تأخَّر تسلُّم التجار بضائعهم. بمثابة نوع من الضمانة، يكتب الطلب على استمارة في الغرفة التجارية، مع طابع لاصق بروبية واحدة.

ازدهر الطلب في تلك الأوقات على الأقمشة البيضاء، وكانت تسمى "المحمودي"، وترسل إلى الصومال البريطاني، إضافة إلى المفارش الرمادية ماركة "أبو هارون"، فيما كان منافسوه يجلبون المفارش الرمادية ماركة "أبو عسكري" الأمريكية الأصل، وأحيانًا تسمى "أبو جديد". يلبي طلبات كثيرة لأغطية الرأس الخاصة

بالرجال لتجار الكويت، و"التوبيس" بحدود حريرية للأسواق الحبشية، والفوكات الزنجبارية للنساء. ويرسل الشراشف الرمادية والقمصان البيضاء والتبغ والبوتاس إلى مملكة البحر الأحمر جيزان، خلال حقبة الإدريسي. الأسعار كانت في ارتفاع مستمر، قماش "الكوريشا" بسعر سبع آنات لليارده، ثم قفز إلى ١٥ آنة. خلال الحرب العالمية، تجارته كانت معرضة للتبدد. الباخرة وولسي في البحر الأبيض المتوسط أغرقتها الألغام، وربما الغواصات التي كانت تعترض بواخر الحلفاء. كانت محملة بالبضائع للتجار في عدن. الحظ يسير رفيقًا له دائمًا، لم يكن ينتظر شيئًا على متنها.

ترك الأقمشة، فيما بعد، لتجّار آخرين مثل بارما مند لال جي وباجونداس ديف جي وهيراكند سندرجي. تركها من تلقاء نفسه، وليس لأنه خشي منافستهم، كما أشيع عنه بهتانًا، هو الذي عُرف بصلافته ومكره معًا. عندما أصبحت عدن مركز تموين لسفن النفط منذ عام ١٩٢٠، عقب إنشاء مستودعات الشركة الإيرانية الإنجليزية، تاجر في استيراد زيت الآلات والفحم من العراق والسويس بكميات كبيرة، لاستهلاك البواخر التي تمر بعدن. قبلها اشتغل بتجارة الجلود، يجلبها بصنفيها، المصبوغ والخام، من الحبشة والصومال والبلاد العربية والهند، ثم يصدرها إلى أمريكا وأوروبا. جلب إلى عدن البن ولبان البخور والمر والحبق، وتاجر في الشمع والحلتيت والتمور. ومن اليمن والمستعمرات المجاورة جاء بالعسل والصبر والسمن والثوم والمواشي. وفر المواد الغذائية

والبقوليات والبهارات من الهند، والسكر من جاوا، والقرنفل من زنجبار، والأناناس والزنجبيل الجاف والقرفة من سنغافورة. عقب الحرب العالمية الثانية، أنشأ شركة للطيران واستورد السيارات وجلب الأجهزة الكهربائية وأدوات التصوير والتبريد. وعندما انطلق البث التلفزيوني، لأول مرة في المنطقة كلها من عدن، كان هو أول من أدخل أجهزة التلفزيون.

"غير أنها هي من تحول إلى فأر تجارب. صدمها السلوك الأرعن للإنجليز، قومها، فسقطت داخل نفسها من القنوط والخيبة. رغم ذلك لم تذعن، وراحت تتسبب في غضبهم، تارة تتجاهل حفلاتهم المملة، وتارة أخرى تفضحهم، كلما سنحت لها فرصة، بغير قليل من القسوة".

أدرك الشاب، وهو يحاصره بنظراته خلال المرآة، أنه يعنيها، كمن لم يعرف من النساء سوى امرأة واحدة، هي التي لم تعد تشتهي رؤيته. يصمت العجوز طويلاً أو ينشغل بتذكر شظايا من حياته، ثم يعود إليها، لا يني يتكلم عنها. "آيريس" تدحرج اسمها، في محيط شاسع من الصمت، له وقع رنين نادر في أذنيه.

يحدق الشاب في الفرنسي بعينين ضيقتين، ويهز رأسه ببطء، مثل من يتوعّد أحداً. تشغل هذه المرأة بالك أيها العجوز، لم تنسَ أنها كانت عشيقتك مرة. لم تكن أنت عشيقها، هذا ما يزعجك. لعلها مثلك، لم ترغب في شخص وحيد، يستولي عليها بالكامل، كأنما هي لديها القدرة على إغناء حياة كل شخص يدخل حياتها،

فيما العكس كان غير صحيح. أعرف أنك منحتني وظيفة في منزلك، ليس بقصد مساعدتي، حين جئتك بصحبة صديق للهندي أشرف، جارنا وصاحب جَدِّي، إنما لتجعلني جاسوسًا عليها، عندما عرفت أنني أعلمها اللغة العربية. ولزمني أيام لأفهم سر اضطرابك، حين كان اسمها يمرُّ على مسامعك. هل تعرف أنها لم تسألني عنك يومًا، لم أسمعها تردد اسمك ولو مرة، مع أنني أحيانًا أتطوَّع، خبثًا طبعًا، بالإتيان إلى سيرتك، لاستدراجها لتقول عنك أمورًا لا أعرفها، لكنها تتصرَّف كأنما لم تسمعني، أو كما لو أنك لا تعني لها شيئًا. يغضبك مثل هذا الكلام لو سمعته مني. لن تسمعه على أية حال، فجلبة كبيرة تحدث الآن في رأسك.

تحركت ظلال الشاب بعيدًا قليلاً، إلى يساره، فلمحه العجوز في المرآة، وأدرك أنه يفهم المعنى مما يجري في هذا اليوم، لكن ليس من علامات تشفٍّ تعكسها نظرته. لم يفطن الفرنسي إلى ما يمكن أن تفعله المرآة سوى اليوم، فراق له أن يلاحظ الشاب من خلالها، ويترقب ردات فعله. هو لا يعمل عنده سوى ساعات محدودة، وبقية الوقت لا يسأله أين يمضي. ينحصر عمله في الإشراف على بقية المستخدمين، وأحيانًا، عند انصراف الطباخ، يعدُّ له ما يريد من طعام، أو تحضير الشراب الذي يطلبه، وخصوصًا حين يكون ينتظر ضيوفًا، وأن يفتح النوافذ ويبقي الطبقة الخفيفة من الستائر مسدلة، يحب أن يراها تهفهف، تتحرك بفعل الهواء المنعش فوق الجبل، الذي يشرف على المدينة كلها.

لئن أدرك الشاب معنى ما يحدث الآن، فسيتعذر عليه فهم أشياء كثيرة أخرى. حتى المسرحية التي شغلته فترة، ويحاول فيها تقديم جوهر عدن، الذي يجعلها تنأى عما يحيط بها من مدن يرين عليها الصمت، تخلت عنه حماسته في شأنها. طالما اختلفت سعاد معه حولها، وكانت تقول له إنه ينحاز فيها إلى الإنجليز، عندما يروح يمتدحهم ويعتبر النهضة التي تعيشها عدن، معجزة صنعوها هم.

كنت عائداً من إحدى جولاتك، فإذا بها تندفع خارجة من منزل جدتك، وغمرتك رائحتها. هزّتك رؤيتها وأنهكتك ابتسامة صغيرة، تركتها معلّقة في شفتين مكتنزتين. وقبل أن يخطر لك أن تسأل من هي، قالت جدتك: "تدرس في كلية عدن للبنات، عيني عليها باردة". منذ تلك اللحظة بقيت تنتظر أن تراها، تمرُّ أمام النافذة. وستراها ثانية وأنت تجلس مع جدتك أيضاً. كنّا في ذلك النهار، عندما مرت بجوار النافذة المفتوحة على الزقاق الضيق، نأكل هريسة لوز ونحتسي قهوة بالزنجبيل، ونصغي رغماً عنا إلى الصخب، ينبثق من المنازل المجاورة. كانت تلبس بلوزة حمراء واسعة بياقات بيضاء، وجونلة سوداء طويلة بكرمشات كثيرة. وخيل إلي أنني أشم رائحة عطر خفيفة. وقالت الجدة وهي تنظر إليها بمحبة غامرة، كما لو كانت ابنة أو حفيدة، "أين زمانك يا حاجّة ليمو. كانت الصومالية تتعب معانا حتى نفهم". سرقت انتباهي كله فرحت أتتبّعها. أسفل غطاء الرأس، عبارة عن شال خفيف بخيوط طويلة، تنتهي بحبات خرز تلمع في الشمس، يظهر شعرها مسرحاً

إلى الوراء، وتعقده بشريط وردي عند نهايته، تاركة جديلة كثيفة تهفهف فوق كتفها. وعرفت أن والدها يشتغل عاملاً في مصفاة عدن، منذ افتتاحها عام ١٩٥٤، وأنهم يسكنون في الزقاق نفسه، الذي يقع فيه بيت جدتي. وفوراً شعرت بعدوى ما، تسري في أنحاء جسدي.

لم يكن شغوفًا للقاء أحد، طوال حياته، بقدر ما يشعر به اليوم، كلما فكر فيها. يشعر به ميتًا من الاشتياق، لاحتكاك ذراعها بذراعه، كتفه بكتفها. لم يتحمل فكرة أنهما لم يعودا يجلسان في مقهى وحدهما. ارتبك وشعر بالحرج وحاول أن يخبط بيديه في الماء، في آخر مرة سبحا فيها، لكن لم يشعر أن لذلك أية جدوى. كانت تلبس بنطلون جينز وبلوزة سوداء من القطن، بكمين طويلين. لكن نظراتها كانت حيادية، وهي تتجه إلى عينيه مباشرة، بدت له بلا عاطفة ولا شعور بالود، فاعترته خشية خفيفة منها. بغتة أحس بجسدها كله يدثُّر جسمه، وشعر بحرارة مشعَّة، تحت المياه، تلهب جلده. عندها ضاقت أنفاسه، وأخذت أضلاعه تؤلمه، ثم لم تلبث أن ارتمت بجسدها إلى الخلف، وراحت تسبح على ظهرها، فاردة ذراعيها وساقين منفرجتين.

لكنه لم يعد يرى سعاد. زَجًّا به، سعاد ونجيب، كل واحد منهما على حدة، إلى وجه من الوجوه المتعددة لهذه المدينة. طالما عنت لك سعاد الوجه الجميل والفتيّ والمغامر، تلك المغامرة الرائعة التي لا تعرف حدودًا. أما نجيب فجعلك كمن يعيش في غرفة تحقيق ليس

بها سواك، أنت تسأل عن نفسك وتجيب. وكثيراً ما لا تجد الإجابة. دفعك نجيب إلى المنطقة غير الآمنة. فلم تعد الجنة جنة، إنما ارتياب وخيانة. رافقتك سعاد إلى الجنة، لكن نجيب أخرجك منها. كنتما، هي وأنت، تختلفان في النقاش، ولكل منكما انحيازه الخاص وزاويته لرؤية الأمور، حتى تعرّفت على نجيب. هي من عرفك عليه، ليطرأ التغير، وينقلب كل شيء.

يبحث الشاب عن صورته في المرآة، وحين يعثر عليها لا يفاجئه التغيّر، الذي يلمحه يرتسم بين برهة وأخرى، كما لو أن كل برهة تتحوّل زمناً طويلاً، يفيض على الأشياء ويؤثر فيها فتتبدل أحوالها. لن أقول إنني لم أرَ الإنجليز، وهم يرفسون ببساطيرهم ويدقون بأعقاب البنادق، أشخاصاً لم يفعلوا شيئاً سوى القول لهم "اخرجوا من مدينتنا"، ثم يجرونهم شبه عرايا على الإسفلت في نهارٍ شمسه قطعة من الجحيم، إلى حد يخيّل إليَّ أنني أشم رائحة شواء آدمي، لكنني في المقابل أيضاً أبصرت الإخوة، يتحولون وحوشاً كاسرة، ذئاباً جائعة للحم بعضها البعض، ورأيت فصائل الكفاح المسلح كيف ينقضون على بعضهم، يترقبون خطا خصومهم، والمعارضين لهم، في المنعطفات، أو يتصيدونهم في الليل.

ينصت إلى صوته ويبصر وجهه، كما لو تحت الماء، يتموّج. لم أكن أعرف الرعب، حتى عندما كان أبي يفزُّ ليلاً وهو يصرخ، صرخات حادة وموجعة، تهزُّ كياني. إلا أنني عرفته هنا خلال الأيام الأخيرة، وجوه رأيتها ملبّدة بالرعب، خشية تخوينهم ومعاقبتهم

من إخوتهم، رعب فرغ رؤوسها من الأعين وترك محاجرها فارغة، ثقوب سوداء فقط.

يتنبّه الشاب للعجوز كأنما يحاول النهوض من الأريكة، وعندما لا يقوى يكتفي بالجلوس في مكانه. وطاشت نظراته صدفة للمرآة، وصدفة أيضًا تلاقت نظراتهما. مرة أخرى يراه العجوز، ومرة ثانية تضطرب مشاعر الشاب، فلا يعرف ماذا يفعل. لم يكن العجوز ينظر إليه نظرة عادية، إنما كان كمن يتفرس في شيء يراه للمرة الأولى.

لا يحب الفرنسي رؤية وجهه في المرآة، منذ بدأت الحوادث، إلا أنه شغل نفسه برؤية الشاب من خلالها، دون أن يدري لماذا، لكن أمره افتضح. في الواقع كلاهما كان يسترق النظر إلى الآخر، عبر المرآة، ليقرأ التعابير التي يعكسها الوجه، وليعرف مدى تأثير ما يجري من حوادث فيه. تحوّل وجود المرآة إلى لعبة، تستدرجهما ليقولا، علنًا أو في نفسيهما، ما لم يقولاه من قبل. يراه الشاب ونظراته مسمّرة، في صورة ذلك الشاعر من موطنه. لا يبصرها الفرنسي بوضوح من مكانه، لكنه يعرف كل تفصيل فيها، تلك الصورة. في الصورة كان الشاعر الشاب يقف فوق دكة فندق قديم، مستندًا بجسده، الذي تظهره الصورة نحيلاً، وبملامح شبه معطوبة، إلى جدار قصير، فيما نظراته تتيه في الفراغ.

رنَّ الهاتف بغتة، وبدا صوت الرنين كما لو أنه غير مألوف، شيء ناتئ في جوِّ الصمت الذي يشيع في البيت كله، وكأنما تذكرا الآن

فقط أنه يوجد هاتف في هذا المنزل. وخطا الشاب إلى إحدى الزوايا ليعرف مَن المتصل. رفع السماعة ثم أعادها، لم يكن يوجد أحد في الطرف الآخر، فقط رنين متقطع.

تروق للعجوز الظلال، تداريه، فيما يبدو، عن عيني الشاب اللتين تترصدانه في المرآة، وتدفع بمحتوى الذاكرة ليطفو على السطح. لم يكن الفرنسي يتهاون في أي إهمال، كما لم يبدِ أي استعداد لتصديق كذبهم، أولئك المهرِّبين، في حال قالوا إن البضائع، التي تساوي ملايين الروبيات، صودرت منهم. لم يمضِ وقت طويل على اندلاع الحرب، حتى برقت تلك الفكرة في رأسه. لم تكن من تلك الأفكار التي تراوده، ويحتاج إلى وقت لتقليبها، فيمضي زمن قبل أن يقتنع بها ويشرع في تحويلها واقعًا. كانت تلك الفكرة أشبه بالإلهام، على الفور اشترى بضائع لا حصر لها، أنفق عليها أمواله كلها. تركها في المخازن، ومر شهر، شهران، انتصفت سنة، ولم تمتد يد العمال إليها، ومع تقدم الحرب العالمية الثانية واشتداد الحاجة إلى بضائع، أفرج عن كنوزه. لم تتضاعف أمواله فحسب، إنما علا حسه، وتحول إلى شخصية ذات نفوذ، ومن حينها راح حتى اسمه يتغير، من مرحلة إلى أخرى. ملك سفنًا شراعية. وشركات للملاحة والطيران، وفتح أسواقًا لبضائعه في بلدان كثيرة.

"لم تخرج فرنسا من الحرب منتصرة. لكن أمريكا فعلتها وانتصرت". قال لي القنصل الأمريكي وكان يقاسمني جسد تلك الفتاة الإنجليزية آيريس، لم تعد فتاة لكنها لم تفقد نضارتها أبدًا،

أليس كذلك؟ يسمعه الشاب يكلمه، فيحدق في المرآة فلا يرى وجهه، ويكتفي برؤيته من الخلف. أنت قريب منها بما يكفي لأن تراقب بعيني ثعلب ماكر. أنتم ماكرون أيها العرب، وكنتم لصوصاً بيد أن نظركم يكون قاصراً، ولم يبلغ مرة مراده. لم يسمع الشاب شيئاً جديداً، فهو تعود هذه النبرة الحادة منه، أن يشتم العرب ويصفهم بأفظع الصفات، ومع ذلك لا يبدو للشاب أن الدافع وراء شتائم العجوز اليوم، هي نفسها قبل الحوادث، فهو كمن يريد أن يظهر في منأى عن أي تأثير لما يحدث، وأنه سيبقى يصدع بقناعاته كما في كل حين.

"ليس المعنى هنا الانتصار على الأشرار"، أخذ القنصل الأمريكي في الشرح، "إنما نهب الفرصة لإعادة صياغة العالم، وتغيير موازين القوى". كان يحدق بين عيني، كما لو كان يتهيأ ليسدد رصاصة فيرديني إلى الأبد: "فرنسا خرجت سالمة فقط". وسكت الأمريكي، ثم عاود كلامه وهو ينصرف بنظره عني، بلهجة لمست فيها كثيراً من التشجيع والحسد أيضاً: "لكنك أنت من انتصر. سرقت انتصار بلدك. ها أنت صاحب نفوذ كبير في هذه المدينة الحية، وسط محيط ميت كلياً. تأمر فيطيعك الإنجليز قبل أي بشر آخر. هباتك ومشاريعك في أمريكا وفي بريطانيا وأفريقيا والهند، عدا فرنسا التي لم تقبل أموالك. وكيف لها أن تفعل ذلك وأنت سرقت نصرها".

عشت معها شبابي ثانية. وكلمه. لا، هو على الأرجح يكلِّم صورته في المرآة، عن منزل في ستيمر بوينت، في زاوية من كرسنت

ستريييت، من طابقين وآخر أرضي، عبارة عن محال تجارية لأسرة يونانية. وفي الطابق الأول سكنت آيريس. وفي الطابق الثاني يقطن القنصل الأمريكي، الذي تسلّم مهمته: توسيع نفوذ بلاده وفتح أسواق لبضائعه، قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

متى يكفُّ هذا العجوز عن الكلام؟ متى يمر وقت طويل قبل أن يذكرها؟ يتساءل الشاب في نفسه، لكنها قد تكون الآن، في هذه اللحظة تحديداً، تتهيأ للرحيل. أو في طريقها إلى الميناء. ربما لهذا السبب هو لا يكف عن ذكر اسمها. معها بدت عدن شاسعة وبلا حدود. مشّطناها تماماً. أقسام كريتر "ألف" و"دال" و"بي" و"جيم"، وشوارعها: شارع البز، شارع الكدر، شارع المملاح، شارع الحراج، شارع الطعام. مشينا في حاراتها: حافة اليهود، حافة حسين، حافة الصومال، حافة الجبرت، حافة البوش، حافة الكوشوش، حافة البانيان، حافة الدرازية، حافة النجّارين، وحافة الحلاقين، حافة الدوابية، الغسالين والمكوجية، حي الزعفران، الحي التجاري القديم، حافة العجائز.

وشعر الفرنسي فجأة بموجة من الغم تعصف بكيانه. يراه الشاب وهو يتحول إلى شيء ثقيل، ثقيل إلى حد أنه يرغب في النهوض من مقعده، ولا يقوى.

(٧)

كمن بوغتت، التفتت سعاد لتراه يحدق فيما وجدت نفسها، منذ قليل، مشغولة بالنظر إليه. لم يخطر لها حتى أن تتعجب، من

عدم وجود ناس يدفعهم الفضول، للفرجة على امرأة عارية. مندهش سمير لما يراه، ليس لأنه رجل يروح يفترس المرأة، من خلال غرائزه، إنما لأنه لا يتوقع أبدًا، أن يواجه هذا المشهد في غير عدن.

لم تكن الباخرة السياحية العملاقة، وهي تشبه مدينة عائمة، ما استرعى انتباههما وسمَّرَ نظراتهما عليها، إنما المشهد الذي يحدث في ممر أحد الطوابق، وظناه جرأة تفوق الحدود. بدا لهما الممر طويلاً، بعشرات النوافذ مفتوحة على المتنزهات البحرية، على الفنادق في الجوار، على صالات السينما والمقاهي الحديثة والبارات والأندية الليلية، على محال الساعات والكاميرات والذهب والمشغولات الفضية والملابس الحديثة، على تمثال الملكة فيكتوريا، يلمع من النظافة، في حديقته الواسعة. لم يكن الكوفي شوب قريبًا، لكنه يوفر زوايا جيدة لرؤية المرفأ، والسفن العملاقة التي ترسو، إضافة إلى ذلك كان جسدها، تلك المرأة الأوروبية، يسطع خلال أشعة الشمس اللاهبة. بداية ظنتها سعاد رجلاً وكادت تصرف النظر، لكن الشعر الطويل المرفوع إلى أعلى، ثم الصدر والثديان الكبيران، اللذان راحا يترجرجان ببطء، دفعها إلى تدقيق النظر. ورغم كل ذلك لم تنكر عليها ظهورها نصف عارية، هل بسبب أنها تحت وابل الحرارة الشديدة، بينما هي تراقبها من وراء زجاج الكوفي شوب المكيف، أو لأن منظرًا مثل هذا يمكن توقُّعه من السياح، وخصوصًا في هذا الحي الأوروبي؟

ظهر الاحتياج إلى مبان للإدارات ومنازل للعساكر واضحًا للعيان، حين حطت قوات الكابتن هينس رحالها. كانت عدن في ذلك النهار من يناير ١٨٣٩ أشبه بخلاء، القليل فقط من البنايات. تارشاين منطقة رشحت لنزول العساكر، المنظر جميل والأودية فسيحة، تتيح للجنود اللعب وصيد السمك وممارسة الرياضة، والترفيه في شكل عام عن أنفسهم. لكن لا ماء للشرب، كما لا توجد مواصلات إلى كريتر. صرفوا النظر عن بناء المحطة العسكرية في هذا المكان. نسيت سعاد، وهو كذلك، المرأة العارية، وعادت لتصغي إلى أجواء المسرحية، التي تشغل سمير، ولا يكاد يلتقيها حتى يبدأ في مناقشة السيناريو معها. تسقط أشعة الشمس فوق الصخور البركانية المحيطة، فوق التلال الجرداء، وتنتشر على أمواج البحر الساكنة، لها لون النحاس. الجنود يتناثرون في عراء له طعم الجحيم، لم يطمئنوا بعد، ويترقبون غزواً يقوم به سلطان لحج. على العكس منهم الكابتن هينس، يجول ببصره في مكان لا حياة فيه، عدا بشر نصف عراة، ثم تقدم وأعطى أوامره. فالعساكر متعبون والشتاء قادم. جيء بالنجَّارين والحدَّادين والبنَّائين من بومباي، ولأنه لم يكن عدد العمال كافيًا طلبوا عمالاً من المخا في اليمن. ومن المخا جاء الخبَّازون أيضًا، الذين صنعوا الخبز لأفراد الجيش، وأسهموا في بناء مستشفى وكنيسة ومحكمة، ومرابض للمدافع وعنابر وورش ومستودعات لدائرة المهندسين وفرقة المدفعية.

"تكلمتَ عن قدوم فصل الشتاء، وكأنما هو شتاء أوروبي، برد شديد وثلوج". قالت سعاد، كانت قد انتزعت نظراتها من السفينة العملاقة والممرات الطويلة لطوابقها، وكفت عن التفكير سوى في سمير ومسرحيته. ملاحظة سعاد في جوهرها لم تكن عن الشتاء، إنها أبعد من ذلك، فهي تختصر مجموع النقاش بينهما، حول هذه المسرحية وغيرها من مواضيع، إذ ترى أنه يرتكب شيئًا خطرًا ويتبنى رواية الإنجليز، التي روجوها عن عدن غداة دخولهم.

يأتي ولد يحمل كاميرا مربوطة حول عنقه، وسأل إذا كانا يرغبان في أن يلتقط لهما صورة فورية. واصل سمير شرح فصول المسرحية، في محاولة لتذليل العقبات الفنية التي تعترض طريق تجسيدها. يغوص في الملاحظات التي دوّنها. "لا أدري لماذا كل هذه التفاصيل، كدت أظن وأنا أسمعك أن فكرة خبيثة وراء كل ذلك"، قالت سعاد، وخفضت رأسها إلى أسفل، كمن تعوزه الجرأة بما يكفي ليقول رأيه صراحة دون خشية. "لقد جعلتَ من عدن ليس أكثر من خرابة، أرضًا ميتة أحياها هينس".

راحت تتصفح كتابًا باللغة الإنجليزية، اشترته قبل قليل من المكتبة الدنماركية في شارع أروى. ثم أضافت، دون أن ترفع رأسها: "يبدو لي أن ما يحدث هناك في الشمال، يدفعك لرؤية الأمور هنا في شكل مختلف". رفعت رأسها الآن وجعلت تحدق خلال الزجاج، وفي عصف الهواء رأت أوراقًا صفراء ترتفع، صنعت من نفسها زوبعة، غطت البنت، صغيرة تلعب أسفل عمود إنارة في مرمى

بصرها، ترتدي فستانًا طويلاً مزركشًا بكمين طويلين. تنزل فوق علب دخان وولاعات وقطع شوكالاتة، في عربة بائع متجول، يستعد لنزول الركاب، وتحط فوق أولاد يضعون أكفهم حول أفواههم ويصيحون، باتجاه سائحات في السفينة. لا تسمعهم من هنا، لكنها تعودت سماعهم، وهم يستجدون، "جِف مي تو بنس بلييز مدام. مدام كان يو ثرو ون باوند؟"، وترمي السيدات بالنقود المعدنية في المياه، فيقفز الفتيان مثل الأسماك، يغطسون في المياه ويخرجون، وهم يحصون غنيمتهم.

"ليس ما يحصل هناك فقط. انظري حولك أيضًا، إحدى وعشرون إمارة ومشيخة وسلطنة، يعني واحدًا وعشرين علمًا وواحدًا وعشرين جوازًا وواحدًا وعشرين جهازًا أمنيًا، ترتبط بالمندوب السامي. مشيخات يعيش غالبية سلاطينها عالة على الإنجليز". صمت ونظر حوله في الكوفي شوب الأنيق والمكيف، في مرتاديه من إنجليز يعملون في شركات تجارية ومؤسسات مصرفية، وعرب لهم علاقة بالنقل البحري والتخليص الجمركي. نظر قدامه إلى كوب قهوته وكأس الشيوكلاته، بحجمهما الكبير من الصيني، إلى علبة السكر الأنيقة، إلى الصحون الصغيرة. تأمل الطاولة الدائرية، سطح من زجاج ملون، وقاعدة تتلوى في شكل عناق حميم. جربت أن أكرههم، لم أقدر. أحب طريقتهم في الحياة. وأعثر على نفسي في كل مرة، أكثر شغفًا بما صنعوه في هذه المدينة، لم يفعلوا ذلك من أجلهم فقط، وحتى لو ذلك صحيح كما يقال،

أليس يمكن أن ننال نصيبنا منه أيضًا، بصورة أو أخرى. نكون عدنيين من وجهة نظر الإنجليز أم لا، ليس هذا المهم، الأهم من ذلك كله، ما نشعر به نحن في داخل أنفسنا. لكننا لا نصغي إلى أنفسنا، نصغي فقط إلى أصوات أخرى أكثر ضجيجًا وصخبًا، أقرب إلى أزيز الرصاص ودوي المتفجرات. لا يعجبني كلامك أبدًا". قالت سعاد "أنت تتلمس طريقة مختلفة لرؤية الإنجليز، كأنما عيناك غير أعيننا. "من أنت؟ بطل ترديد معجزات البريطانيين. في اللحظة المناسبة سنصنع نحن معجزاتنا".

وأنصت صوته يردد كأنما لنفسه: "لن نقدِّر ما لدينا حتى نفقده للأبد". وتوقف ببصره عند التقاء ثدييها، بالكاد يطلان أسفل بلوزة من حرير، لم تخفِ تمامًا، طرفي لباسها الداخلي من الساتان، ويندفعان بامتلاء إلى الأمام. وانتبهت له وهو يحدق في صدرها، لم توبِّخه واكتفت بأن راحت ترفع بأطراف أصابعها طرفي البلوزة إلى أعلى، بينما فرت نظراته إلى عشرات السياح ينزلون من الباخرة، ويروحون يقتحمون، بملابسهم الخفيفة شبه العارية، المحال المجاورة. ينظر في صومالي يشير بعصا في يده، إلى سيارة أجرة، تقف بجوار سور الحديقة، ويعرض على رجلين وامرأة، أن يأخذهما في جولة حول المدينة، ويهودي يمسك بعملات أجنبية في يد، ومشغولات من الفضة في اليد الأخرى، ويتجول بين السياح.

"لكن ألن تحتاج إلى مشاهد كثيرة، لاستيعاب كل هذه التحوّلات؟". أخرجته سعاد من مشهد تملؤه الفرجة عليه بالحيوية.

تعود إليه الآن الفتاة التي يحبها كثيراً. "فكرت في راوٍ يختصر بصوته الزمان والأحداث، أو لوحات صامتة، تكشف الحوارات الطويلة". تستولي عليه فكرة المسرحية، منذ أن طلبت منه المدرسة، التي يعلِّم فيها، إعدادها بمناسبة انضمام خمس سلطنات إلى اتحاد الجنوب العربي. تشغله تماماً فكرة أن ينفذ إلى جوهر عدن، إلى المعجزات التي صنعها فيها الإنجليز، وتجسيد كل ذلك مسرحياً.

"إذا ما لبيت دعوتك لي لزيارة منزلكم، فلكي أرى الأب الذي سمح لابنته أن تكون متحررة". قال سمير وكأنما يستأنف حديثاً، قطعته أحاديث أخرى. "لست متحررة إلى تلك الحدود التي تجول في بالك". ردت عليه وهي تبتسم وتنقر بأصبعها السبابة على صدغها. "حتى الحدود التي تعنيها فهي بالنسبة لشخص قادم من الشمال المتخلف، تفوق كل تصوُّر". قال سمير بنبرة مسكونة بإعجاب لا يمكن وصفه. ثم سألها عن مناسبة الدعوة. "قال أبي إني ولدت بعد عشرين يوماً من انتهاء الحرب العالمية الثانية، أي في ٢٢ / ٩ / ١٩٤٥ ومنذ تلك السنة وهو يحتفل بعيد ميلادي، لأنه يذكِّره بالخلاص من الحرب وأيامها القاتمة". قالت أيضاً إن أمها لم تنجب سواها، وهذا ما يجعل والدها لا يفرط مطلقاً بأمر الاحتفال، حتى حين أصبحت كبيرة. "وهذه هي المرة الأولى التي يسمح لي فيها، بأن أدعو صديقاً ليشاركنا المناسبة، طبعاً جَدّتك ستكون أول المدعوين". "هل يعقل أن يكون عمرك بعد أسبوع ٢١ سنة؟". وأضاف سمير مازحاً "يا الله كم أنت كبيرة فعلاً". وكبحت سعاد

ضحكة واكتفت بابتسامة. وهم بسؤالها إذا ما كانت دعت نجيبًا أم لا؟ وتردد. لم يرتح وبدا قلقًا، لا بد أن يعرف. ستتحدد له ملامح علاقتها به، في حال كانت دعته أم لا. ثم اهتدى إلى طريقة تجنبه الحرج، فقال "هل تحضر صديقات لك غير أشواق وفائزة؟". وفهم أنها فهمت مراده، حين رمقته بنظرة تخابثت فيها، فخفض بصره. "الحفلة أقرب ما تكون عائلية". وتخللتهما لحظات من الصمت.

ناولت الولد أجرته وحدقت في الصورة قليلاً، ومثل من يريد التأكد أن الشخص الذي بجوارها في الصورة، هو نفسه من يجلس معها حول الطاولة، نظرت في سمير نظرة صافية. وقال هو إنه لا بد أن يذهب الآن إلى منزل التاجر الفرنسي، فنهضت هي وانسحبت إلى داخل الكوفي شوب. بقي هو يقلب في صفحات دفتر صغير، يكتب شيئًا ثم يعود ويمحوه، قبل أن يشمل البحر بنظرة واسعة، تتكسر أمواجه بعيداً. يرى سفن الحمولات العملاقة، تتراص في محاذاة الأرصفة، مخازن الوقود الكبيرة تشبه أكوامًا من الفطريات، وناقلة نفط وهي تشق طريقها باتجاهها، ويتوقف بنظراته عند الطواحين الهوائية في أبعد نقطة. وفكّر سمير وهو يرى مقعدها الخالي، كتابها فوق الطاولة، كوب الشيوكلاته الفارغ، إن حبه لها لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، وخصوصًا عندما تعيش لحظتها بوصفها أنثى. تتحول أحيانًا في عينيه إلى فتاة شهوانية، يستطيع أن يبرهن على ذلك، من حركة أصابعها على الطاولة، من ارتطام جسديهما أثناء المشي، تسارع إيقاع الكلام، وهو يخرج من بين شفتين نديتين.

ورآها، فيما يجمع أوراقه ويتهيأ للانصراف، تخرج من الحمّام وتسرق نظرة، من مرآة معلقة فوق جدار. يراقبها وهي تروح تعيد الرونق إلى زينتها. تلمس الشعر فوق أذنيها بكلتَيْ يديها، كأنها ترفع شيئًا بأكثر ما تستطيعه من خفة، ثم بيد واحدة بعد الأخرى، تدفع شعرها في كلا الجانبين، إلى الداخل، لتثبّته، تحت غطاء الرأس الملون. وتمنى لو يقدر أن يتجاهل الذهاب إلى الفرنسي، ويمر على الإنجليزية آيريس، لكن قد لا تكون الآن في بيتها، كما أن العجوز لا يتهاون مع أي تغيب أو تأخير.

(٨)

لم ترق له سيرة موظف البريد، التي يستعيدها جده، القادم للتو من السلطنة القعيطية، بعد غياب دام سنوات طويلة عن عدن. إلى ماذا انتهى به المطاف، لا شيء، مقارنة ببعض رفاقه، مثل نعمان الصومالي أو أشرف الهندي، الذي يقطن في الشارع المقابل وتربطه بجده علاقة قديمة. ونظر سمير ناحيته، كأنما افتقد ملامحه، وشعر لوهلة أنه لم يعد يراه، أزمنة تحجبه عنه وتغلف صورته.

"تاريخه يعود إلى ١٨٥٤"، قال الجد الذي قرر اليوم أن يفرج عن كنوزه الصغيرة. أي تفصيل فيهما يبدو قديمًا، خنجران يتساويان في الطول، مقبض أحدهما أبيض فيما الآخر أسود. يصعب تحديد الألوان بدقة. لم يكن الجد موظفًا في مكتب البريد، عندما أطلقت

عليه هذه التسمية. في ذلك الزمن كان يصحب النساء، إلى من يكتب لهن رسائل لأزواجهن، في بومباي وكيرالا وشرق أفريقيا وبلاد أخرى، يرسلهم إليها الإنجليز للعمل جنوداً وعمالاً. حملق في الوجوه قدامه، أعين مفتوحة على تلك القطع الصغيرة الملوَّنة، يحتفظ بها في علبة مستطيلة، أنيقة ومبطنة بقماش ناعم، طالما رأته الجدة وراقبه سمير، خلال الرواق الصغير، المليء بالظلال، وهو ينحني عليها ويتفحَّصها. نحا عصاه برأسها المعقوف، وأبعد كوب الشاي، ومسح بخرقة، التقطها من أسفل المقعد، حواف العلبة، قبل أن تلتقط إصبعاه طابعًا ويعطيه لسعاد وحدها. "شوفي وملِّي عينيك" وأضاف متباهيًا، "أول طابع بريد في ولاية عدن".

وجال في بال سمير موقفهما، جده وهو، من عدن، هو تفتنه هذه اللحظة، فيما جده مشدود إلى الماضي. وتخيل سمير جده يتضاءل تدريجيًا، حتى يتحول إلى حجم أحد تلك الطوابع الرقيقة، إذ يسهل حينها التقاطه بإصبعين ووضعه في العلبة المستطيلة. لم يرَ الجد اليوم، من النافذة، أولاد الحارة يلعبون في الشارع. لم تصله جلبتهم وهو في الداخل، ينتظر الطعام الذي طلب أن تعده له أخته، شوربة وصانونة وخل. كرههم وهم يجعلون دراجاتهم الهوائية تصطدم به، أثناء ما يكون قادمًا من المسجد أو ذاهبًا في مشوار. يخطر للجد أحيانًا أن غيابه طال، أخذته مستعمرة القعيطي بالكامل، عشرون سنة، منذ أن ترك عدن. بقي كل تلك السنوات ولم يفكر بالمجيء. ضرورة الحصول على الجواز الأحمر، وعليه شعار

السلطنة القعيطية، واحتمال ألا يسمح الإنجليز له بالدخول، والكلام الكثير عن تغير عدن، كل ذلك كان يدفعه إلى التريث.

لم تعرف سعاد إذا ما كان يتعين عليها، أن تعجب بهذه القطعة الرقيقة أم لا، وإذا فعلت فهل ينبغي أن تظهر إعجابها أم تصمت. حدقت كثيراً ولم تفلح في جعلها تعني لها شيئاً، وعبثاً سعت لأن تكون لها نظرة المندهش. طالما أربكت سعاد الجد بجرأتها، بدت له انعكاساً صارخاً لعدن التي لم يعد يعرفها. سمير نفسه لا يصدق أحياناً أنه يجلس مع الفتاة نفسها، التي اقتحمت قبل أعوام وبرفقتها مجموعة من الفتيات شوارع كريتر، وخلعن الحجاب لأول مرة، وسرن سافرات تسطع وجوههن في ذلك النهار العدني الحار. انطلقن مزهوّات، يلبسن فساتين قصيرة، على الموضة، باتجاه صحيفتي "الأيام" و"فتاة الجزيرة"، ليوثّقن الحدث ويؤكدن القرار الذي لا رجعة فيه.

أرجعت سعاد القطعة مع هزة من رأسها، تلقاها الجد بصفتها إعجاباً منقطع النظير. وكأنما شعر أن عليه رد شعورها لها بالإعجاب، أعطاها نصيحة أبوية وهو يرى غطاء الرأس ينحسر تماماً عن شعرها، "أنا فدا لك، غطي شعرك"، ورمق سمير بنظرة استعصى عليه تفسيرها. ابتسمت سعاد بخجل وأمسكت يدها الشال، مكوماً فوق كتفيها، ولم تزد على ذلك. كأنما تريد اختبار هذه اللحظة، أن تصمد ولا تستسلم فتفقد عنفوان الموقف، إذ تركت الغطاء ينزلق. تترك شعرها مؤخراً من دون شال مع سمير.

بقي أن تختبر هذا الشعور في أماكن أخرى.

وسمعت الجد، الذي يقضي معظم وقته بين العمال في المقهاية، يعلق بكلام حول الزمن الجديد. وحكت الجدة، فيما تنظر بعينين ملؤهما الرضا والسرور إلى ملابس سعاد، إن النساء بدأن يلبسن الملابس العصرية في غرف النوم، ثم في حجرة الجلوس، وفي خطوة لاحقة أمام الضيوف، وتجرأن مرة وخرجن بها في الشارع القريب، ثم انطلقن بها في كل مكان، "العجائز بس من يلبسن اليوم الشيذر". وقالت سعاد بنبرة طفولية، "حازينا يا جدة عن أيام زمان". ودبت الحماسة في الجدة، وفتحت فمها لتحكي لها حكايات من ذلك الزمن، لكنّ أخاها قاطعها سائلاً بمرارة: "أين ذهب الاحترام؟"، ولم يكن يعني سعاد. تجاهل علبة الطوابع، وتذكر نزهته صباح اليوم، الجمعة، حيث اعتاد الناس ارتداء أفضل ما لديهم. كان لا يزال يلبس عمامة فاخرة، تسمى "الرشون"، تصنع من أجود أنواع الصوف في سوريا، أخرجتها الجدة من دولابها، ومئزراً هندياً قديم الطراز. لم يعد أحد يلبس مثل هذه الأشياء. فيما مضى تعود الناس رؤيتها، في المناسبات النادرة، على رؤوس القضاة والعلماء. وقال وهو ينظر خلال النافذة، وعلى وجهه تنعكس تعابير داكنة، إنهم لم يعودوا يلبسون شيئًا فوق رؤوسهم.

بينما يخرجان من مسجد النور بعد أن صليا صلاة الجمعة، ويتوغلان وسط أسواق الشيخ عثمان، قال له صديقه نعمان الصومالي، إن الناس تغيرت وليسوا كما كانوا زمان. كانا قد

اشتغلا معًا عاملين في محطة القطار بالمعلا، ثم تركاها فعمل نعمان في مطبعة صغيرة، تابعة للبعثة الرومانية الكاثوليكية التبشيرية، مطبعة وفرتها البعثة لتدريب معتنقي المسيحية من الصوماليين، وذهب هو إلى مكتب البريد. وهو أول من فكر فيه الجد حين شعر بالغربة بعد رجوعه لعدن، فذهب لرؤيته. "يا دجاجة عمتي خربشي لك خربشي"، سمعوه يردد مثلاً شعبيًا، وينقر بعصاه المعقوفة أرضية الحجرة. سكت قليلاً، قبل أن يقول، وهو يخرج رأسه من النافذة، إن صديقه الصومالي حصل على الجنسية العدنية البريطانية، التي مكنت أولاده من مواصلة الدراسة، وأن ولده الكبير عيسى، الذي يتذكّره صبيًا صغيرًا، أصبح الآن موظفًا في أمانة ميناء عدن.

حدقوا ثانية في القطعة الصغيرة المربعة. في قلب الطابع أمواج، وفي الأفق ما يشبه التلال أو الجبال الصغيرة، وفوق الأمواج زورقان شراعيان، بزوايا حادة. وقال الجد، يجهد بصعوبة في التعالي على مشاعر هزيمة الزمن له، إن مكتب البريد كان مقابل سينما برافين، وأنه افتتح في العام الذي احتلت فيه عدن. وحكى عن والده الذي كان جمّالاً. يقود الجمال المحمَّلة بصناديق الرسائل، مرسلة إلى الجنود والموظفين من الإنجليز والهنود واليهود وغيرهم. "والدي كان الجمال الوحيد، ثم جاؤوا بواحد من العوالق". قال وهو يأخذ الطابع من الجدة، وأضاف "معهما كاتبان والمدير كان مساعد المعتمد السياسي". ظلت الجدة تهز رأسها، كانت أصغر من أخيها، غير أنه

لا يبدو عليها أنها تعرف الكثير مما يقوله. وتحاول أن تتذكر تفاصيل محتها السنوات فتفشل.

طلب والدي خيولاً بدلاً من الجمال، لاختصار الوقت وتخفيف المشقة، لم تكن تكلفة الخيول الشهرية تزيد على ثلاث روبيات، ومع ذلك رفضت بومباي. لم يتنبهوا إلى أنه يحكي عن والده، كما لو أنه موظف متنفذ، تؤخذ طلباته بعين الاعتبار. لا يريد أن يفهموا أنه مجرد جمّال، لا يرغب سوى أن ينظر إلى والده، انطلاقًا منه هو، الذي كان في وقت مضى موظفًا في البريد، بعد أن تعلم القراءة والكتابة وعرف الكثير من الكلمات الإنجليزية. "بفضل البريد تحولت عدن محطة مهمة لتبادل الرسائل إلى معظم البلدان، التي تمر سفنها عبر البحر الأحمر إلى المحيط الهندي والشرق الأقصى". ونظر في وجه سعاد، في لباسها العصري، ثم نظر فوق شعرها الملموم أسفل طوق أسود، وتجاهل النظر إلى الشال يلف كتفيها، ورفع بصره إلى أعلى. لم تكن المروحة تدور. تراجع بظهره وأضاف مختتمًا كلامه، وهو يضرب خفيفًا على مسند المقعد بقبضة يده: "ما كان عليهم لضمان وصول الرسالة، سوى كتابة اسم الباخرة، وإضافة: ستيمر بوينت. عدن. بريد البحارة".

نهض الجد ودخل حجرته. وجمعت الجدة ملابس غسلتها صباحًا، وقرّبت المشجب ووضعت تحته المبخرة، وبدأت بوضع الثياب قطعة قطعة فوق المشجب لتبخيرها. وقالت سعاد للجدة إنها مدعوة لحفلة عيد ميلادها. ابتسمت الجدة وباركت لها ودعت الله

أن تعيش وتعمر حتى ترى أحفادها. ثم شغلت سعاد نفسها بالنظر في الغرفة، كأنما يوجد ما يدفعها إلى ذلك، فيما تشم الرائحة الزكية تعبئ رويداً زوايا البيت، سريرين خشبيين، فرشتهما الجدة بشراشف رسمت عليها أشكالاً جميلة، ومشغولة أطرافها بتطريزات ملوّنة. وهناك مقعد كبير من الخشب لشخص واحد، وكنبة لثلاثة أشخاص. وطاولة بطوابق مفتوحة، داخلها مكحلة في شكل تحفة أنيقة، ومزهرية صغيرة من البلّور، لصقها صندوق من خشب الكافور، عرفت من الجدة أنها حصلت عليه عندما فازت باليانصيب، فوقه علبة فاخرة من الخشب، عليها صورة للملكة اليزابيث، وكُتب اسم عدن بجوارها. تعرف هذه العلبة، هي من أعطاها، لكنها احتفظت بكوب الحليب، أنيق وألوانه رائعة، هديتها إضافة إلى العلبة من الملكة الشابة، التي زارت عدن في ١٩٥٤.

بعد حين وبينما تستعد للنهوض والعودة إلى بيتهم، سألت: "إلى أين وصلت في المسرحية؟" وفركت وجهها بكلتي يديها، تبديداً للرطوبة، فبدا نضراً وجميلاً. وهو يتأمل وجهها عاوده الشعور اللذيذ الذي لا يقاوم، ويؤكد له أنه يحبها مثلما يحب عدن تماماً. "المشرف على المدرسة عدّل فيها وطلب إضافة تفاصيل أخرى". وهو ينظر ببطء إلى عينيها ويتوقف عند شفتيها، ذكر أن عدن محظوظة بالإنجليز. وجاوبته أنه لا يمكن رؤية الأمور من هذا المنظار. وشعرت أنه يمسك بشفتيها.

كم شعر بنفسه مقذوفًا في تلك البلاد الخاوية. ولأنه أحس أن

النقاش سيتطور إلى مستوى آخر، قال محاولاً تبديد احتمال سوء الفهم، إن سينما شهرزاد تعرض فيلمًا جديدًا لمارلين مونرو. إلا أنها مضت تقول بينما تمشي باتجاه الباب الخارجي، "مسرحيتك، ولا أدري إذا كنت انتبهت لذلك، لا أقول تفضح إنما تقدم حقيقة مواقفك من الإنجليز، الذي قد لا يتفق الكثيرون معك حوله". وفتحت الباب، وحاول هو محاولة أخيرة، أن يقول شيئًا لكن صخب الشارع لفهما، ثم ساد الهدوء ثانية، عندما أغلقته برفق وراءها.

(٩)

نظر إلى المرفأ، يغصُّ بالبحَّارة، بينما يمشي بسرعة. يتنقل العمال كأجساد سائلة من العرق وملوحة البحر. يتجاوز مبنى البنك الهندي الوطني على يساره. وخلل الفرجات، بين مخازن البضائع وخزانات النفط للتزويد السفن وشركة الـ"بي بي"، يلمح البحر بطرف عينيه. رفع بصره فرأى بيوتًا تنتشر بسقوف من القرميد الأحمر، على الطراز الإنجليزي، فوق المرتفعات الخلابة، وتوقفت نظراته عند سينما رويال، وفرع جديد لمكتبة منيش غلام، ومر بجوار صالات فخمة لتجار من البانيان، ورأى صورته معكوسة في زجاج وكالة بونتياك للسيارات، ولاحت له من بعيد لوحة نادي كيبل آند وارليز، ثم واصل سيره تاركًا إلى يمينه سندوسك ولوكتومس وكوري برادرس، والخياط الشهير بركدلي وأصواف "هلد" و"الموهير". وخطر له الخاطر نفسه، كلما جاء إلى منزل

آيريس في هذا الحي الأوروبي، أن شخصًا جديدًا يعيش في داخله، يحب الحياة، كما لو أنه اكتشفها للتو.

لم يشعر سمير أنه يقول الصدق، وهو يتكلم مع السيدة الإنجليزية. لعل ما ذكره لم يكن كذبًا، غير أن شعورًا مبهمًا ظل يخامره، شعور الذي لا يريد أن يرى سوى النصف الملآن من الكوب، يريد أن يرى الجزرة، لكن ليس العصا. رأى إضراب العمال في الميناء، وتساءل كم من المرات أبصرهم يفعلون ذلك. لم تكن هي معنية تمامًا بالكلام الكثير الذي قاله، مع ذلك شرحت له أنها تعتقد أن موقفه فيه الكثير من التساهل، على العكس من صديقته. هي لم تلتقها بعد لكن عندما تملّ من الدرس، تطلب أن يكلِّمها عن حياته وأصدقائه. وسأل نفسه وهو يصغي إلى آيريس تتكلم عن سعاد، هل أفكاره مباشرة إلى هذه الدرجة؟ يمكن لأي كان فضح مواقفه، مهما سعى إلى المواربة أو قول العكس. هو نفسه لا يدرك أحيانًا أنه يقول كلامًا ويقصد أمرًا آخر. نحن بشر، ولسنا عرقًا أو مجرد سكان محليين. هل يقول لها ذلك؟ يكتشف أنه واقع تحت تأثير نمط الحياة التي يعيشونها. ولم يخفِ شعوره بالخيبة تحت أي تصرف مصطنع. وفكر أن عليه مواجهة أموره، بكل ما تحتاج من وضوح.

في مطعم إيطالي، يأخذ مكانه أسفل بناية في أشهر شوارع عدن، اختار طاولتهما بجوار المدخل وتفصلهما عن الشارع واجهة زجاجية. سمع عزفَ موسيقي ورآهم يقدّمون الشراب. طلب لكل

منهما قطعة من لحم الضأن، وصلصة حارة مع الثوم وفطيرة تفاح. رشّ الملح فوق قطعة اللحم، وتناول الشوكة وغرزها في شريحة بطاطا مقلية ووضعها في فمه. وبينما يمضغ اللحم ببطء، راح يرش الملح فوق القطعتين المتبقيتين في الطبق أمامه، ويحدّق في السيارات، تعبر الماين روود في المعلا، هذا الشارع الرائع بنباياته الشاهقة على ضفتيه الطويلتين، بأضوائه ومقاهيه الحديثة ومستودعاته الأنيقة. نظر إلى أعلى قليلاً، فشاهد نساء أوروبيات يطللن من شرفات الشقق الجديدة، التي يعشن فيها مع أزواج، يعملون في شركات أجنبية، أو ضباطًا في الطيران البريطاني الملكي، يدخنّ ويضعن أيديهن فوق حافة الشرفة وينظرن، بدورهن إلى الأسفل، حيث المحال منيرة في الجانبين. "أطلب لك سيجارة؟" وضحك وردت عليه سعاد بابتسامة، "سيأتي دورها، ليس الآن، وربما لن أقتنع". وقال إنه أحيانًا نقدم على فعل أمور بعيدة عن قناعاتنا، ولكن لأهميتها في فتح ثغرة في جدار العادات، "أليس كذلك؟". لم يبدُ عليها أنها تتفق مع ما قاله، لكنها هزت رأسها إعجابًا بالفكرة. رأى الطاولات حوله فوقها كؤوس الشراب الفاخر، وطلب نبيذًا.

وقالت سعاد، فيما هي تنظر في صورة امرأة بقامة مهيبة، ترتدي قبعة تخترقها ريشة، وتمسك بيدها عصا، تبعدها قليلاً عنها، لا تتكئ عليها بقدر ما بدت جزءاً من أبهة إنجليزية، إن نظرة الرجل إلى المرأة، بل نظرة المرأة إلى نفسها، تربكها. وأوضحت أن هذه

النظرة لا علاقة لها أحيانًا، بطبيعة اللحظة التي يعيشها الجميع. "فهي تبقينا مشدودين إلى عدن ما قبل هذا التحول الحاد". ينصت سمير وفي الوقت نفسه، تتلمس أصابعه كأس الشراب، ولا تتمكن من رفعها إلى فمه، لا خشية من سعاد التي بدت اليوم شديدة الخفر، أو هكذا رآها، إنما لأنه شعر أنه من دونها سيكون في حال أفضل. لم تمسّ شفتاه المشروب، ومع ذلك تجرّأ وقال لها إنه يحبها، ثم، كمن يريد تصحيح معلومة، عاد ليقول إن أكثر اثنين يكن لهما الحب، عدن وهي. وبدت على وجهه أمارات امتعاض، وهو يتطرق إلى نقاشهم في اللقاءات التي تجمعهما بنجيب ورفاقه. واشتكى من جو التشاحن الذي أخذ يسود، بسبب قناعاته حول الإنجليز التي قد لا يكون يعبر عنها، بصورة ملائمة، فيفهمها الآخرون على أنها تخاذل أو تواطؤ. وتمنى لو تبقى لقاءاتهما ثنائية، إلا أن سعاد لم ترد بأكثر من رسم ابتسامة خفيفة على شفتيها، خمّن منها أنها غير موافقة على ما تفوه به. يتكشف لسمير، شيئًا فشيئًا، أنه أصبح على النقيض من نجيب، الذي عرّفته عليه وداوم بعدها على الالتقاء به معها. يبدوان أحيانًا كخصمين لدودين، يقول أحدهما كلمة، فيحمّلها الآخر أكثر مما يمكن لها أن تحتمل. تنامى بينهما، على مهل، مقدار من سوء الفهم، قاد بدوره إلى سوء ظن، وبخاصة من نجيب، أخذ يتوسع فيتحول إلى ارتياب.

وكمن نسي شيئًا وتذكره بغتة، رفع سمير بغبطة ظاهرة، كيسًا كان قد وضعه بجوار المقعد، وأخرج شالاً ونهض ببطء، في ما يشبه

حركة مدروسة، ودثّرها به. أحب بشدة أن يهديها شالاً، شتويًا، على وجه الخصوص. أكرمه التاجر الفرنسي، وزاد معاشه لسبب يعرفه ويحاول أن يتجاهله، إضافة إلى راتبه من المدرسة، زائد المال الذي يتقاضاه من آيريس لقاء تعليمها اللغة العربية. تجمَّع لديه مبلغ محترم فاشترى له قميصين واختار لها هذا الشال من الصوف، بتخريمات تأخذ أشكالاً دائرية ومستطيلة، يطغى عليه اللون الأزرق، فيما يلون أطرافه، في هيئة ضفائر نحيلة، اللونان الأصفر والوردي. طالما رأى فتيات يتوشَّحن بمثله، وصمم أن يعزمها في هذا المطعم الفاخر، في أطول شارع بعدن. تأخذه نشوة العثور على نفسه في هذه المدينة، إلى حد أنه لا يخطر له أن يفكر ما فائدة جلبها لتتناول وجبة، ينفق في مقابلها ما يجنيه في شهر، لعله في قرارة نفسه يرغب في أن يكون واحداً مثل هؤلاء، يجد وجوده كله يتحقق بمجرد العيش ولو لبرهة قصيرة في أماكن مثل هذه، لا ليست الأمكنة التي ستأسره فقط، إنما الجو ككل في هذه الأحياء التي تكتظُّ بالأوروبيين.

وهي ترمقه وتمسد الشال بيديها الاثنتين وتشعر بنعومته، قالت له إنها لو فكرت في أن تجلب له هدية، فلن تكون سوى هذا القميص، الذي يلبسه الآن، بمربعات صغيرة لها ألوان حمراء وكحلية وسوداء وبيضاء. فقال لها إنه منذ هذه اللحظة سيعتبره هدية ثمينة منها، وأنه سيحافظ عليه حتى لو بلي وتمزق.

لم تنه قطعة اللحم خاصتها، لكنها التهمت فطيرة التفاح كاملة. وقالت له إن والدها كان مرتاحًا لمجيئه في حفلة عيد ميلادها، برفقة

جدته وجده. ورد سمير عليها أنه أعجب بطريقته في رؤية الحياة. وأضافت هي أن أباها يبدي، على العكس من أمها، مرونة شديدة، بالنسبة لاندفاعها. وذكرت أن والدها يعتبر الحياة معركة لا بد أن ننتصر فيها. ومرت لحظة من الصمت، تبادلا فيها نظرات، جعلتها الموسيقى الرومانتيكية الخافتة، مشحونة بعاطفة جياشة، وابتسمت هي وخفضت رأسها، قبل أن ترفعه ثانية وتسأله عن أبيه.

باغته سؤالها، وإن ظهر طبيعيًا في سياق كلام بدأ عن أبيها. وهو يفكر في والده اكتشف حاجة شديدة، إلى أن يحكي عنه لأحد ما. ذهابه أصلاً إلى الحرب، لم يخلُ من الصدمة. تمنى سمير لو بقي والده نجّاراً في تلك الجزيرة الموحشة. لم يكن وحيداً ومع ذلك شعر بالوحشة. حين يغادر تلك الجزيرة النائية ويعود إليهم في الحديدة، حيث يسكنون قريبًا من الحي الهندي، يمضي غالبية وقته ساهمًا، ونومه تربكه، بين ليلة وأخرى، صرخة يطلقها في عمق الليل. سمعه مرة يتكلم عن سفينة "صقر قهوجي"، التي يرسلها الإنجليز لتتفقد الرجال الذين يعملون في فنارات تنتشر في أنحاء من البحر الأحمر، تتوقف عند صخرة تدعى أبو ليل، يحملون إليهم أطعمة ومعلبات وأدوية وطبيبًا. ولا مرة احتاجوا إلى ذلك الطبيب. كانت الوحشة قد تمكّنت منهم، استولت على قلوبهم. قد يفرحون بزائر أو اثنين، يمرون عليهم مرة في الشهر، وبقية الوقت يغوصون في حالات لا متناهية من الشعور بالعزلة، في جزيرة لا يمكن العثور فيها سوى على الأكواخ التي بناها والده، بمساعدة نجارين هنود ويمنيين، وتبدو نائية عن كل شي، كل شيء على الإطلاق.

طالما أحبت سعاد أن تكون صاحبة أفكار لامعة، ومبادرات لافتة للنظر، خطر لها وهي تهم بلمس أصابعه، قصد مؤازرته والتخفيف من حزنه. حين تفكر بذلك يخطر لها أن مسحة التعاطف، التي يلاحظها من يصغي إلى نقاش تشارك فيه، ليست أصيلة، وبالتالي غير مقنعة. وأنها فقط، على الأقل لمن لا يعرفها جيداً، تواصل مثابرتها، لتكون مختلفة، في نأي عن الآخرين، ووصولاً إلى ما تسعى لتحقيقه، "التألق الشخصي". في الواقع، الأمر لا يقتصر على من لا تربطه بها علاقة وطيدة، إنما يشملها هي نفسها أحياناً. واظب والدها، بسبب كونها وحيدته، في كل يوم يوافق تاريخ ولادتها على تقديم هدية سنوية، ولو تمثلت أحياناً في قطعة كيك بالزبيب من المخبز اليوناني. بدت محبة أبيها لا حدود لها. في كل يوم يعود من العمل، لا بد أن يحمل في يده، بجوار الخبز والفاكهة صحيفة جديدة، يطالعها سريعاً، ثم يلقيها في حجر ابنته، التي سرعان ما ستفهم ما يجول في خاطره، وأخذت تقرأ كل ما يقع عليه نظرها، ثم راحت تطور قدرة ملحوظة، فيما ينبغي قراءته. في حين التزمت أمها شروطًا قاسية في تربيتها، هي شروط المجتمع نفسه، لكن قبل أن تعرف عدن هذا الضجيج والانفتاح. وصح أن سعاد قدرت أن تتقلب وتبلور شخصيتها، خارج هذه الشروط، إلا أنها أبقت في داخلها على ما يشبه طاعة العبد لسيده بالنسبة للعلاقة مع أمها، فهي لا تجرؤ على الخروج من المنزل من دون غطاء الرأس، وعدم التأخر في العودة. لكن الأم، التي تبدو صارمة، هي ما

تعلمت سعاد منها، حب الحياة وإطلاق رغباتها. طالما رأتها وهي تقف أمام المرآة، تتبرج وتتمايل على إيقاع أغنية "حرام عليك تقفل الشباك" لخليل محمد خليل أو أغنية جديدة للمرشدي أو أحمد قاسم، وكأنها في مخدّرة، أو هي تتغنج مع أبيها بينما تحثه، لأن يخرج بهم في نزهة على البحر.

قال لها إن والده وقبل أن تستولي عليه الوحشة تمامًا، كما حدث لآخرين لم يجدوا فكاكًا منها، غير أن يلقوا بأنفسهم في البحر، وقد ربطوا أجسادهم إلى صخرة كبيرة، ترك تلك الجزيرة. وفي غمرة تأثره تنبّه، شيئًا فشيئًا، على أصابعها تعانق أصابعه، تصعد قليلاً الأصابع إلى ظاهر كفه، ثم تنحسر، مثل موجة خفيفة، في أثناء ذلك سرت حرارة جحيمية في جسده، تنتشر راحت في أرجائه، لم يقهرها تأثره بما يحكيه عن أبيه، وتمنى لو يعانق سعاد، لو فعل لربما يتفجر فوق صدرها أشلاء. بدت له حركة أصابعها نوعًا فريدًا من التعاطف، من الانجذاب، ورفع رأسه وحدق في وجهها مباشرة، ومضى قائلاً إن والده انضم في ما بعد، إلى عمال يشتغلون لمصلحة أحد التجار الهنود، كان يستورد قوارير من مدينة عصب، ويقتصر عملهم على تعبئتها بالماء، الذي يجلب من جزيرة كمران بقوارب صغيرة.

سكت وطال سكوته قليلاً، وعندما تكلم ثانية قال إن أباه، لم يلبث وقتًا في هذا العمل حتى تركه، منضمًا إلى الجمهوريين في ثورة سبتمبر، حيث قتل.

مضت برهة من الزمن، ظن معها الشاب وهو يحاول العثور على صورته في المرآة، أن الفرنسي، الذي اشتغل في بناء السفن واللنشات، وكان يطلق على سفنه أسماء عربية، ويجعل لها أعلامًا ويختار بنفسه ألوانها، استسلم للنعاس. منذ الظهيرة وهو لم يبرح هذا المكان، فإذا بصوته يهدر ثانية: "يفتقدون خيال المغامر، وهم جشعون ولا يرغبون في أن يذوقوا طعم الخسارة. لا يمكن أن يخرج من بينهم تاجر، طالما يفتشون عن الفتات، بصفتها أرباحًا. كان يمكن لي أن أفشل مثلهم. هؤلاء العرب". ونظر في وجه الشاب، ليس مباشرة، إنما عبر المرآة.

وشعر الشاب بالنظرة تخترقه، وراعه لوهلة أنه لم يقدر أن يتبين جسده في الظلام الخفيف. وترقب أن يسمع اعتذارًا منه، لأنه قال كلامًا مهينًا في حقهم، غير أن العجوز لم يفعل، "ينقصهم كل شيء، ليدير هؤلاء تجارة ناجحة". وارتفعت يده، بأصابع متفرقة، وراحت تمسح فوق جبهته، ترتفع قليلاً إلى الشعر الأصهب، لتتخلله ببطء شديد. وأغمض عينيه، كمن يثابر لاستعادة حقب مختلفة من حياته.

أنت لا تكره العرب أيها الفرنسي. يرمقه الشاب ويزوي حاجبيه. تكره حد الموت ما تترقب أن يفعلوه بك، جزاء غطرستك

واستخفافك بهم في كل الأزمنة. لئن لم أسألك لم قربتني منك في الأيام الأخيرة، وهذا اليوم تحديدا؟ فإنني لست جاهلاً وأدرك كفاية، خشيتك أن يبطش بك في أي لحظة أولئك الفدائيون، تتحرى متى يدقون على أبوابك، أو يحطمون زجاج نوافذك.

تعرف يا رجل عدن، أنا أيضًا لا أملك أية شجاعة لمواجهتهم، بعد أن حاصروني في خانة من يفضّلون بقاء الإنجليز. إذن نحن، أنت وأنا، في خندق واحد، يأكلنا الخوف من أي صوت يقبل من خارج محيطنا الصامت، في هذا المساء الطويل. لعلك أنت أيضًا تدرك ذلك، وإلا ما الذي دفعك إلى رؤيتي في هذه اللحظة بعينها؟ ولا مرة رأيت فضولاً في عينيك لأن تلقي نظرة علي. عمومًا رؤيتك لي جعلتني أيضًا أرى نفسي، أبصر من أكون أنا.

من شرفته الفسيحة، حيث دفع قدميه إليها بصعوبة بالغة، يلاحظ الفرنسي البحر، في هيئة ظلام كبير، يتخيله يتماوج. من مطله يحاول سماع أصوات، ترنّ في ذاكرته مثل صدى خافت لأجراس بعيدة، ويعرف لمن هي. كأنما العجوز أصبح فجأة غير قادر على شيء. يفترس الوهن جسمه كله، وتتخلى عن أعضائه وظائفها المعتادة. تعتريه الخشية، يأكل قلبه الخوف، ويتلفت كلما سمع صوتًا غريبًا. لا أحد سوى الشاب، يعرف كنه هذه الالتفاتات. سها قليلاً عن نفسه، عن المنظر الليلي أمامه، يغمره بشعور لم يحتمله. وبقي واقفًا يترك يديه، ترتعشان، على الحواف العريضة للشرفة، توفر منظرًا خلابًا، وخصوصًا قبيل الغروب. ويضج رأسه بشظايا

من تلك الأزمنة، القريبة والبعيدة معًا، بنقاشات وأحاديث جمعته بهم، أصدقاء وتجار منافسون وإنجليز يمسكون بكل القرارات هنا، في حفلات صاخبة لا تنتهي، على هامش سباقات الخيل وفي نادي اليخوت ومنافسات الهوكي، وخلال افتتاح كازينوهات جديدة، في لحظة ازدهرت فيها ستيمر بوينت، التواهي، لتصبح أهم مدينة اقتصادية. "لا تفكرون سوى في مصلحتكم كونكم شركات أجنبية". قال مهندس كبير في شركة "بي بي" البريطانية، يجلس على حافة كنبة عريضة، وبيده كأس ويسكي، يروح يحركه ببطء. "أصبحت وارداتكم من رسوم الميناء تقدر بملايين الجينهات سنويا". رد هو، بينما يحك بتؤدة شفته السفلى بطرف الغليون.

وأوضح شاب بلحية حمراء خفيفة، ويضع نظارة بعدسات دائرية، ويعمل مديراً تنفيذيًا في مصنع للصابون أن الاقتصاد الخدماتي حوّل عدن إلى سوق مفتوحة، لمنتجات المصانع والشركات متعددة الجنسية. "يجوع العالم المجاور لنا ويعرى، إذا لم تغادر البواخر من ميناء عدن، إذا لم تقلع الطائرات من مطارها، محملة بالأرز والسكر والملح والجلود والتوابل وكل شيء. أصبحت عدن بوابة مفتوحة على العالم". تدخّل رجل يعمل متعهداً مهمته توفير اللحوم والخمور، للفنادق والأندية الليلية. يبقى هو يدخن من غليونه، ثم يتركه في جانب من فمه، ليحك ذقنه كمن يأخذه التفكير إلى مسألة معقدة. "إلى أين تتجه هذه المدينة، ألم يكفها أنها أصبحت ثالث أهم ميناء في العالم بعد نيويورك وليفربول؟".

يسمع تساؤل ضابط يتبع لفيلق المهندسين الملكيين التابع للجيش البريطاني، وكان تعرض لإطلاق نار، خلال قيامه بمسح طريق للسيارات، في سلطنة لحج.

لم يتمالك العجوز شعوراً انتابه، بينما يتأمل وجهه في المرآة ويشم هواءً مشبعًا برائحة البارود، أن كل ما شيده، يوشك في أي برهة، أن يتحول هباء، شيئًا قابلاً للنسيان، ونتيجة لذلك فكر أن عليه منذ اليوم، ألا يستغرب الوهن، الذي يسري في جسده كله، ألا يقاوم الاعتراف بهجمة الشيخوخة، هذا الضيف الذي يصفه باللزج. سُحُب الدخان الأسود، تستلقي مؤخراً بينه وبين الآخرين، بينه وبين كأس البراندي، كوب الشاي العدني، الذي يفضله مع القرفة، الورقة التي يجب أن يضع توقيعه عليها، وأخيراً بينه وبين صورتها، صورهن.

لا تجتذبه سوى صورتيهما، الشابين، التي يبثها التليفزيون، تركه مفتوحًا لكن دون صوت، فقط صور المفاوضات في يومها الأخير حول استقلال عدن، تذهب وتجيء. تأمل الحماس المتُّقد، مثل شرر ينبثق من أعينهما، وهما يفاوضان بحيوية نادرة، هكذا تقول الجريدة الأسبوعية، في عددها الصادر اليوم، يتكلمان ويدليان بالملاحظات ويقولان تعليقاتهما. وانتابته مشاعر متضاربة، خُيِّل إليه أنها ثقيلة أيضًا على قواه، بيد أنها لم تحجب تمامًا يقينه أن هذين الشابين ومعهما الآخران، سيأخذون مدينتهم بعيداً.

يتقدم الليل، وعدا الصمت الذي يشيع، ويحيط بالمنزل الكبير،

لا شيء يمكن الإصغاء إليه. وتصور الشاب أن الضجيج كله في رأس هذا العجوز، الذي كأنما لن يعطي الإشارة لإضاءة الأنوار في الخارج، وكانت الظلال تزداد قتامة في الداخل، بسبب الضوء الخافت الذي أصر أن يكتفى به. كأنما لا تريد نوراً كافياً لتبديد الظلال، وكنت كمن يرغب في أن يداري نفسه في عتمة خفيفة، العتمة نفسها التي أحطت بها كل شيء يتعلق بحياتك، تلف نفسك بما يشبه الأسطورة، طريقتك في التفكير بقيت مبهمة، حياتك، مشاريعك، صعود نجمك، تجارياً واجتماعياً، وعلاقاتك، كل هذه الأمور يكتنفها الغموض، تضرب على حياتك الشخصية بستار من حديد، لا تسمح للآخرين بمعرفة أي شيء عنك، فيما يُتاح لك الإطلاع حتى على أدق الأسرار في حياة الآخرين.

ورآه الشاب كمن يحاول أن ينهض، وقبل ذلك سمع تململ جسمه في الأريكة الجلدية. وشم رائحتها، الكحول الفاخرة. هل يوجد سواهما، شخص جعل ينزع أغطية الزجاجات، تقف لصق بعضها في أشكال بديعة، داخل البار الأنيق في ركن من الفيلا الفخمة. مجرد رائحتها كافية اليوم لأن تسكره. يبقى ينظر في القوارير. في الشراب، مختلفاً ألوانه، بجواره دلو صغير مملوء، على الدوام، ثلجاً. ينهض العجوز ويمشي قليلاً، ويفتح زجاجة ثم أخرى وهكذا. يرفع واحدة ويقربها من أنفه، دون أن يغير من إيقاع تنفسه، يترك الرائحة تتخلله رويداً رويداً. لم تعد رائحة الشراب كما عرفها طويلاً، شابها تغير، لما لا تكون حواسك تدهورت، إذ

في لحظة لم تعد قادراً أن تتعرف على رائحة الشراب، ولا روائح البارود التي تكاد تغمر المكان، سوى عندما ترى أعمدة الدخان، تتطاول خلال البنايات.

لم يعد الشاب يراه في المرآة، التي لم يعتقد يومًا أنه ستكون لها مثل هذه الوظيفة، التلصص على أحدهما الآخر من خلالها. فقط يشم الرائحة، تنبثق من مسام جسده كله، وتتخلل الأشياء لتعبر إليه. يراه الآن يتناول زجاجة ماء بيريه صغيرة، يفتحها ويترك السائل يتدفق في جوفه، ثم يقذفها فارغة في سلة مهملات غير بعيدة.

"قلت لي ماذا كان يشتغل والدك في الحديدة؟". يسأل الفرنسي كمن لم يعرف من قبل. "عمل في شركة تستورد قوارير من مدينة عصب، يعبئونها ماء". يجيبه الشاب أيضًا مثل من يسمع السؤال للمرة الأولى. يعود إلى العجوز لونها الأخضر، تلك القوارير، يأتي دون إبطاء، كما لو أن تلك التفاصيل تنشط ذاكرتك، ذلك الاسم "جمدانة" الذي يطلقونه عليها. كأنما واحدة من تلك القوارير بين يديك الآن، تتأمل الحبال التي تحيط بها، للمحافظة عليها من الكسر. فيما بعد، تتذكر أن الناس في الحديدة، استعملوها سراً لحفظ الخمر المحلي، عندما شاع بينهم أن الإيطاليين في عصب يحفظون فيها خمورهم. في الحديدة زاولت التجارة في البن وأكياس القنب الهندي والغزل، والجلود المدبوغة والفاكهة المجففة والسمن.

تنصت إلى صوتك يخرج متقطعًا وغير واضح، رحت تحكي له،

له ؟ لا ، تحكي لصورتك في المرآة ، لم تعد تراها بوضوح فتتوهم أنها لا تزال هناك ، عن الأشغال التي قمت بها في ميناء الحديدة ، قبل الحرب العالمية الأولى . تتكلم عن فشلك في أن تكون تاجراً ناجحاً لتعود إلى عدن ثانية . كنت مجبراً على الذهاب إلى الحديدة ، فمواطنك الفرنسي الذي كان يهينك ويمعن في إذلالك ، عندما فاتحته برغبتك في ترك العمل عنده ، والشروع في أعمال تخصك وحدك ، لجأ إلى القانون ليجبرك على ترك عدن .

تتذكر كيف أنك كنت تمضي وقتاً جميلاً ، على أرصفة ذلك الميناء ، الذي طوره الأتراك ، خلال احتلالهم اليمن ، حيث بنوا مدرسة وثكنات عسكرية وأسسوا نظام عمل صارم ، حتى أصبح الميناء مركزاً تجارياً مهماً . تحكي ، وفي الوقت نفسه ، تبقي أذنيك تصغيان جيداً ، لردات فعله ، لأدق حركة ينم عنها جسد الشاب ، وهو يجلس خلفك مباشرة ، يحرسك ، يحرسني ؟ نعم يحرسك منهم ، لن تنكر ذلك فأنت من طلب منه ، وبصورة لا توحي أبداً أنك تخشى من شيء . قلت إن عملك اليومي ، كان يبدأ في الميناء وينتهي في البنك العثماني أو العكس . ترى الآن البنك العثماني أمامك ، ببنائه الفخم ، تزين جدرانه وسقوفه قطع الفسيفساء ، تهز رأسك وتحرك جسدك ، كما لو تريد النهوض ، والسير فوق أرضيته من البلاط النظيف ، تتجول دون ملل خلال ساعة الانتظار ، ريثما ينهون ما جئت من أجله ، أو حين يتعطل سير العمل لسبب طارئ . ترى أيضاً الحفريات والنقوش العربية ، في الأبواب والنوافذ بألواحها الكبيرة ، من الزجاج الملون .

"لكن الأتراك أجبروا على ترك كل ذلك، بعد هزيمتهم في الحرب". أصغى الفرنسي إلى الشاب وهو يستبقه لإنهاء حكايته. هذا الشاب يضع حداً لم تتوقّعه لتدفق ذاكرتك، حداً قاطعًا على نحو قد ينطبق عليك أنت أيضًا. "لم أزر سوق الحديدة في تلك الأيام، إلا مضطراً"، حكايتك وتصر على أن من يختمها هو أنت، وليس هذا الشاب الذي عرفت منذ أول يوم اشتغل فيه هنا، أنه شغوف بحياة الأوربيين، لذلك تجده سريع التعلم. تنطلق ثانية لتحكي أن السوق التي لم تحبها، كانت مكوّنة من دكاكين صغيرة، تلتصق بأخرى كبيرة، في ممر طويل مظلم ولها رائحة نتنة.

ما كان يخيفك أن المقبرة كانت تقع في الخلف تمامًا. هنا شعرت بالهزيمة، أنت أيضًا لم تختر خاتمة لائقة بحكايتك، فهي تنتهي بالمقبرة. لم يعجبك أن تنهي كلامك بها، أنت الذي تريد أن تعيش طويلاً، وترغب في أن تكتب كتابًا عن حياتك هنا، أو أن تكلّف أحداً يقوم بهذه المهمة، مثلما رأيت أشخاصًا يقطعون مسافات طويلة، عبر البحر ولاحقًا الجو، فقط ليتأكدوا من تفصيل صغير، في حياة ذلك المتشرد، مواطنك الآخر، الشاعر الذي تعلق صورة له قدامك مباشرة، وساعدت بما تستطيع أولئك الأشخاص، من كتاب السير، بإفشاء سرّ يتعلق بحياته قبل عقود. وبصرف النظر عما قلته، أو اختلقته عنه، لمغامرين وجوّابي آفاق، بقيت حياة هذا الشاعر "العابر بنعال من ريح" تؤثر فيك، بصورة أو أخرى. يخطر لك أحيانًا أن استماتته في البقاء، في كنف طبيعة متوحشة وظروف

بالغة القسوة، سكبت نوراً في داخلك، راح ينير لك دربًا وعرًا ويمدك بالعزيمة الكافية، حتى أصبحت اسمًا صعبًا، واسع النفوذ.

ثابر العجوز بين وقت وآخر، في إضفاء نوع مختلف من المرح على حياته، حين يروح يلتقي بأولئك الباحثين عن خيط أو أثر ولو بائد، من ذلك الشاعر الذي رحل عن الدنيا بساق واحدة. أولئك الذين طالما تعرّضوا للخداع من أشخاص قادوهم إلى لا شيء. يربكك شغفهم بحيث إنهم يصفحون بسرعة، ويعاودون رحلة البحث من جديد، مع مخادعين آخرين. تفكر أن ذلك المغامر، الذي لبس ثيابًا من جلود الحيوانات ولفَّ وسطه بفوطة عدنية، ورقص رقصة الحرب وهو يشهر الرمح، وكان يردد بالعربي "عسى أن يتم الله إرادته" رحل لكن حياته بقيت غامضة.

عقب كل مرة ينتهي فيها البحث إلى لا شيء، كنت تدعو أولئك المغامرين إلى وليمة، تجلس معهم قليلاً، تتفرس في ملامحهم، وهم يشبهون ضحايا قليلي الحيلة، ثم تتركهم مع سياح سكارى أو صيادين مخبولين، يعملون في بواخرك.

انتبه فجأة إلى صوت الموسيقى، هايدن؟ كم مرة يتخيل العجوز موسيقى تطرق مسامعه. راق له أن يشعر أن الخاتمة التي أنهى حكايته بها، كانت بتأثير موسيقى هذا العبقري، الذي وجد نفسه، في يوم من الأيام، قدام جزء من جمجمته، راح يتفرج عليه، في نوع من الرهبة، ملفوفًا في غلاف زجاجي مزخرف، تحتفظ به جمعية أصدقاء الموسيقى بفيينا. بيد أنه لم يشأ التوغل في مثل هذا الوهم.

يعرف أن الموسيقى، رغم شغفه بها، لا تأثير كبيراً لها، في آرائه، حتى أكثرها شفافية. ومع ذلك أبدى إحساساً بالمرح، حتى قبل أن يتحول المرح إلى سخرية منه، حين يعرف أن الموسيقى ليست لهايدن، إنما لأولئك الموسيقيين الجدد، الذين راحوا يغزون لندن وباريس. لكن من أين انبثقت؟ تحرك جسده فوق الأريكة، فرأى الشاب ينحني بجوار الجرامافون، وفي يده عدد من الأسطوانات.

يفتش الشاب عن أسطوانة ربما، وربما يعيد ترتيب الأسطوانات، التي طالما حلّق معها بعيداً، ويصادف أحياناً أن يسمع الأسطوانة نفسها، في البارات والمقاهي الحديثة التي كان يؤمها رفقة نجيب وسعاد والبقية، فيستسلم لرغبة جامحة في أن يلقي بنفسه، في خِضمِّ الحياة الجديدة. مثل ثيران هائجة راحوا يندفعون، أولئك الشبان والشابات، في كل الاتجاهات. ويخيل لك أنك لم تعرف نجيب جيداً، حتى سعاد، التي ظننت أنك عشيقها، تفلتت منك. ورأيت بعين خيالك نجيب يتكلم، كأنما لم يتكلم منذ زمن، في واحد من اللقاءات، التي تتذكرها الآن ولكنها، وا أسفاه، لا تحرِّك فيك الحنين لما مضى، "يقفزون إلى أسطح المنازل. تنبثق أصوات مذعورة، أكل الهلع أصحابها، فتواجهها قهقهات العساكر المخمورة. يرافقهم أشخاص يخفون وجوههم وراء لثام، فلا يتعرف عليهم أحد، ويدلّونهم على المطلوبين". كان أولئك الملثمين هم من أصبح قاسم يطاردهم، ويطردهم من مقهاه الشعبي، يعرفهم واحداً واحداً من ملامحهم الخسيسة، ونظراتهم السافلة.

حتى أنني لم أعرف الصوفي أيضًا، من أعرف إذن؟ نلتقي في منزلها، صحيح أنها لقاءات عابرة، لكن هل كان يمكن تطويرها في ذلك المنزل؟ لم تبدُ علاقتنا، الصوفي وأنا، في كنف تلك الإنجليزية آيريس، على ما يرام، يشوبها شيء ما، كأنما بتأثير منها هي، وكأنما لن يمكننا أن نكون أنفسنا، نحن الاثنان، وهي تضغط علينا بحضورها، حتى بدونا مثل غريمَيْن. عندما ينتهي الدرس وأبقى أتجاذب معها أحاديث عن أمور كثيرة، ألحه يرمقني بنظرات عدائية، كأنه وصيٌّ عليها، هي التي لا تزال حائرة في فهم طريقته في الكلام عن نفسه، وكيف أنه يتحول إلى شخصين لا شخصًا واحدًا، حين يجهد في الكلام باللغة الإنجليزية.

ينهض الفرنسي بصعوبة بالغة ويمشي قليلاً. يقف أمام المرآة مرة أخرى، ويخالجه شعور بأنها تتآمر عليه، كأنما هو يحدق في جواه المعتم، وليس في سطح مرآة. ويتملى تفاصيل وجهه، التجاعيد يراها، كأنما لأول مرة، وهي تفعل فعلها، إذ طمست بعض ملامحه. قال له العجوز اليوناني، الذي يهديه، في مناسبات بعينها، كعكًا وحلوى فاخرة، يصنعها بنفسه في مخبزه الأنيق، الذي نقله من كريتر إلى التواهي، حين باح له بهواجسه حول الشيخوخة، إن هناك مَنْ جرب حقن نفسه بمستخلص خصية الكلب، في اعتقاد أن النقص في هرمونات الذكر سبب الشيخوخة.

"لكن ما بال تلك البلاد، ترفض هباتي؟"

يحرر الشاب من الأفكار التي تنهش فيه، فيروح يصغي. "بلدي أكلت خشيتي عليها أربع سنوات من عمري، حين كان ذلك

الفوهرر المجنون يهدد بحرقه. أما الأمريكيون، فهم عمليون دومًا، كوّنت ثروة من ورائهم، الأمر الذي أزعج الإنجليز، ضباطًا وتجاراً". عندما يرغب في التبرع لمؤسسة تعليمية أو لغيرها من المؤسسات الاجتماعية، دومًا يطالبونه في لندن بتقارير عن ثرواته، يشكّكون في أصوله المالية. "أمريكا وحدها لم تطلب مني شيئًا، أخذت ملاييني وصمتت عن السؤال".

(١٠)

بدا مقطوعًا عن العالم، رغم المقهاية المزدحمة بالزبائن، والمشاعر القوية التي غمرته للحظة، وهو يلتقي صديقًا قديمًا بعد سنوات طويلة. كانا مقتنعين بالدرجة نفسها، قبل أن يختفي كل منهما عن نظر الآخر، أنه حتى التجار العرب من حضرموت ولحج سيتلاشون وتتبدد ثرواتهم الصغيرة، إذا لم ينتفضوا ويسلكوا الدروب نفسها التي سلكها التجار، الذين جاؤوا من كل مكان. الامتيازات التي أعطاها الإنجليز، عقب انتهاء الحرب، أغرت الجميع بالمغامرة. يفكر قاسم في المآل الذي يجمعه بأشخاص كثيرين، كانوا مثله تجارًا صغارًا، ثم وجدوا أنفسهم فجأة مجرّد متفرجين. طلب لصديقه جبنة قهوة، وأرسل عاملاً ليجلب هريسة باللوز. تاجَرَ مثله في أكثر من صنف، لكن الخاتمة واحدة، ابتلاعهما من أسياد الأعمال من الهنود والبانيان واليهود والأوروبيين. لم يشتغل قاسم في مكتب مثل صاحبه، يحتكر النقل بواسطة عربات الأحصنة، ولم يعمل مصنفًا للجلود في ممباسا كما فعل قايد عمران، ولا تاجر بقرون وحيد القرن والعاج والزباد، وجلب يومًا إلى عدن البن الحبشي مثل حمود عبده. كل ذلك تاجر فيه أصحابه فيما مضى، غير أنهم تساووا جميعًا في الخسارة.

ينظر التاجر القديم في وجه صديقه، وهو يحتسي قهوته، ويحرك لسانه داخل فمه، يتلمّس المذاق الأخير للحلوى. شعرٌ أشعث، تعاريج تأخذ طريقها في وجهه كله، تنزل نظراته على يديه وذراعيه السمراوين، طافحتين بالعروق. يرى قاسم صورته نفسه في عيني صديقه، الذي ترك عدن خلال الحرب ثم عاد إليها بعد أعوام، وهو يتأمل سطوة الزمن في وجهه هو، وجهه الذي يتحاشى تذكر آخر مرة رآه في المرآة. كل شيء كان يعرفه، أخذ يضمحلُّ ويتلاشى سريعًا.

طالما شعر أنه على حافة الخطر، حتى عندما يكون تحت حماية الإنجليز، في كل مرة كان يعبر فيها نقطة التفتيش ويتقدم منه الهوردال، رئيس الحرس، لا يتكلم، في ذلك الحين، يتفحّص الوجوه فقط، ثم يتحرّى النطق بكلمة السر، ليعبروا إلى الشيخ عثمان ببضائعهم المهرّبة، سالكين ناحية البساتين، ثم يتخطون مركز تمبر سكس. أحيانًا يسلط الهوردال نورًا ساطعًا في وجهه، وفي الأثناء التي يروح يغمض فيها عينيه، اتقاء للنور، يفكر قاسم في النظرات التي يصوبها العسكري إليه، لا ليكتشف فيه، بغريزة الجندي المدرب، كم هو متورط في أعمال التهريب، إنما إلى أي حد يتخبط هو في النجاسة، وخمّن مرارًا في ذلك الحين أن الهوردال يعرف ماذا يقدم للضابط، ويراه أكثر من مرة وهو يهز رأسه، بطريقة لا تخلو من مغزى، قبل أن يتركه يمضي في قلب الليل.

كان قاسم لا يزال يتذكر الأسماء. قال إنه غالبًا ما كان يسأل

نفسه، عمّا قد تكون آلت إليه أحوال بعضهم. قلما كان يفكر في أن هذا الشارع نفسه، الذي كان ترابيًا وضيقًا، يمكن أن يتحول إلى ما أصبح عليه اليوم. في قرارة نفسه يشعر أنه حزين، وفكر في أنه ما كان له أن يتعرف على صديقه، بتلك الطريقة، لولا أن خطرت له فكرة الشبه، الغريبة، التي لا تمس الوجه. يأخذ نفسًا من المداعة، التي لم يكن يتعاطاها في ذلك الزمن، ويراقب كريتر، ويعني اسمها فوهة البركان. أضحت كريتر مدينة قديمة ولم تعد قلب عدن. ينفخ الأدخنة في الجو الحار، لفترة ما بعد الرابعة عصرًا، ويرى ناجي، النجار في ورشة الجيش البريطاني، وهو يسير باتجاه المقهاية، ينظر إليه وهو يقعد وحده حول طاولة قريبة من الشارع، ويفكر أن الزبائن، سرعان ما سيهرعون إليه ليقولوا له طلباتهم. يريد أحدهم طاولة طعام بأربعة مقاعد، وزبون يلحّ عليه ليصنع له دولابًا يضعه في صالة المنزل. يخطر له أن البيت العدني تغيّر. يخطر له أيضًا أن البعض، كف عن تناول الطعام جلوسًا فوق الأرض، وستبدو صالة المنزل غير جذابة، دون دولاب بواجهة من زجاج، ترتب خلفها أشياء تصلح للفرجة، وترفع سكان البيت إلى مرتبة خاصة ضمن التراتب الجديد لمجتمع الحارة.

يعود ليقضم من أقراص الغريبات، يروق له ذلك الخليط من الدقيق والسمن والسكر، ويصغي، في وحدته الرهيبة بين الجموع، إلى قرقرات المداعة تنبثق من طاولات عديدة، ويتفرس في القادمين بكثرة لم يتعودها قبل الحرب، من الضالع وشبوة وأبين وحضرموت

والمكلا ولحج وتعز والحديدة وصنعاء وحجة، ومن كل الأماكن. لا يهمهم أن يدخلوا عدن، فوق عربات محملة بالخضار والأعلاف، يدفعون جانبًا الحزم الخضراء، ويهيئون لأنفسهم أماكن للجلوس، ولا يزعجهم الانتظار ساعات عند مدخل المدينة، أثناءها يتأكد الطبيب والحرس من خلوّهم من الأمراض، ثم يتم تعقيمهم بمسحوق أبيض يرشونه عليهم. بعضهم، جهلاً، يفتحون أفواههم لاستقبال الرذاذ الناعم، فينهرهم الطبيب، ثم يؤذَن لهم.

يحييه اليهودي سليم من بعيد. يراقبه وهو يرتدي ملابس نظيفة ومكوية، بنطلونًا كحليًا وقميصًا سماويًا وجزمة على الموضة، باللونين الأسود والأبيض، يمشي في طريقه إلى الكوفي شوب الذي افتتحه قبل ثلاث سنوات فقط، كان مجرد بار في زمن ما قبل الحرب، وفي السنوات التي تلت، وكان سليم نفسه مجرد صبي فيه. لم يفكر يومًا في احتمال أن يكون سليم منافسًا له، أو تصور أن محله سيشكل تهديدًا على مقهايته. يقدم سليم في مقهاه المكيّف والأنيق، أنواعًا من القهوة والمشروبات الساخنة في أقداح من الصيني والخزف، وأيضًا يجد زبائنه، الذين هم من الموظفين الهنود والصومال والفرس وحتى أوروبيين سياح أو إنجليز، ممن عاشوا في كريتر ردحًا من الزمن قبل انتقالهم، البيرة والنبيذ وغيرهما من المشروبات الروحية، وهو ما يصر قاسم على عدم السماح بتقديمه، ولا حتى بتناوله خلسة في مقهاه الشعبي. ولم يدع أبدًا المناوشات التي تحدث بين النادل في مقهى سليم، وهو يهودي

أيضًا، وعماله هو، أن تكدر صفو العلاقة بينهما. يصف النادل عماله بالجهلة وغير المتعلمين، وأنهم قادمون من الجبال، ولا يرد عليه العمال سوى بالضرب المبرح. إلا أن أمرًا اعتاد سليم فعله، يثير باستمرار شجونًا لدى قاسم، عندما يراه عند ساعة محددة من كل يوم، خارجًا من الكوفي شوب ويحمل أشياء للبيت، وعلى وجهه علامات لا يمكن جهل ما تعنيه، زوج سعيد بالعودة إلى زوجته وأولاده بعد يوم عمل شاق. يتنهد قاسم عميقًا وهو يراقب ذلك، ثم يكبح مشاعره.

لاح له رزق قادمًا على دراجته الهوائية، يدفع عربة أمامه مملوءة بعلب البيرة الفارغة، يبكر كل يوم لجمعها من البارات المجاورة، ويقبض في مقابل ذلك أجرًا من أصحابها، ويأخذ أضعافه من قاسم. بعد قليل تتحول تلك العلب إلى أكواب، تُعبَّأ بالمشروبات الساخنة، ويحملها معهم بعض الزبائن إلى خارج المقهاية. يجز العمال في الداخل جزءها العلوي، ثم يروحون بشاكوش صغير يطرقون الحواف الحادة للعلب، ثم يثنونها إلى الداخل، إلى أن تمسي دقيقة، ويغسلونها جيدًا ويقدمون فيها المشروبات. وسمع رزق يقول: إنه سيسافر وسيعود بعد العيد.

السفر إلى البلاد يعني أن يضع رزق في أولوياته، الذهاب إلى صالون الحلاقة المكيف للهندي ناصر الدين، في بداية شارع الطويل، ويختار واحدة من قصات الشعر الجديدة. ذكر أنه هذه المرة لن يختار القصة، التي انتشرت بعد مجيء المطرب المصري فريد

الأطرش، في عام ١٩٥٦ وغنّى في ميدان الحبيشي، ورقصت أمامه نادية جمال، سيختار قصة التالو الهندية، ويدفع ثمنها خمسة شلنات. ثم الذهاب إلى محال الملابس، ليشتري بنطلونًا وقميصًا جديدين وجزمة من مخزن الأهرام في حارة حسين، ثم يغادره إلى دكان الأجهزة، فيقتني مسجلاً أو راديو. قبل كل ذلك سيعيد التدقيق في الحركة الجديدة، التي تعلمها من الصومالي محسن، الخبير في المدارجة، والذي تفوق عليه في المرة الأخيرة.

"تشتي لك أروان من الخيزران". "أنت أكبر مناجم ومدارج رهيب". "تشتي ديم محمض بليم". "وأنا أشتي أعرف من الذي طبز بي هذه الطبزة". "من صديقوه، مش من كديبوه" "تفتجع؟". "من حلقك لربك". "باكسبه فلوس أنا فدا قلبه".

صخب الزبائن، يعلو على أصوات تنبثق في ذاكرته، من أزمنة ظنّ قاسم أنه نسيها إلى الأبد، فينتبه ويشير إليهم أن يهدأوا. لا يمتثل الزبائن لما طلبه منهم، ويواصلون ضجيجهم. "باتقدر وأنت أبوها وأمها. زر نفسك قليل ما تبكيش مثل الحريم". "أنا وأصحاب الحافة، بنوقف جنبك". "طز في بك". "أيش من لوك". "عجلة حق بابور حمول". "فجعتني، شوفني بانتسف من الخوف". "يتحدانحنا النينو". "علمنه الكدب". "على هدرة. عادك باتهدر".

قبل الحرب كان يمكن أن يسأل نفسه، كيف لكل هؤلاء أن يجدوا أعمالاً؟ اليوم سيسأل نفسه أيضًا، لكن سؤالاً معكوسًا، إذ إن الأشغال موجودة، أكثر من البشر أنفسهم. ينهض أحيانًا في

لحظة ليقول نصيحة لأحدهم، وقد يشارك أشخاصًا الكلام ليصحح لهم أمرًا ما. يتملى فيهم، حَمَّالون، حرفيون، باعة في متاجر، بائعون جوالون، بناة، حرّاس في ورش ومستودعات، وبعضهم بحارة. يعثرون على أنفسهم يعيشون تجربة جديدة بالمرة، حين ينتمون إلى نقابات تدافع عن حقوقهم، وتجبرهم أحيانًا على الإضراب إذا لزم الأمر. تأخذهم عدن بالكامل، تنسيهم حبيباتهم وأسرهم وتزج بهم في حياة أخرى تشبه الأحلام، هم القادمون من أماكن بعيدة عن كل شيء، لذلك لا غرابة أن يعتقد بعضهم، أن من يدخل عدن لن يكون سهلاً عليه الخروج منها ثانية.

سيدير قاسم رأسه إلى طاولات أخرى، وسيحمل له الهواء الرائق في يوم خريفي، كلامًا كثيرًا. وسيرى زبائن يلعبون الدمنة وبعضهم الورق، وآخرين يصعب حصرهم، يتحلقون حول محمود، يلبس بنطلونًا أسود وقميصًا أبيض وسترة داكنة، وينتعل جزمة سوداء بمقدمة طويلة، ويلف عنقه بمنديل أزرق منقّط. يراقب الزبائن حركات يديه، وطريقته في مسك الجريدة وقلب صفحاتها، ثم كيف يشعل سيجارته. عرفوه شخصًا يجيد الإنجليزية بطلاقة، يثير فيهم الحسد والإعجاب معًا، يترجم لهم أحيانًا الأفلام، فيما يشبه المشاهدات الجماعية، وحينًا يحكي، بخبرة العارف، عن الحياة في لندن، وعن طباع البريطانيين داخل عدن. يقرأ لهم أخبار الفنانين وإعلانات الجديد في الأسواق، من مستحضرات وأجهزة وغيرها: ذا كينج سايز. سيقرت أوف ناشيونال سوكسس. ذا

بست سيقرت إن ذا ووارلد. راديو باي. خير الأجهزة للمتعة. بيكاجي كاواجي. التواهي. ينزل محمود الصحيفة ويحدق في تعابير وجوههم المأخوذة، ويعود إلى القراءة: غادر عدن الفنان محمد مرشد ناجي إلى تعز في يوم الجمعة المنصرم لقضاء بعض الشؤون الخاصة. سفراً سعيداً وعودة حميدة. مشروب الضيافة. بيبسي كوكالا لذيذة ومنعشة.

ما إن يأتي حتى يسارع العمال الانتقال إلى جواره، انتبه قاسم باكراً لما يمارسه عليهم من طغيان، فخصه ببعض الامتيازات. تعلم محمود الإنجليزية في مستشفى عفارة، الذي أنشأته البعثة التبشيرية كيث فالكنر في الشيخ عثمان، وبَنَت فيه أيضاً مدرسة ووفرت فرقة موسيقية وكنيسة صغيرة وناديًا رياضيًا ومكتبة، ثم أكمل تعليمه في مدرسة جوزيف، وأصبح موظفًا في شركة بريطانية للشحن.

يترك قاسم أصابعه ترافق إيقاع أغنية جديدة. الأسطوانات الحجرية تملأ درجًا بجواره، تتبدل الأصوات، أبو بكر سالم بلفقيه وأحمد قاسم والعطروش ومحمد سعد عبدالله وأحمد يوسف الزبيدي وفضل اللحجي وحسن عطا، يسكتها عند أوقات معينة، لسماع نشرة الأخبار من إذاعة b.b.c وإذاعة عدن أو صوت العرب، وفي أحايين كثيرة إذاعة صنعاء. قال لصديقه إنه غالبًا ما كان يسأل نفسه، عما قد تكون آلت إليه أحوال صالح محمد علي وناجي عبد الوهاب ومطهر ياسين ومحمد عز الدين. وتذكر أنه في تلك الأوقات، التي مثلت فيها الحرب تهديداً للجميع، لم تمتد يده إليهم

فقط، إنما أيضًا وقف إلى جانب أسرة بهرام، جاره الهندي، وكان يعمل في مكتب الشركة الألمانية هوفمان هاف، قبل أن يعتقلوا ملاكها، ومعهم العمال الهنود واليمنيون، ويودعوهم السجن. شعر بأن له ضميراً حيًا، وأنه رجل صالح كما كان يريد والده.

وغصبًا عنه تذكرها، متى نسيها أصلاً؟ ومع ذلك داهمته مشاعر عنيفة وتكدر خاطره.

(١١)

قال نجيب فيما تشي ملامحه بما يلزم من صرامة يتطلبها الموقف: "إن انتزاع أظفاري كلها، ظفراً ظفراً، أهون عليَّ من إدعاء قدرة لا أمتلكها. لكن لنكن حالمين، ولتكن أحلامنا كبيرة". وترقبوا أن يعيد عليهم رغبته في تاريخ سياسي وحزبي، وأن ينصتوا له ثانية وهو يتمنى الذهاب إلى شمال اليمن، من أجل الانضمام للجيش الشعبي لمقاتلة الملكيين. بيد أنه نهض وسار إلى آخر البار، لا يزال جديداً ورائحة الطلاء تتخلل المكان، وبدلاً من دخول الحمام، كما اعتقدوا، واصل طريقه إلى الجدار الزجاجي وألصق وجهه فيه.

يشرف البار، الذي يقع في الطابق الثاني لمطعم البحارة، من جهة الشمال على صف بديع من منازل جديدة يسكنها إنجليز وأوروبيون، بشرفات قريبة وأسوار خفيضة، يمكن رؤية أصص الزهور، من خلالها، وأشجار صغيرة بأوراق لامعة، وكراس

وطاولات من خيزران. ومن جهة الشرق يطل البار على ساحل أبين، تتلامع مياهه، يحفها شريط متعرج من الزبد، تطفو فوقه طيور بيضاء، ثم تتشظّى في الأنحاء، وتتخلل شاطئه الساحر، يغصّ بالناس في المساءات والليل، سلسلة من الأكشاك الصغيرة لبيع المأكولات الخفيفة والمقرمشات والحلويات، يليها من ناحية الطريق، رتل من عربات أنيقة تجرها خيول، ثم سيارات صغيرة.

بقي نجيب يحدق قدامه بينما أنفاسه تغبش الزجاج، وتشوش رؤيته الأشخاص على الشاطئ، فتتماوج أجسادهم، في عينيه، تتداخل في بعضها بعض، يدير رأسه إلى الناحية الأخرى، ليتفرج، تلفُّه غيمة من مشاعر متناقضة، على أسر أوروبية وبعض ميسوري المدينة، يأخذون طريقهم إلى مطاعم فاخرة، مثل بالم بيتش، أربيان نايتس، جولدن شيكن.

وأضاف وهو يقعد، أنه يتوق للحظة، التي يقدر فيها أن يعيد صياغة نفسه، خلقها من جديد. ثم عاد ووقف ثانية لكنه لم يغادر الطاولة، إنما حوّل وجهه إلى سعاد، التي تركت يدها لا إراديًا طبق الآيس كريم، "هذا ما نريده، ما يجب أن نرغب فيه بقوة وعلى وجه السرعة، لكن عبر المزيد من العرق، الكثير من العمل". وقال سمير مخاطبًا نجيب، "تتلذّذ منذ الآن بما تسعى أن تكونه". وطلب منه الجلوس، حتى لا يثير انتباه أشخاص قليلين، يجلسون حول طاولات متباعدة. وفتحت سعاد فمها وسمعوها تقول: تصلح قائدًا في معركة". وسارع نجيب في الرد، وكان يستند بمرفقيه فوق حافة

الطاولة، مشبكًا يديه. "لا شيء أبعد عن تفكيري من أن أكون بينكم وكأني قائد ملهم. ما ينتابني، هو ما يشعر به جيل كامل، جيل في لحظة ما من المستقبل، سيأتي من يفكر فيه بصفته صاحب تضحيات جليلة، إذ شقَّ طرقًا وعرة لتمر الأفكار الجديدة في برهة بالغة الصعوبة". ولمس شعره كمن يرتبه.

كان شعر نجيب هو الشيء الناعم فيه، له وجه ناشف وملامح تتحول لعدائية، كلما اشتد النقاش وذهب باتجاه ما يفعله الإنجليز. فيما قال عمر، وهو ينظف عدستَيْ نظارته بمنديل ويعيدها إلى عينيه: إنه يرى الحياة تسير على النقيض من الدعة والهدوء، إلا أنها في تماس مع حيوية الشباب، حتى لو تجلت هذه الحيوية في العنف المفرط. وعاد نجيب ليوضح أنه لا يمكنه أن يرى عدن تسير وحدها، كشيء يطفو منفصلاً عما سواه، "أولئك الذين يريدون أخذها بعيدًا، أو الذين يرغبون في رؤيتها مع بقية السلطنات في إطار اتحادي، لن يستطيعوا عمل شيء، فيما لو وُجد حزب يتميز بالنقاء العقائدي". نظر في وجوههم جميعًا، ولاحت على وجهه ابتسامة صعُب عليهم تفسير معناها. وقال إنه شخصيًا لا يمكنه الانضمام ثانية إلى تكوين سياسي، يكون ضمن رفاقه برجوازي أو متعاون مع الإمبريالية، "معركتنا طبقية، قبل كل شيء. وإذا حلُمنا فليكن الحلم كبيرًا". بدت لهم الجملة الحاسمة التي نطقها أخيرًا، مثل توقيع صغير أسفل جدارية ضخمة.

لم يترك لهم فرصة لالتقاط أنفاسهم، حتى رأوه وهو يتناول

كتابًا صغيرًا، من جيب سترته الخفيفة، التي يلبسها فوق فانيلة زرقاء، ويغرق في القراءة. بعد أقل من دقيقة انتزع وجهه من الكتاب، وقال: إن هذا الكاتب لا ينقل حياة العمال كما هي، إنه يضيف نورًا على حياتهم المعتمة، فاضحًا الظروف بالغة السوء التي يعانونها، رغم كثرة النقابات العمالية. لنجيب نبرة صوت مميزة، تكمن فيها كل شخصيته، كل قدرته على الوجود. كان وجوده يتحقّق بمجرد ما أن ينطق. ولا حدود لثقته بنفسه، وتفاخره بذاته فاق التصور. "سيعلم العدو الليلة ثمن الدم والدموع"، عاد ثانية للكلام: "إذا سقطت أرضًا أيها الرفيق فسيحل رفيق قادم من الظلال محلك". ثم سيصمت قليلاً قبل أن يوضح لهم، في شيء من الخيلاء، أنها أغنية المقاومين الفرنسيين، خلال الاحتلال النازي. وطفق يفتش بين قصاصات وأوراق، مكومة بجوار يده فوق الطاولة، ويرفع صورة من مقال عنوانه "المسيح يتكلم الإنجليزية" ويسأل: من قرأ هذا؟ وأضاف: صدم الإنجليز بجرأته، أذهلهم فاعتقلوا كاتبه.

تلفت يمينًا ثم شمالاً كمن يتفقد الوجوه في المقهى، ثم قال مغيّرًا الموضوع مثل العادة، وتعمّد أن يخفض صوته، بينما يسترق نظرات إلى النادلة الأثيوبية: "الجسد الأفريقي حرٌّ بطبعه، ليس مثل بقية الأجساد. حريته تشع من داخله، وليس من لونه الأسود الذي لا يعني عندنا شيئًا آخر غير العبودية، في حين العبودية لا لون محددًا لها". وأخذ أنفاسًا قصيرة متتالية،

وأبقى السيجارة، بين إصبعين، قريباً من صدغه، فأخذت الأدخنة تتخلل شعر رأسه.

مع أقداح القهوة والآيس كريم والتدخين، تشعّب الكلام إلى الجسد، بصفته مختبراً لبعض الأفكار الجديدة، التي تغزو عدن منذ مدة. ودافعت سعاد عن فكرة التحرر لدى الفتاة، وأنها لا ينبغي أن تذهب بعيداً. وشرحت أن الأفكار نفسها لم تنضج بعد. كانت سعاد فكرت أنها تعيش تحت ضغط الرقابة الداخلية للمجتمع، لكنها لم تشأ عن سابق قصد وإصرار التحرر منها، واعتبرت ذلك ما يميِّزها، ويمنحها تألقها الشخصي. خاضت نقاشات حادة مع زميلاتها في الكلية حول ارتداء بنطلونات الجينز، والتعرف على شبان والجلوس معهم في البارات والمقاهي الحديثة، وحول أهمية أن تكون هناك حدود للتحرر، والانتماء إلى تيار أو فكر معين، ثم الخروج عليهما.

يبدو لسعاد أحياناً أنها لم تجد ضالتها في الأفكار، التي تظن أنها تستهويها، ومكثت طويلاً تفكر أن الجسد الذي تعيش فيه، غير قادر على أن يستوعب الحياة، التي تشعر بها تصطخب في أعماقها. وتحاول دوماً ترجمة إدراكها لأي قضية تطرح للنقاش، بعيداً عن شبهة أنها تتبنى طريقة أحد ما في الرؤية. وجعلت تبلور، هي التي التحقت بالتنظيم السرِّي للمرأة، قبل أن تذهب إلى جمعية المرأة العدنية، منظوراً خاصاً بها، لا لتنفذ بجلدها منه، إنما لتغذي رغبتها فيما أطلقت عليه "التألق الشخصي". وقالت لهم: إنها وجدت

نفسها تنجذب إلى الأفكار الجديدة، منذ اللحظة التي بدأت تقرأ فيها صحيفة الطليعة ومجلة الأمل، وكان والدها يجلبهما إلى المنزل. ولكنها لم تذكر لهم أنها عجزت عن المضي بعيداً في هذا الطريق، واكتفت بترك الشال، أو غطاء الرأس، ينزلق فيرى الناس شعرها، أو تلبس بنطلوناً تحت بالطو ملوَّن، فيما بقي جسدها ينأى، في ممانعة صريحة للتماهي مع أي فكرة جديدة بهذا الخصوص، وإن تصورت أحياناً أنه يقاومها، كلما احتكت عفواً بجسد أحدهم.

وتدخلت فائزة لتذكر أنها تتفهَّم في شكلٍ كافٍ، أنه من دون الجسد الأنثوي، عندما قالت ذلك ارتفعت قليلاً عن مقعدها، كمن تقدم نفسها: "لا أهمية بالمطلق لأي فكرة تحررية ولا وجاهة لها". ونظرت إلى أشواق ثم سعاد، كما لو تستمد منهما العون، واسترسلت قائلة: "لكن ما لم أفهمه أن بعضنا مشغول ببلورة أفكار حول تحرير الجسد، في الوقت الذي خبراته تكاد تكون شبه معدومة حول الجسد نفسه". وهنا أطلق نجيب ضحكة شيطانية، وتساءل: "هل نعتبر ذلك وعداً منك، بمساعدتنا في توفير مثل هذه الخبرة؟". فقط تضرَّج وجه فائزة بالخجل، كانت تلف شعرها بمنديل كبير من الحرير له لون أزرق لماع، لم يبد غطاء للشعر، إنما قطعة مثيرة، منحت وجهها ملمحاً فاتناً للغاية، ولم تندفع إلى الصمت، إنما أضافت: "ومثلما هناك ضرورة لوجود أجسادنا، لتوجد بالتالي أفكار حولها، توجد ضرورة أيضاً لفهم أجسادنا. أنا

مثلاً لم أفهم جسدي حتى الآن، لم أجلس معه كفاية وحدنا. أعيش مع شقيقة لي في الحجرة نفسها، فلم أجد الفرصة لتأمل الجسد الذي يحملني أو أنا التي تحمله". ولمعت قطرات العرق فوق صدرها، نصف المكشوف، تلبس ثوبًا بلا أكمام، خفيفًا وبأزهار ملونة. جمالها فاتن، لعله هبة أمها لها، أمها التي تنتمي إلى واحدة من أقدم الأسر الهندية المسلمة في عدن، فيما والدها يعمل وكيلاً لتاجر من البانيان، يذهب إلى اليمن والحميات الأخرى، لإنهاء معاملات تجارية.

تتعلق نظرات سمير برداء النادلة السمراء، تتخلل الطاولات بخفة، يراها تحني رأسها كمن يتأمل شيئًا، بينما تلتقط أذناها طلب الزبون، وتكتبه أصابعها بسرعة. يتوقف ببصره عند زرار قميصها المفتوح، وهو يطوِّق نهدين متوحِّشين، يتحينان الفرصة لينطلقا. لا تحركه الشهوة إنما المنظر نفسه، الجو العام لمدينة لا تنسى تفصيل مثل هذا، في قماشة حيواتها العلنية والسرية، الليلية والنهارية. وكمن لم يشأ أن يفوِّت الإدلاء برأيه في النقاش، حول علاقة المدينة بالأفكار، قال سمير إن كل ما يتم التعبير عنه من أفكار هنا، لا معنى له من دون اللحظة "العدنية" بامتياز. "من دون هذه اللحظة، التي صنعها الإنجليز لن توجد أية أفكار جديدة".

صوب نجيب نظرة باردة باتجاه سمير ولم يعلق بكلمة، إنما طلب شرابًا آخر وقال: نخب من نشرب؟ تضاحكت فائزة وأشواق، بينما التزم كل من سمير وسعاد الصمت، وقال عمر

"بدأ العرض". يكبرهم عمر جميعًا، أسمر قليلاً بجبهة عريضة وشعر خفيف، ويلبس نظارة لها عدسات دائرية، ومعروف أن والده يعمل سكرتيراً في المجلس التشريعي، وتسنى له الركوع قدام الملكة، خلال زيارتها عدن، بينما تقلده وسام الشرف. وتساءل سمير وهو يغتصب ضحكة: "إلى متى نجلس في مقاعد المتفرِّجين؟". "نخب أحلامنا الكبيرة"، رفع نجيب صوته، ثم بعد صمت قصير ومتوتر أردف قائلاً: "نخب عدن للعدنيين". هنا امتقعت ملامح سمير، وشعر أن نجيبًا وغد. وبدلاً من الذهاب في تعكير مزاج سمير أكثر، بالتلميح إلى أنه ليس من أبناء عدن، طفق نجيب يضحك بخبث، دون أن يقول إنه ضد النزعة العدنية. ثم واصل: "نخب حطام السفن على أسوار عدن، جبال ردفان، ١٤ أكتوبر. نار المجوس، جبل شمسان، صليب النصارى، هلال المسجد، معبد إبراهام ماجن، ساعة ليتل بن، قولد مور، الصهاريج".

(١٢)

كلما وجد نفسه وحيداً، يجهد ألا يتذكرها. وحدق في الوجوه قدامه، لعلها تنسيه وجهها، فتفشل محاولته وتهلّ بقامتها. طالما مشى على قدميه بحثًا عنها. يقر قراره على حارة أو زقاق، ثم ينطلق. لم يعرف قاسم لماذا اختفت ولا إلى أين ذهبت، ولا ماذا كانت تفعل أصلاً مع ضابط إنجليزي شاذ جنسيًا، كما كان يشاع

عنه، لكنه غيّرها ذلك المخنث. سيستدرك قائلاً في نفسه: "مخنث إلا أنه لا يعرف الخجل، وشخصيته كانت حادّة مثل سكين". لم يكن قاسم يجرؤ على النظر في عينيها مباشرة، وكان يشعر أنها لم تعد الفتاة، التي جلبها من بيوت الهوى، البيوت التي رجع ليفتش فيها عنها.

قبل ذلك عاد إلى المعسكر، في اليوم الذي تلا غرقه في البحر من هول الصدمة، وتعلقت عيناه بالفيلا، رأى نافذة مفتوحة والستارة مسدلة على نصفها، وأخذ ينصت إلى دقات قلبه تغطي على الأصوات كلها حوله، وخطر له أنها في الداخل، ومنّى نفسه بالدخول وإقناعها بالذهاب معه. رفض الحرس أن يدخل، ولأنهم يعرفونه، لكثرة ما مرّ بهم يرافقها بإذن الضابط، ترفّقوا به وأخبروه أن الفتاة رحلت فعلاً ولن يعودوا يسمحون لها بالدخول في حال جاءت. لم يطمئنّ لكلامهم وتظاهر بالانصراف، وبقي يطوف حول السور الوطيء، ويرسل نظرات، طويلة متأنية، إلى الداخل، لكن بلا طائل.

إضافة إلى غرابة اختفائها، كان مكوثها كل تلك المدة الطويلة مع الضابط يحيّره. لماذا هذه الفتاة التي عثر على نفسه واقعاً في حبها، يختارها الضابط، لتبقى معه أطول من أي أخرى؟ كان قد جلب له فتيات إلا أنهن لم يطلن كثيراً، عدداً من الأيام ثم يطلب استبدالهن. وكان قاسم يمتثل لأوامره، لا يجرؤ على الرفض، طالما هو يحمي رحلاته الليلية من أجل التهريب، ويؤمن له بضائعه حتى

يتسلمها أصحابها. وظل تعلقه بها مسألة مربكة لم يفهمها، لم يسأل نفسه لِمَ لا يفتش عن غيرها ويبدأ حياة جديدة، لم يستطع إلا أن يواصل البحث عنها. يعتقد اعتقاداً جازما، أن الارتباط بها سيغسل خزيه، ويمحو عاره إلى الأبد. ومتأكد هو أنه لم يحب امرأة سواها ولا يظنه سيفعل.

كم مرة وجد نفسه في ذلك الحين يصيح في البرية، خلال إحدى رحلات التهريب، أو حين يصحو مفزوعًا من منام ثقيل، "أنا لست قواداً، أنا تاجر أخشاب". يصيح بصوت، تصوره خشنًا وقبيحًا، إلا أنه لا أحد سواه يسمعه. في الأيام الأولى كان يذهب صباحًا للبحث عنها، ولا يعود إلا بعد حلول المساء. فيما بعد خصص ساعات محددة، لا يفرّط فيها، وبقية الوقت للمقهاية من أجل تطويرها. سار طويلاً في شوارع خور مكسر والمعلا والتواهي وكريتر. مشط شارع الطويل كثيراً، عندما سمع أن امرأة لها مواصفاتها تسكن في إحدى الحارات القريبة منه، قبل أن ينعطف إلى اليمين، يترك صيدلية لقمان، ويسير أقل من خمسين متراً متخطيًا مسجداً صغيراً، شيِّد حديثًا، ثم دكانًا لبيع صور المشاهير في الفن والسياسية، ويتوقف عند ثالث باب إلى اليسار. لا يسمع أحداً في الداخل. يجرب أن يقرع ثانية. أيضًا الباب لا يفتح. يستعد للانصراف، لكنه يبقي ويصرُّ على أن يدق الباب بكلتا يديه. يعود اليوم الثاني، يضاعف المسافة التي قطعها بالأمس، وبدلاً من الانعطاف يمينًا ثم يساراً، سيمضي إلى الأمام، يتجاوز مبرز دار

البعث، ويترك نادي رايس الرياضي إلى يمينه، ويبقى ماشيًا إلى أن يحده صف من المنازل، ثم لا يدري أيها إذا ما دق بابه، سيفتح ويعثر عليها أخيراً.

تنبثق في كل لحظة، ترتدي ثيابًا جديدة ويمتلئ المكان برائحتها العطرة. يفقد تركيزه في الوجوه أمامه، فيغمض لبرهة عينيه بقوة. لا يمضي يوم من دون أن تتسلط عليه فكرة حولها. لا يتوقعها تعمل سوى في مدرسة إنجليزية، أو مؤسسة لها علاقة بجماعة تبشيرية، أو تدير محلاً خاصًا بها، ثم يعد خطته للعثور عليها. وحين يعود إلى المقهاية كسيراً لا يبقى واقفًا في مهب النظرات. يقتحم حجرة داخلية منكسًا رأسه، كمن يخبئ شيئًا ولا يريد لأحد أن يراه. يصب ماء من برميل في وعاء بلاستيكي، ويغطس وجهه فيه، يغسل إبطيه من العرق، ويمسح صدره وعنقه.

يراقب قاسم العمال والزبائن، وهم ينظرون إلى الشارع الطويل، إلى المحال على جانبيه، تعرض الأجهزة الكهربائية ومستحضرات التجميل والملابس والعطور، فيتصورون أنهم يعيشون معجزات تتوالى ولا تنتهي. طاب لهم تسمية كل معجزة، بالعام الذي تظهر فيه. في رسائلهم إلى أهاليهم، والتي لن يكتبوها هم أنفسهم الأمّيون الذين يجهلون القراءة والكتابة، سيحكون عن التليفزيون والسينما والكاميرات وأجهزة التكييف والثلاجات والبوتجاز والسيارات والنساء الشقراوات اللاتي يقدنها، كما لو عجائب جديدة يكتشفونها في الدنيا. سيكتبون لهم أيضًا عن مشروب

الكوكا كولا والجرين فروت والكندا دراي، وسيتباهون كثيراً بأنهم يعرفون هذه الأشياء، وأنهم جربوا طعمها بأنفسهم. تتوه نظراتهم في الميدان يزدحم بالبشر، بحجاج باكستانيين، ينامون الليل في الساحات، وفي النهار يبيعون الحلويات والبالونات الطويلة الملونة للأطفال، يشكلون منها زهوراً وورداً قبل أن يذهبوا إلى مكة سيراً على الأقدام. وفكر قاسم أنه مثلهم، أولئك العمال الذين يعودون، بعد انقطاع طويل عن عدن، قلما كان يفكر في أن التغيير سيطول أشياء كثيرة.

"عدنا إلى البلاد"، قال مطهر، "بعد أيام من قيام الحرب العالمية الثانية". وراح يشرح لقاسم كيف بقوا في صنعاء كل تلك السنوات رغماً عنهم. انتهت الحرب في عام ١٩٤٥، ثم اغتيل الإمام يحيى عقب ذلك بثلاث سنوات، أي في ١٩٤٨، ولم يفكروا في العودة ثانية إلى عدن. ومكثوا طوال حكم الإمام أحمد حتى وفاته واندلاع ثورة سبتمبر ١٩٦٢، وانخراطهم فيها، ثم كيف انسحبوا من القتال في الثورة، التي بقيت مستمرة بلا نهاية واضحة، عندئذ لم يعودوا يتحملون صنعاء، ففروا إلى هنا ثانية. "لكن عدن تغيرت"، أكد مطهر.

كان الشاب الذي خبره قاسم فيه، لا يزال يلمحه وراء شعر أشعث وملامح متهدمة. "روح جديدة، ما تحتاج إليه هذه المدينة"، عبارة سمعها قاسم في ذلك الحين، بعد انتهاء الحرب العالمية، ولم يفهم يومها ما تعنيه على وجه الدقة. لم يهمه أحياناً أن يكون تاجراً

مثلاً، رغم أن غير ذلك يجعله محرجًا من أبيه الميت، الذي باع دكانه وسلّمه مدخراته، ليبدأ فصلاً جديداً في الحياة. ما يؤلمه اليوم، وكل يوم، أنه إذا كان جسده نجا من الغارات الإيطالية، في تلك الليالي الصعبة، فإنه خرج من الحرب مجروح الضمير، وبروح مثخنة بالعاهات.

ينظر حوله ويزيد يقينه، أن الورشة الكبيرة التي تحولت إليها عدن، بعد الحرب، لا تزال مفتوحة. نشاط محموم لا شيء يستطيع الوقوف في طريقه. يتواصل الضجيج الليل مع النهار. سقالات مشدودة في كل بقعة، آلات تدلى مثل خطافات كبيرة. وسع قاسم بالأموال، التي جناها من عمله خلال الحرب، مرافق المقهاية، التي اشتراها من الحاج عبده، قبل أن يسافر ليموت في قريته، كما قال لهم يومها. شيد فوقها حجرتين طويلتين، وملأهما بالأسرّة، وأجّرهما من العمال، جعل فيهما نوافذ كبيرة، تلطّف الجو وتهب المكان طراوة. بدّلَ تلك الطاولات البدائية، والمقاعد غير المريحة، بطاولات وكراسٍ حديدية محدبة. جدران المقهاية جدد دهانها، وزيّنها بأحدث الصور للفنانين والفنانات من مصر والهند، وصورة كبيرة لجريتا جاربو في لقطة من فيلم كازبلانكا، وأخرى لمارلين مونرو وهي تتشبث بفستانها، أعطاهما له محمود. مراوح في السقف وأخرى في الزوايا، تشتغل طوال النهار، وفي المساء ترشُّ أرضية الساحة قدام المقهاية، وتخرج الطاولات ويفتح التلفزيون، معجزة العام ١٩٦٤، ويتسمّر قدامه الزبائن، غير مصدقين البرامج

والمسلسلات التي يبثها. لائحة المشروبات دخلتها أنواع أخرى. ولم تمضِ أعوام قليلة حتى استأجر دكانين كبيرين وحوّلهما مطعمًا، جلب له طاهيًا هنديًا وآخر يمنيًا. نجح المطعم وعاد عليه بأرباح لم يتوقّعها. في أثناء كل ذلك، تزوّجت إحدى أختيه وانتقلت إلى عدن للعيش مع زوجها، الذي يعمل في شركة توريد القات المحدودة، بينما بقيت أخته الثانية التي تزوّجت أيضًا لكن زوجها مات، وترك لها ثلاثة أبناء وبنتًا، وهم يعيشون مع أمه التي يزورها مرتين في العام، مرة في عيد الأضحى، والثانية يقضي معها ثلاث ليال من شهر رمضان، ليس أكثر، ثم يعود حيث تكون المقهاية عامرة بالزبائن، الذين يسهرون إلى وقت السحور.

رغم كل ذلك، حياته ظل ينقصها شيء ما.

عرض على مطهر أن يختار العمل في المقهاية أو في المطعم، لكن مطهر الذي يعرفه منذ أن كان فتى يافعًا، يعمل في محل لبيع الأقمشة في سوق البز، طلب أن يعمل بعيدًا من هنا، فوعده أن يكلم له تاجرًا حضرميًا يتاجر في البخور واللبن. وغادر مطهر متأكدًا أنه سيحصل على ما طلب.

بقي قاسم يلفّه حزن خفيف. لا، ليس حزنًا، ما يلف حياته منذ أعوام، بقدر ما هو فقدان الأمل، الذي له طعم أقسى من أيّ ألم في الوجود، ذلك ما يقوله لنفسه. قدَر من نسيان، دُفع إليه دفعًا. لم يكن له أن ينساها تمامًا، إنما شغله التغير الذي طرأ على الأشياء كلها. ثم مات السيد حسين، أسلم روحه وهو في الطريق إلى

المسجد لصلاة الفجر، وجدوه مستنداً إلى جدار في أحد الأزقة وقد فارق الحياة. تعوّد الذهاب إليه في منزله، عندما لزمه ولم يخرج، لا بسبب المرض والعجز، إنما تبدّل طبائع الناس ورؤيته للبارات والأندية الليلية تنتشر في كل مكان، كل ذلك دفعه إلى الانزواء حين عجز عن فعل أي شيء. لم يهدأ في تلك الأزمنة حتى مَنَع الحفلات، ومنها رقصة الساب الصومالية، بسبب الاختلاط الذي يشيع فيها. كان من الداعين إلى تأسيس جمعية منع المسكرات العدنية. وقاد مظاهرة إلى مكتب الحاكم، وسلمه مطالب بحظر الزار وبيع الكحول والمخدرات، وعدم منح المسلمين تصاريح لبيعها. وافقت الحكومة على منع بيع الأفيون والجانجا إلّا باستشارة طبية، وتم نقل ممارسة الزار من مستعمرة عدن، إلى دار الأمير ولحج، وأوقفت رقصة الساب. قبل السيد حسين رحل صديقه عنتر، سَلِم من السل الذي أزهق أرواحًا كثيرة تفوق الحصر، فالتهمه الحريق الذي اشتعل في أسواق كريتر. قالوا يومها إن البلدية دبّرته لتعيد رسم ملامح المدينة التي أصبحت قديمة.

قبل المنعطف الذي آل إليه، عاش قاسم طويلاً متمسّكًا بخيط، ربما يقوده إليها، يتمسك به كل يوم، تمر أربعة أسابيع فيكون شهر، يمضي اثنا عشر شهراً فتصبح سنة، وهو يتتبع الخيط، يجوب الأمكنة مكانًا فآخر، علّه يدق يومًا بابًا فيفتح لتفيض أمامه بجسدها ورائحتها، بوجهها الذي أسره طويلاً. كل يوم كان يذهب يفتش عنها، يعيش قصة جديدة لحياتهما معًا، كيف يجب أن تبدأ،

ما الذي يتعين عليه تعويضها، ماذا يفعل لينسيها حياتها الماضية وراء أسوار معسكر يقطنه كبار الضباط في الجيش البريطاني، داخل فيلا جمعتها بذلك الضابط. ولا مرة خطر له أنها كانت سعيدة، حتى وهي تعيش حياتها لا بصفتها زوجة ولا أيضًا خادمة، كما لم تكن خليلة.

إلا أن الخيط سينقطع فجأة، فلا يعثر سوى على نفسه يتخبط في ظلام ليلة، مرت فيها نظراته فوق كل تفصيل في وجهها وجسدها. الليلة التي سيعبران فيها طريقًا ترابيًا، تحف المياه بضفتيه، وتداهمهما غارة إيطالية، فيختبئان أسفل الطريق، وسيسمع دقات قلبها، عنيفة، ويهزّه انتفاض جسدها من الهلع. ويتذكرها، بعد أعوام طويلة من تلك الليلة، وهي تقول له في الفندق، حيث كانا يجلسان ويشربان عصيرًا ويراقبان حركة الناس والخيول والحمير خلف الزجاج، أنها ظنت عندما جاء إلى كوخها أنه يريدها لنفسه. كل تلك المدة يحاول النسيان، لكنه يفشل.

أمله كان أن يعثر عليها ليحبها أكثر، ويعيشا معا تحت سقف البيت، الذي اشتراه بعد أن نجح نجاحًا رائعًا في المقهاية والمطعم، وأثثه ووفّر فيه كل اللوازم التي تحتاج إليها امرأة، لتعيش حياة حلوة ومريحة. لم يعش في البيت، وبقي ينام في حجرة داخلية في المقهاية. أن يجدها يعني أن يغسل الوساخة، التي طالما شعر بها تغمره، ويتخبط فيها ليل نهار. لم يسامح نفسه، حتى في مناماته، بقي يعيش وطأة ذنب رهيب. كم مرة فكر أنه لا طائل من الاستمرار

في الأمل، أن يعثر عليها ؟ مر زمن ليس قصيراً، قبل أن يخامره الشك في أي جدوى من مطاردة الأوهام. ومضت عليه أوقات كانت الأفكار تهاجمه مثل الوحوش، تنهش إيمانه العنيف بها، تبعثر أحلامه أن يكونا معًا. وولج لحظات قاتمة، لم يعد قادراً فيها على أن يؤكد لنفسه أنها وجدت، وأنه يعرفها وأحبها أكثر من نفسه.

ويتكشف له اليوم أن حياته بلا معنى، فيما لو قرّر حذف الأوقات الطويلة، التي فتش عنها خلالها. حياته ستكون خالية من الحياة، لو أقدم على محو لحظات التوقُّع والترقُّب والشعور بالمفاجأة، وساعات القلق وأوقات الانتظار.

(١٣)

في مطعم يقدم الطعام والشراب، طلب نجيب دجاجًا وصلصة حارة. كان نجيب يأكل بشراهة، ويمص أصابعه بعد كل لقمة. دلف إلى المطعم مجموعة من الشبان، وعلى الفور انضموا إلى طاولتهم، وظهر أنهم يعرفون نجيبًا جيداً، وبنسبة أقل أصدقائه الآخرين. كانوا شعراء ومغنّين جدداً، وصحافيين يديرون صحفًا ناطقة بلسان أحزاب ومنظمات عدنية ويمنية، ومراسلين لوكالات وصحف عربية وأجنبية. يمضون جل وقتهم بين نقاشات لا تنتهي، تشحذها البيرة وكؤوس الشاي وفناجيل القهوة والسجائر، وشذرات مستلة من كتب مفكرين وفلاسفة وكتاب من العالم، وبين التجوُّل في المكتبات وحضور الحفلات السينمائية والغنائية.

يراقب سمير الجميع، يتأملهم بعين هادئة، ويراهم مثله تجذبهم روح المدينة، تملؤهم بالضجيج والعنفوان. كم كانت خسارته باهظة، لو لم تتجه خطواته إلى هذه المدينة بعد موت والده، تلبية لإلحاح جدته، والدة أمه، بالمجيء ليؤنس وحدتها. يتأكد له اليوم، أنه إذا كان ولد في الحديدة، بلاد أبيه، فإنه لم يتعرف على نفسه سوى هنا، المكان الذي أورثته إياه أمه قبل أن ترحل. يميل برأسه ويروح يحملق في عمل فني جداري، عبارة عن سلم حديدي طويل، يجهد شخص نحيل، عاثر الحظ فيما يبدو، في صعوده، ولا يبدو أنه ينجح في بلوغ نهاية السلم.

يسرح وهو يفكّر في أزقة ضيقة متربة تلبدها العتمة في الليل، وتغمرها الرائحة القديمة للسمك في كل الأوقات. يفكر أيضاً في غرفة متوسطة وصالة صغيرة وحمام أصغر، كل منزلهم في الحديدة. ويتذكر بغتة أنه نسي ملامح أمه، لم يعد وجهها يحضر في ذاكرته كثيراً، يتذكر فقط أنها ماتت وخلفت وراءها والده، تنهشه الهواجس والعزلة في تلك الجزيرة. يخمن أحياناً أن والده كان يعاقب نفسه بعد موتها، بالمكوث طويلاً في تلك الجزيرة النائية. ويظن أيضاً أن أباه ذهب للثورة، التي لا تزال مستمرة دون أن يلوح أي ضوء في آخر النفق، بحثاً عن خلاص من التفكير في تركها لهما وحيدين، مثل يتيمين فقدا كل شيء. ويميل برأسه ويرمق نجيب، يراه ولكنه لا يسمع ما يقوله، كما لو أن جداراً من زجاج سميك يستلقي بينهما. يدقق في فمه المفتوح، في الحركات المتوترة تند عن

يديه، في جبينه المقطب. يشم رائحة السجائر، ويرى الأدخنة تصاعد من أفواههم، وتشكل غيومًا صغيرة فوق رؤوسهم جميعًا.

"نجيب؟ لا يعجبني اسمي، اسم لم أختره أنا". واستعاد، مثل العادة، زمام الكلام، يتكلم ببطء ويروح يحدِّق في الوجوه قدامه: "هل تعرفون أن تروتسكي ليس الاسم الحقيقي لتروتسكي، إنه اسم سجَّانه، يا للغرابة! اختفى هو ليشع اسم سجان على العالم كله". تحرك في مقعده، كمن يهم بالنهوض، ثم وضع ساقًا على الأخرى، ومضى يقول: "إذا كنت سمحت لهذا الاسم أن يشاركني حياتي، كل ما مر من سنوات، فإنني ما عدت أحب هذه الشراكة؟". ورنا ببصره إلى سقف البار، بدا مثل من يقلب المسألة في رأسه فعلاً. وقال عمر، وهو يمازح أشواق وفائزة وينظر في البقية، إنه يخشى أن ينتهي الأمر إلى تغيير أمهاتنا وآبائنا، لأننا فقط لم نخترهم. واقترحت فائزة عليه أن يختار اسمًا حركيًا، ويعطي نفسه ما لم يعطه والداه. تلفَّ فائزة شعرها بشال أرجواني، وتظهر خصلات منه، كثيفة يحركها هواء المكيف، إذ جلسوا أمامه مباشرة. "لكن ماذا سيكون هذا الاسم؟". سأل نجيب وبدا متحمسا للفكرة، وسط غيوم من أدخنة السجائر والروائح المختلطة وأنواع المشروبات والطعام وصخب الموسيقى، وابتسامات الفتيات اللائي يقمن على خدمة الزبائن.

وانتبهت فائزة وأشواق إلى وجود شاعر في المجموعة، بدا الأمر مثيرًا بالنسبة إليهن فطلبن منه أن يقول شعرًا. تأمل الشاعر جيدًا

في وجوه الفتيات الثلاث، ولم يقل شيئًا من أشعاره، إنما قال إن الكتابة في شكل عام، تتمنّع عن مجاراة اللحظة المسكونة بالضجيج والمفعمة بالحماسة التي تميز عدن. وأضاف، بينما يسند ذقنه إلى كفه، ويبرم في الوقت نفسه كوب البيرة على الطاولة: "كأنما رضيت لنفسها أن تبقى بعيدة عن التأثيرات". وذكر وهو يتفادى النظر في وجوههم، أنهم مفعول بهم، وليسوا فاعلين. وواصل الشاعر قائلاً إن الشعر المتوهّج يبقى ماثلاً بقوة في المتنزهات البحرية والشوارع المعبدة والفسيحة، في البنايات الأنيقة والأندية الليلية والكازينوهات. وهنا تنحنح وخطف نظرة إلى الفتيات، ووجده يحاول، بطريقة تنجح وأحيانًا لا تنجح، في أن يقول كلمات إضافية، ثم سكت برهة قبل أن يضيف: "إذا كانت هذه الموجودات شعرًا، فمن المؤكد أن الذي كتبه هو الإنجليز". ووجد سمير نفسه يوافق الشاعر بقوة على ما قاله بخصوص الإنجليز. وزاد إصرار الفتيات على أن يقول شيئًا من شعره. وقاوم رغبتهن، وعندما أذعن أخيرًا، وقال مقاطع صغيرة، لم يكن متأكدًا أن الآخرين سمعوها جيدًا، فتضرّج وجهه بالخجل.

ابتلع المراسل الصحافي فيهم جرعة كبيرة من كوب البيرة، وقال إنه في كل مدينة توجد لحظة يصبح فيها التفكير المتطرف ضرورة، وأن التعبير عن الأفكار الصادمة والانخراط في ممارسة سلوك غير شائع، لا ينفصل عن روح أي مدينة تعيش برهتها الخاصة. وتساءل المغني، كأنما هم، الشاعر والصحفي والمغني، بصدد التعبير عن

فكرة واحدة: "هل تساعد عدن على مثل هذا التفكير؟ كم من الأشخاص تتيح لهم إمكاناتهم، التردد على مثل هذه الأماكن؟ ربما الغالبية منا لا تساوره نفسه حتى بالمجيء إلى هنا، أكثريتنا متواضعون إلى حد عدم تخيل أنفسهم، يجلسون في مقاعد مريحة بحشية ناعمة ويحتسون مشروبًا، وينزّهون نظراتهم في المناظر الجميلة حولهم". ورد عليهم نجيب، واتسم رده بالصلافة، عندما قال: "كل ما تقولونه مجرد طيش، يعبر عن نفوس مستلبة. هذا سلوك أرعن لتجاوز كل شيء في لحظة واحدة. قلب كل شيء رأسًا على عقب". بدا منفعلاً وكأن الاعتراف بأي دور للإنجليز في نهضة عدن، يسلبه كيانه كله.

"يصعب عليّ الادعاء أن عدن، في هذه اللحظة الفارقة، هي لنا"، قالت سعاد بينما تتأمل الأناقة المفرطة لإحدى النادلات الأثيوبيات. وتذكرت أن اليوم السبت. وعاد الشاعر ليضيف، "ومتى كانت لنا؟ من المؤكد أنها للإنجليز وبس". "للإنجليز والعدنيين"، قال عمر، ثم استدرك موضحًا، "طبعًا العدنيون، أعني بهم الهنود والصومال والفرس وبقية الأوربيين. "إذًا من نكون؟" سألت فائزة، وكأنما هي بصدد عينة غريبة من البشر، تواجه تهديدًا محتملاً من جهة غامضة. وقع السؤال عليهم كان ثقيلاً. "أكثرية لا تأثير لها، أكثرية معظمها عمال أميون. أولئك هم من يديروننا، ويضعوننا في المكان الذي يعتقدون أننا نستحقه. إنهم يعزلوننا، حتى عندما نكون بينهم، لا يمكن لهم أن يسمحوا لنا بأن نتخلل حياتهم، إنما نعيش

على الأطراف فقط" ، أجابها نجيب وجعلت ملامح وجهه تنم عن خذلان وضيق.

"ماذا فعلنا نحن لنكون عدنيين ، وفق الفهم الإنجليزي لعدن؟ لا شيء" ، تساءل سمير ورد على تساؤله في الوقت نفسه ، "كلنا نريد أن نكون ذلك العدني ، الذي يرضى عنه الإنجليز ويقربونه منهم ، وإلا ما الذي يأتي بنا هنا إلى الأحياء الجديدة ومقاهيها الحديثة. أم أننا نتشبه بهم. سنبقى أميين ، والمتعلم فينا سيسلك سلوك الرعوي والهمجي ، أو المنبهر في أفضل الأحوال" . ووضح عمر أنه قد يفهم كيف يتصرف الهندي والصومالي والفارسي وسواهم هنا ، أنهم يعيشون في وطنهم ، "في حين أننا باستمرار يتملكنا شعور الغريب . ونحن فعلاً غرباء على هذه المدينة ، بما أننا عاجزون عن مجاراتها" .

يراه الشاب وهو يعود وينظر في المرآة، وتتلاقى نظراتهما، فيحرّك الفرنسي جسمه قليلاً في الأريكة، ويسأل: "هل كنت تشتغل هنا عندما جاءت تلك المرأة، رسولة ستالين؟". "بالطبع لا". جاوب نفسه. راقبه وهو ينحني ويتلمّس جبهته ثم شعره الأصهب، المبتل دومًا من العرق، رغم أجهزة التكييف المنتشرة في أركان المنزل.

حدق الشاب في المرآة، كما لو أنه يحدق في شيء غريب، يراه للمرة الأولى. لوهلة خطر له أن المرآة لم تعد مجرد سطح يعكس تعابيرهما، أو يكشف عن محاولة أحدهما سرقة نظرة إلى الآخر. تحولت شخصًا ثالثًا، قادرًا على دفعهما إلى مناطق من الكلام، لم يتخيل هو نفسه أن يخوض فيها يومًا ما معه. كان هذا الشخص، الذي تقمصته المرآة وظهر أنه ينطوي على خبث ومكر، يؤجج مشاعرهما، ينتزع من عمق أعماقهما ما ظنا، على الأخص العجوز الفرنسي، أنه سر أسرارهما. لكن ما كان لهذه المرآة، فكر مليًا، أن تكون كذلك، لولا هذه اللحظة، التي ترمي بظلالها على كل شيء. يتأمل الفرنسي في المرآة، ويتكشف له كم هذا الرجل، الذي طالما تهيب منه، هش الآن وقليل الحيلة. بفضلها، المرآة، لم يعد يشعر الشاب بالحرج مثل قبل. بطل التردد وكف أن تعتريه الخشية، من

التحديق بتصميم في وجه التاجر. تساءلت مرة لماذا يكرهك الإنجليز؟ أصغيت لك في واحدة من حفلات السمر في الشرفة الفسيحة، يتجمع حولك أصدقاء وصديقات، كنت واقفًا على رؤوسكم لتلبية ما تطلبونه بأكثر سرعة ممكنة. نطق من حولك بإجابات كثيرة، لكن ولا إجابة واحدة بدت مقنعة لك. تعرف لعلهم يكرهونك مثلما كرهتك بلادك، عندما سرقت انتصارها في الحرب العالمية الثانية. سبب كره الإنجليز لك، أنك أصبحت إمبراطوراً داخل إمبراطوريتهم. كأنما هم يفعلون ما يفعلونه، منذ أكثر من قرن وعقدين من الزمن، من أجلك. تقطف ثمرة كل ذلك، من دون أن تغادر أسوار مكاتبك وشركاتك. لا تختلف عنهم، ربما أنت خلاصة كل هذا، الإنجليز والفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين والفرس، إلى سائر المستعمرين الذين مروا بهذه المدينة. لكن اطمئن حتى ولو كرهوك، في خاتمة المطاف أنت واحد منهم، صورة لهم، واحدة من صورهم الكثيرة. وإلا ما الذي يجعلك هكذا، في هذا اللحظة، كما لو أنك ريشة في مهب الخوف بسبب رحيلهم؟

ينظر الشاب في المرآة، لم ير الفرنسي. رأى وجهه هو. لا، ليس وجهه إنما وجه الشخص الذي يتركه في كريتر، يتخبط في أزقتها وحاراتها الباهتة، بدا له أنه يهزأ منه، منهما، هو والفرنسي. هز رأسه بحنق، وهرب من نفسه.

يتوغل الليل والظلال تزداد كثافة، بفعل الإنارة الخافتة. التلفزيون يرمش بالصور بلا صوت، و"إيدن كرونيكل"، عدد اليوم

نفسه، ملقى فوق حافة الطاولة. رجوتها ألا تذهب، وأصرّت هي على المضي. يعجبك أنهم يفكرون بك مثل مخلوق أسطوري، صنع مجداً في أرض قاحلة، وأوجد جنة في قلب الجحيم. صيتك يطارد الجميع أينما كانوا، فسعت إلى مقابلتك. رسولة ستالين، هولندية في الأربعين، جميلة وبشعر أحمر. كان ذلك في فصل الشتاء. قلت لها: "جئت في توقيت مناسب، للتو خرجت عدن من الجحيم. كان يمكن أن تذوبي من الحر الشديد وتتلاشي". يراها العجوز، كأنما هي قدامه الآن، في مكتبه بشركة الطيران الخاصة به، في إحدى بنايات الماين روود في المعلا. تفصلها عنه الطاولة المغطى سطحها بلوح زجاجي. ذكرت أنها جاءت من القاهرة، حيث تعمل في سفارة روسيا، وقبلها كانت في ألمانيا، حين كانت تقيم مع جدها لأمها، روسي، يتمتع بغير قليل من النفوذ.

تنهض وتسير إلى طيارة جاثمة، فوق حامل معدني في زاوية المكتب، وقالت بدلال، بينما تحيط بذراعيها الطائرة التي تأخذ وضعية الإقلاع، "هل يمكن أن تقلع بي هذه الطائرة إلى مدينة الإمام المحرمة؟". اندفع تيار هوائي رائق، من النافذة المفتوحة إلى يسارها، فحرك التنورة. ورأيت تكوير ردفيها، بارزين بصورة شهوانية، وحواف لباسها الداخلي، وغرقت في موجة من الاشتهاء. وبخلاف توقعاتك، ستشعر بالدماء تتفجر في أوردتك. هبطت نظراتك المشوّشة إلى قدميها، كانا في صندل بكعب عال قليلاً، وله سيور رقيقة تلتف بين أصابعها، صعدت نظراتك ثانية إلى ما فوق

الصندل، أبصرت ساقيها، أملسين، يفيضان إغراء. كدت تنهض وتجثو على قدميك، وتلعقهما من أصابع القدمين إلى ربلة الساق، إلى ذلك الدغل السري، تغطيه عشبة سحرية.

تدير وجهها في أنحاء المكتب، ثم في الجدار الزجاجي، وترى رؤساء الإدارات من الإنجليز والفرنسيين، يختارهم الفرنسي من خريجي أرقى الجامعات الأوروبية، يدفع لهم المال ليتنازلوا عن حياتهم الرخية، ويأتوا إلى عدن. قالت لك يومها إن للأشياء في عدن ألوانًا كثيرة وصريحة، وأن رائحة التوابل المنتشرة في كل مكان تهيّجها. وطلبت أن تتذوّق طعامًا محليًا. في مطعم كائن في قلب كريتر، عدن القديمة، يديره يمنيان وهندي، طلبت لها كل ما هو موجود في المطبخ. زربيان لحم. صيادية سمك. أرزًا. مطفاية. خميرًا حاليًا. صانونة الهواء، صلصة خضراوات. سمكًا مشويًا مع خبز وحلبة. لحوح. كبد. بيض. عطرية. مرقة لحم. مشبك. سبموسة. باجية. عتر. شتني. عشار. خبز طاوة. رشوش. ملوح. لبنية. بطاط أبو حمر. بينما أخذت تأكل، صممت أن تتناول الطعام بأطراف أصابعها، لاحظت فعل الطعام الحار المليء بالتوابل، وهو يرسم تضاريس خفيفة، حمراء اللون، فوق صدرها، في نقرة ذقنها ووجنتيها.

تيار الهواء البطيء مستمر، فيما يشبه تواطؤ غريب، في تحريك تنورتها، من الحرير ولها لون كحلي، فحدد هذه المرة ملامح فخذيها الهائلين. "كم من وقت تحتاج لتطوف بهما لعقًا وعضًا خفيفًا ؟"،

تساءلتَ في نفسك، قبل أن تنهض وتروح تسير ببطء باتجاهها، وتقول "بهذه الطائرات تغلّبت على وعورة الطرق في هذه البلاد". وتعمّدَت أن تراك وأنت تحدق في نهديها، ثم انتزعت نظرتك التي قدمت عرضك عليها بالنوم معًا، "وصلت ما لم يتصل، سوى بمعجزة" أكملتَ جملتك.

وسمعتك تلح عليها ألا تذهب بنفسها، وأنه يوجد من يمكنه القيام بهذه المهمة على أكمل وجه. ولم تشأ أن تتفهّم مخاوفك عليها، بدت مأخوذة بفكرة أن تزور تلك البلاد، التي طالما سمعت وقرأت عنها. أرادت أن تلتقي ذلك الإمام، سليل الأنبياء ووكيل الله في أرضه، وتسلّمه هدية ستالين شخصيًا بنفسها. عقار جنسيّ لإمام يرى في الآخر تنجيسًا لصفاء العقيدة. لم يقدر بلد على صنع المنشّط، الذي يعيد الشباب إلى الشيوخ، سوى روسيا. وجعلت يديها تستلقيان فوق صدرك، وخيل لك وأنت ترى أصابعها تتلمس حواف السترة البيضاء، فوق القميص الأحمر من القطن، أن مساحة صدرك أوسع مما تصوّرتها من قبل. طلبت منها أن تعطي الرسالة لوكيل الإمام هنا، الذي يوفّر لتلك البلاد ما تحتاج إليه من عدن. صمتٌ قليلاً، الوقت الكافي لتسري كلماتك فيها، ثم أضفت، "بين أن نعيش فكرة بعينها، واقعين تحت سيطرة سحرها، وبين أن تتحول واقعًا، مسافة قد تكون قصيرة، لكن يا لفظاعة المآل، حين لا نعثر على ما غامرنا من أجله". رأيتها تجفل وتفرّ عيناها، إلى واحدة من الطائرات الجاثمة.

"روسيا، بلاد الشيوعية". همس الشاب متعجّبًا ولم ينظر في المرآة، لكن العجوز فعل، ولاحت له صورة الشاب، وأصرّ على أن يراها غير بريئة من الشماتة. مرة أخرى يجده أمام مصادفة غريبة. حياته تنزلق من بين يديه، بسبب أولاد شيوعيين، متأثرين بما تطرحه تلك البلاد، التي أرسل منها ستالين هديته للإمام. وتخيل الفرنسيُّ صحارى من الثلج، تحوِّلها حرارة عدن إلى أنهار جارية. أية صدفة خبيثة هيأتها له ذاكرته مع عنف اللحظة؟ التي تمنعه من مغادرة منزله، ويستجدي شابًا يمنيًا ليبقى من أجل أن يحرسه. ما لم يخطر له على بال، أن ينتزع هؤلاء الفتية، الذين تأثروا بالأفكار القادمة من بلاد الثلوج، مدينتهم، بعيدًا عن أي تصور بريطاني، ويفككون قبل ذلك المستعمرات الأخرى، حول عدن، ويطردون سلاطينها واحدًا تلو الآخر.

حين نطق الشاب عبارته "روسيا بلاد الشيوعية"، كان يفكّر لحظتها في نجيب وبقية الأصحاب، وكيف كانت تلك الأفكار القادمة من هناك تؤثر فيهم، وتطير بهم بعيدًا عن الأرض. إلا أن اللحظة الملتبسة التي يعيشها كل منهما، جعلت العجوز يفهم تلك العبارة فهمًا خاصًا، يعمِّق من تراجيديا النهاية التي تقترحها له هذه المدينة.

لم تخشَ شماتة منافسيك، في يوم ما، فلِمَ لا تتجاهل ما تصوّرته شماتة من الشاب، الذي ربما عليك أن تطمئنّ من جانبه. فهو أيضًا خاسر إذا ما رحل الإنجليز، هكذا فهمت من كلامه القليل. كنت

تحوّل كل شماتة إلى مناسبة للمرح. احتفل أعداؤك بتحطُّم طائراتك، وتعثّر شركة الطيران التي أنشأتها قبل أن تتحول إلى نواة لأول شركة للطيران المدني الحكومي في المنطقة كلها. كنت أول من فكّر في وجود طيران مدني. الأول دومًا الذي يغامر ويقتحم مجالات، تعجز أي مخيلة أخرى عن بلوغها. كنت تشجِّعهم على نزعة التشفّي، تدفعهم بعيدًا لإظهار كم كانوا مخلوقات بائسة من الداخل، مهما بلغوا من الثراء، حين جعلت ترسل لهم زجاجة شراب فاخر، مشفوعة بدعواتك لهم بقضاء أوقات سعيدة. لكنهم لا يكتفون، ويمضون في ملاحقتك بالإشاعات والتهم الرخيصة. مرة اتهمك هؤلاء الخصوم أنفسهم، بدعم الماسونية.

قالوا مرارًا إنك بنيت ما يشبه القصر، أسفل جبل شمسان، قصرًا بطوابق، وحيدًا وسط مقبرة. تردد أنه المقر الرئيس للحركة الماسونية في العالم، تموِّله أنت بإشراف الإنجليز. في جدرانه حفرت أسماء قادة الماسونية. قالوا أيضًا إن ثراءك الفاحش، سببه "البساط السحري"، فأنت من قام بنقل اليهود من اليمن وعدن إلى فلسطين، ثم أنفقت أموالاً على معسكر حاشد أو "الفداء" كما يحلو لليهود، في سبيل أن تفوز بأرباح أكبر ونفوذ أوسع. أشاعوا أنك من يغذّي الحرب بين الملكيين والجمهوريين في اليمن، ببيع السلاح لكلا الطرفين. لم تدحض هذه الأقاويل ولم تنفِ الإشاعات. كنت تصمت ضجرًا أو انشغالاً، بتحويل أحلامك إلى واقع، وفي كل مرة تفعل ذلك تزداد شخصيتك غموضًا في نظرهم.

ولا يعود يهمك إذا ما كانوا يعرفون أم لا، أنك رفضت الغطرسة واستعراض القوة، من بعض أبناء الطائفة اليهودية، تحت تأثير الصهيونية العالمية، هل كان ذلك في بدايات الثلاثينيات؟ وحدك بذلت جهداً في مجلس الطائفة، من أجل أن تبقى العلاقة يميزها التسامح مع العرب. من يتذكر أنك بادرت في ١٩٣٨ باستضافة المجاهدين الفلسطينيين، العائدين من منفاهم بجزيرة سيشل، في فندق مارينا اليهودي، وكيف رفض الآخرون عرضك، وطالبوا بنزولهم في مكان آخر. حتى بعد اندلاع المواجهات، بين اليهود والمسلمين في حفلة الاستقبال، وسقوط قتلى وجرحى، كنت لا تزال تصر على أن أي كلام، عن شعور يتفاقم لدى اليهود بعدم الأمان في عدن، وبالتالي بالكراهية ضد العرب، لا يزال مبكراً. وحين زاد ضغط الترهيب، اقترحت عليهم الهجرة إلى بريطانيا. بالنسبة لك كان الغموض يكتنف، ما يحصل في "أرض الميعاد". وأن تجد نفسك، قبل ذلك بسنوات، في اجتماع يضم زعماء الطائفة ويترأسه بن جوريون نفسه، رئيس الوكالة اليهودية حينها، في منزل المسؤول عن أمانة عدن، وبحضور الحاكم برنارد رايلي، لترتيب أمور الهجرة، لم يعنِ لك ذلك الكثير، ولم يبدُ الأمر بالنسبة لك سوى نزول عند رغبة ميسا، زعيم الطائفة، الذي طلب حضورك. وتردد، لسبب أو لآخر، أن فكرة توطين اليهود في جزيرة سقطرى، ثم التوسع إلى حضرموت، كانت لك. كيف يمكن جلب يهود أوروبيين ليعيشوا في جزيرة هنا؟ تساءلت يومها غاضباً ونافياً تماماً أي

علاقة لك، وقلت إنه كان على وزارة المستعمرات ألا تخضع للجنة التنسيق الخاصة باللاجئين.

في كل الأحوال يدرك هؤلاء أهميتك القصوى، منذ المؤتمر الذي عُقد في القاهرة، هل كان في عام ١٩٢٠، برئاسة وزير المستعمرات ونستون تشرشل والمندوبين البريطانيين في الكويت والأردن وفلسطين والعراق، وأوصى بجدية التفكير في مستقبل عدن. يومها أي تفكير في مستقبل لعدن، لن تتحقق له أبسط صور الواقعية، ما لم تؤخذ أنت في الاعتبار.

يحدق فيه الشاب، لا يرى وجهه إنما صدره العاري، وعنقه الذي يبدو عريضًا في المرآة، يشبه عنق ثور. غلب التعب الشاب ثانية فسها قليلاً، ثم انتفض على تعبه، وبقي يحدق قدامه بلا تركيز. بدأ الظلام حقيقيًا يتدفق في دفعات كبيرة. الظلام الشديد يجعله مندفعًا في مطاردة أفكاره، ويقاوم أن تنتهي حياته، طاهيًا في منزل هذا التاجر الفرنسي، أو بحّارًا فوق إحدى سفنه. كم مضى عليك من الوقت وأنت ساهٍ؟ قطعًا ليس زمنًا يذكر، مقارنة بتلك الأزمنة التي مرت على هذه المدينة، التي آوت قاتل أخيه قابيل، وفيها بُني أول معبد للنار، ومنها تخرج النار في يوم معلوم لتسوق الناس إلى محشرهم. أزمنة تعاقبت وتداخلت مكوِّنة صفحة من التعقيد، بحيث يصعب الوصول إلى نقطة البداية، رأت فيها عدن السفن الشراعية لملكة سبأ تبحر من شواطئها لتجوب الأنحاء البعيدة. وأنصتت خلالها لخطاب الوفد الإمبراطوري الآتي من الصين، يطلب السماح بالاتصال التجاري، ثم يترك هدايا من

الياقوت والكهرمان. ورحبت بماركو بولو، الذي انهمك في مراقبة الخيول، تُصدَّر بأعداد كبيرة إلى الهند وبلدان أخرى. أبحرت باتجاهها السفن الفرنسية والهولندية والدنماركية، لتستكشف وتكتب التقارير عن أحوال المنطقة، وتعقد الاتفاقات التجارية. سخرت أيامها عدن من أسطول البوفقرق، وهو يعجز عن الاستيلاء عليها، فيروح ينتقم بإحراق كل السفن الراسية في جزيرة صيرة. وراقبت بشفقة حاكمها وكيف مضى بقدميه إلى الخدعة، التي أعدها له سليمان القانوني. نظرت إليه وهو يصعد مختالاً إحدى تلك السفن الحربية، فيُشنق فوراً على ظهرها. وحدّقت في أول سفينة بريطانية، هل كان اسمها "أسنشيون"، على ظهرها شاربي ورفيقه، ثم تبعتها زيارة هنري مدلتون، الذي أُسر وأرسل في الأغلال إلى صنعاء. استقبلت الرحالة الشهير نيبور، ثم الأمريكيين الذين أخفقت مهمتهم في العثور على موقع ملائم، ترفع درجة أهميته تجاريًا، ثم قايضوا الأقمشة بالبن والحمص والبخور والمر والجلود وأبحروا عائدين.

وتخيل الشاب ثلاثين ألف حصان وأربعين ألف بعير، تبحر من عدن عونًا لسلطان مصر، عندما حمل بجيشه على مدينة عكا. ويتذكر كيف استسلمت عدن للمعينيين والسبئيين، وكيف بنى الحميريون، الماهرون والمغامرون، صهاريجها، عقب انفجار سد مأرب، الحميريون الذين كان لهم بأورشليم وصور وصيدا الفينيقيتين، اتصال تجاري تتداول فيه الأقمشة الزرقاء والزخارف وصناديق الملابس النفيسة، يصنعونها من خشب الأرز وتشد بحبال

مجلوبة من عدن، التي أوغل إليها أيضًا نبوخذ نصّر قاطعًا بلاد العرب، ثم دخلها من الحجاز من طريق الساحل. من اليونان مرورًا بالأحباش والرومان إلى الفرس، كم من الزمن بقيت عدن، تراقب التاريخ وترقبه وهو ينتقل من صفحة إلى أخرى، فوق جغرافيتها التي لم تعرف الخطأ يومًا. يفكر الشاب فيما يجري ويتساءل، عما ستؤول إليه عدن بعد هذه الليلة؟

يبصر في النور الخفيف، إيماءة سخط، جعلت جسد الفرنسي يهتز. "لم يلعب الحظ مع أحد من التجّار، مثلما فعل معي. بدا أنني والحظ رفيقان لا يفترقان". قال العجوز ثم استدرك، عندما لمح عيني الشاب في المرآة تحملقان فيه ببرود: "في الواقع هذا فهم الناس لما حققته، لا يتحدثون سوى عن صداقتنا، الحظ وأنا". يتجاهلون، وهذا ما يثير حنقك، الكلام عن ذكائك، قراءتك الدقيقة للواقع ومن ثم الانطلاق في مشاريعك.

يطارد الفرنسي الشاب بعينيه. تلتقي نظراتهما فيشير برأسه ليأتي. وهو يتملّى في وجهه، ليتأكد أنه لم يكن يشمت، طلب منه أن يُحكم إغلاق الأبواب وجميع النوافذ. لم يعثر في وجه الشاب على ما يخشاه، وقال في نفسه إنه لم يفهم هذا الشخص.

بدوره فهم الشاب ما يجول في بال العجوز، وخطر له أنه هو نفسه، لم يستوعب موقفه مما يجري، وبالتالي جعلهما، سعاد ونجيبًا، يرتابان فيه.

لم تتطلع إلى التألق الشخصي، مثلما تفعل سعاد، ولم تعبّر

يومًا، كما عبّر نجيب مرارًا، عن رغبة في أن يكون لك تاريخ سياسي وحزبي. أبصرتهما وهما يطاردان أحلامهما، وشغفهما اللامتناهي، بالانخراط في العمل الميداني. تفهَّمت تطلُّع سعاد إلى التألُّق الشخصي، باعتبارها فتاة تنزع للاختلاف وتأكيد ذاتها، ولم تنكر على نجيب حلمه بتاريخ سياسي وحزبي، لكن ما لم تفهمه تحوُّلهما إلى خصمين، إلى شخصين، كأن لم تجمعك بهما لحظات رائعة، وخصوصًا سعاد. تطلُّعك الوحيد ورغبتك الأكيدة أن تبقى عدن مفتوحة للجميع، ولا أن تستيقظ يومًا وتجدها تحوَّلت إلى مدينة مغلقة على نفسها. كان الاختلاف مع نجيب بدأ يحتد، منذ أخذت تشكك في قدرة الثوار، الذين يتحاربون فيما بينهم، على المضي بعدن إلى لحظة أخرى من الازدهار. كنت في الحقيقة متشائمًا من فدائيين بدأوا بتصفية بعضهم بعضًا، لا لشيء، كما تظن، سوى من أجل الانفراد بالسلطة. لم يستشرسوا في طرد البريطانيين، قدر استشراسهم في مواجهة أنفسهم.

لا تخشى اليوم من شيء ولا على شيء، باستثناء هذه المدينة، التي لاحت لك من أول وهلة، مثل معجزة حقيقية. ويروح يتذكر ما قالته آيريس له، وهي متعجبة من موقفه تجاه الإنجليز. "كان حريًا بي أن أدرسك أنت، وليس الإنجليز قومي وأبناء جلدتي، أتفحّص أمثالك. أدرس كيف تأتّى لك تكوين موقف كهذا". وأضافت أنه حتى ضمن صفوف الإنجليز أنفسهم "سيوجد من يختلف معك، فكيف بالعرب. في لحظة من صفاء بلّوري، تجد بريطانيًا يجأر بكره

نفسه لأنه بريطاني استعماري، فكيف أمكنك، أسألك ثانية، أن تسير مثل المسرنم، في إثرهم. وألا ترى خطواتهم الثقيلة، تدعس عشب أرواحكم، وتسحق طلائع مستقبل مدينة نهضت من موتها، مثل طائر أسطوري".

لم ير سمير يومًا فيما قالته أي شيء يدعو إلى الامتعاض، بل إنه أحبَّ كلماتها، وخصوصًا عندما وصفت حاله بأنها شديدة التعقيد. فعلاً، يقرُّ في نفسه، بأن موقفه من الإنجليز معقَّد تمامًا، فلمَ لم يتفهمه نجيب والبقية؟ لماذا تعاملوا معه في شكل مباشر جداً، ولم يروا في المسألة أية ظلال أو أبعاد أخرى؟ جاهزون لإصدار الحكم، ليس لديهم الوقت للتأكد، كأنما هم في تمرين قاس، يتطلب مهارة فائقة، على الشك ودفع الآخر دفعًا إلى وضعية الخائن.

كيف لإخوة الكفاح أن ينقلبوا على أنفسهم؟ ما الذي يميِّز بينهم وبين المستعمر في أوج وحشيته؟ عيناي عميتا عن تلمس الفارق، غير قادرتين على تعيين الحدود التي تفصل بين الخيانة ونقيضها، وبين الفدائي وصورته الشاحبة، بين ما يحدث الآن وما سيحدث غداً. هل لن تعود لي سوى الذكريات؟ كان يمكن أن أصمت لو أني خسيس، مثل أولئك الذين يطلق عليهم المشذرون، والذين يطردهم قاسم من مقهايته، لأنهم يشون بالفدائيين لدى الإنجليز. أتوارى في العتمة، وألا أظهر نفسي في النور. على العكس من ذلك، نثرت كلماتي قدام نجيب، نعم قدامهم جميعًا، رصفتها لهم على الطاولة بجوار أقداح القهوة وقوارير البيرة، علقتها بين

أعينهم. لكنهم لم يرغبوا سوى أن يروني متخاذلاً.

يشعر الشاب بالعطش، ينهض باتجاه المطبخ، ثم يتوقف في منتصف المسافة ويعود، كأنما الظمأ تلاشى. قعد في محله وطفق ثانية يراقب الفرنسي. وعى أنه لا يخاف الدم، يهرق في أكثر من مكان، بقدر رعبه من الصمت، خشيته من أن يعود وحيداً تمزقه الهواجس مثل أبيه تماماً.

مراراً تحاشيت التفكير فيما يحدث بصفته نهاية كل شيء، تعمدت إنكار سماعك إطلاقات أو دوياً غامضاً. قبل ذلك حاولت تفادي المشي في شوارع، كنت تعرف أنهم يربضون فيها، ويفتشون كل من يشكُّون فيه، لا خوفاً إنما لأنك لا تريد أن تصدق ما يجري قدام عينيك. كان الواقع يصدمك بالحقيقة، إذا أغمضت عينيك، فستسمع الضوضاء القبيحة، أو تستنشق الرائحة الرهيبة للبارود.

"في الليل كان منزلها منطقتنا المحايدة". ينتزعني صوت الفرنسي انتزاعاً، فأعود إليه، كمن ينهض من رقاد كله كوابيس ومشاهد مفزعة. في الضوء الخافت لم يعد يرى وجه العجوز، يختفي وراء مشاعر وانفعالات غامضة. لا تهم رؤية وجهه الآن، ما يهم أنه رآني هو ثم رأيت نفسي أنا. في حدقتيه لمع وجهي، وشعرت وأشعر بأني أدنو من نفسي، أريد أن أتحسس تلك الملامح وأتبيَّنها. كأنما كنت أنتظر ليراني هو حتى أرى ذاتي، وأعرف كم أن كل شيء حولي غامض ومربك وعلى مفترق طرق.

"كنا نجلب الشراب وهي تعد المقبلات. نشرب كؤوساً متتالية،

ثم نلعب لعبتنا المفضلة نحن الثلاثة. نتخفف من ملابسنا، في ليالي الحر الشديد، تتحول قطرات العرق فوق جسد آيريس إلى حبات لؤلؤ، نلتقطها بلساننا حبة حبة. كنا نشرب الخمر من سرتها، في تجويف إبطيها. ندلق القليل بين نهديها فوق تكوير مؤخرتها، بين ردفيها، ثم ننكب فوقها بلساننا".

يصغي إلى احتكاك جسم العجوز بجلد الأريكة، من مقعده، في ردهة بين المطبخ، الذي له باب خارجي، يتسلل منه حين الانصراف، وبين هذا البهو الفسيح، يرهف السمع إلى تنفُّسه الذي يأتي، بين حين وآخر، في فورات مفاجئة، تندفع في عنف. من هذا المقعد، ومن دون المرآة، لا يتمكن سوى من رؤية مؤخرة رأسه، شعره الأحمر، يبدو مبتلاً من العرق، رغم البرودة التي تضخُّها المكيفات. يراقبه، ضمن لعبة تبادل اختلاس النظر خلال المرآة، وهو يمرر ببطء راحته فوق ذقنه، يتلمسها بأصابعه، لم يحلقها منذ أيام.

يغادر الشاب إلى منزل آيريس، ويراها بعين خياله وهي في ورطة، كيف تتصرف مع الصوفي، خادمها العجوز، الذي يصر على الكلام باللغة الإنجليزية. "هي دزنت لايك ذس كلر. هي لايكس أنديان فود. سم تايمس هي ثووت ذات انجليش بيبل دونت لايك أس". كنت تراقب الصوفي، وهو يعجز عن الكلام عن نفسه أمامها، يجد صعوبة في الكلام عن نفسه سوى كشخص آخر. ليس المطلوب منه أن يتكلم معها بالإنجليزية، إلا أنه يصرُّ حتى عندما عرف أنه يتسبب في تشويش عليها. كلكم، هي وأنت وهو نفسه،

اكتشفتم الأمر متأخراً. بعد كم من الوقت، عرف أنه يتكلم عن شخص آخر، في الوقت الذي يريد أن يتحدث عن نفسه؟ وأنه، في الواقع، كان مثيراً للسخرية. كلامه عن نفسه بصيغة الغائب لم يحير آيريس فحسب، إنما أعاد إليها صورة الباحثة التي كانتها، ثم تناست أمرها، مع مرور الوقت. الباحثة التي جاءت لتُخضع بني جنسها من الأوروبيين للتأمل والدرس. وفكر الشاب لو قدر لنجيب أن يعرف الصوفي، لاعتبر حالته صورة من صور الاستلاب والتماهي في الآخر، طالما هو يصر على التخاطب مع سيدته باللغة الإنجليزية، بهذه الصورة الغريبة. وتساءل الشاب عما يجعله مختلفًا عن الصوفي، لناحية ضعفه إزاء كل ما هو إنجليزي.

مراراً سمع تذمُّر الصوفي من أنها تتصرف وكأنها لا تراه، وأنها تخطر أمامه شبه عارية، كأنما هو ليس رجلاً، يمكن أن ينقضَّ عليها. قال لك إنه لا يشعر بوجوده قدامها، سوى حين يحاول أن يتكلم لغتها، وعندما يتكلم تلك اللغة، لا يعود يهمه هل هو ينطقها بطريقة سليمة، أم غير مفهومة، المهم أن يبقى يرطن بتلك الكلمات الإنجليزية. لن تزعم أنت أيضًا أنها تراك، أحيانًا لا تدعك حتى تكمل درسك، تترك وحدك مع قواعد اللغة العربية، وتنهض وتبقى تتمشى، أو تجري اتصالاً هاتفيًا، ثم تعود كأن شيئًا لم يحدث.

يرنو إلى العجوز ويتبادر إلى ذهن الشاب، أنها لا بد أن تكون الآن قريبة من الميناء، لم تقل آيريس إنها ستعود إلى لندن. كانت عبَّرت عن رغبة في أن يكون معها، خلال تلك اللحظة، يرافقها في

السيارة، لحظة تعبر كل شيء، باتجاه طريق العودة. وسكت يومها، لم يقل للإنجليزية إنه ينبغي عليه المكوث بجواره، لم يبح لها بأن التاجر، الذي ملك البحر والبر والجو أيضاً، أضحى خائفًا، يخشى اقتحامهم منزله في أية لحظة. لن يقول له إنها تغادر في هذه الساعة، فلن يستطيع عندها أن يتنبأ بردة فعله.

"سيتركون لكم مدينة جديدة، وسوى ذلك لا شيء". سمعها تقول، بينما كانت السيارة تعبر بهما المايين رووود في المعلا باتجاه مطعم المطار. عيناها تنظران أمامها، كمن يحدق في كل شيء، إلا أنه في الوقت نفسه، لا يرى شيئًا. "ربما أنت لست معي"، خاطبته ثانية. "تركوا لنا مدينة جديدة، لكن ماذا سنأخذ نحن منهم، ما الذي إذا ما أخذناه ستبقى هذه المدينة مشعة، إلى ما لا ندري من زمن. أتصور أننا لا نعرف ماذا نأخذ، ولن نعرف حتى قيمة ما سيتركونه لنا. مئة وثمان وعشرون سنة، هل يمكن أن تتلاشى هكذا، من دون أثر يبقى طويلاً، مثل ضوء يروح يحفر في تلال الظلام والصمت إلى ما لا نهاية". لم تُصغِ إليه لأنه كان يتكلم في نفسه. والتفتت إليه ورأته يميل برأسه إلى النافذة وعيناه زائغتان، فيما تعبر بهما العربة، كأنما في رحلة مجهولة لا نهاية لها.

(١٤)

"متى يمكننا القول إن المسألة أخذت حجمًا ليس في وسعنا تحمُّله؟ في أي وقت نعرف أنه لم يعد في مقدورنا الاستمرار؟". يتحاشى نجيب أحيانًا النظر في الوجوه، يخرج الكلمات ضاغطًا على كل كلمة، وكأنه ينتزعها انتزاعا. تشنجات يديه تبدو في نظر سعاد، عدم قدرة أن يقول ما يريده من دون مساعدة يديه، وفكرت أن تحصي المرات التي فعلها ويداه ساكنتان على الطاولة. "أتطلع إلى القطرة الأخيرة. ما إن تلمس سطح الحوض، حتى يفيض كل شيء".

تصغي سعاد وتتجول بنظراتها فيما حولها. ولا تشعر بأن أفكارها عن الحياة، حتى تلك التي تعتبرها أمها متطرفة، هي نفسها. ما يشبه المراجعة تبدأ رغمًا عنها. في كل مرة يلتقون، تعود إلى بيتها صامتة، تترك نفسها للزحمة تأخذها إلى منزلها، زحمة الناس والشوارع والحَرّ والبضائع الجديدة والموسيقى والمجلات والملابس النسائية الملونة في موديلات جريئة، تقدم نفسها على مانيكانات عارية. في غرفتها الخاصة، تفتح النافذة على الشارع، لكنها لا تسمع شيئًا، ليس الضجيج خافتًا في الأسفل، إنما لأنها مزدحمة بفكرة واحدة، تشغل حواسها كلها، كيف تحقق تألُّقها الشخصي. تشم رائحة العرق في جسمها. تدخل الحَمّام وتغتسل

بالماء البارد. تخرج مرتدية لباسًا خفيفًا وفضفاضًا، ترشُّ قليلاً من رذاذ معطِّر فتضوع رائحة حلوة في أجواء الغرفة، تشغِّل المروحة وتبقى ترقبها وهي تدور، تخبط الهواء الذي بدوره يضرب ملابسها المعلّقة، وأوراقها المكوَّمة فوق التسريحة.

"أتصور أنه ليس أمامنا، بعد الآن، سوى الشعور بأن الحق معنا". وراحوا يراقبون نجيب وهو يسدد ضربات إلى صدره بقبضتيه المضمومتين، وقد حنى ظهره للأمام، كمن يحضن شيئًا، "يوجد افتتان في الشعور بهذا الحق، فلما إذن نهدره؟ لمصلحة من التخلي عنه؟ لا قيمة لي من دون هذا الافتتان. إما هو وإما الصمت". مرات يخيل لسمير أن الخلفية الحزبية لنجيب وراء غطرسته، وأنه لهذا السبب يتصوّره يحتقرهم، حين يبدو له أحيانًا أنه لا يتحدث سوى مع نفسه. ومرات يفكر بأنه يستميت لإقناعهم بأفكاره، وكأن مهمَّة غامضة موكلة إليه لجلب أتباع. في كل الأحوال يستأثر بانتباههم، حيويته لا تنضب واستعداده للنقاش لا مثيل له. "معنى الصمت أننا لا نعرف حتى كيف نستمتع بالجنس، أو بمنازلة فتاة، تتفتح حياتها بفضل الكلمات الرنانة، وإن جاءت في شكل تعدٍّ على خصوصيتها". قال ذلك وهو يحاول النظر هذه المرة إلى سعاد، محاولة قد لا تتعدى في مدلولها، العادة التي درج عليها البعض، أي الكلام والنظر، بلا تقصد، في وجه شخص بعينه، إلا أنها أضرمت الضغينة في داخل سمير، ودفعت فائزة وأشواق إلى مزيد من الحركة فوق

مقاعدهن. ولم تنمّ ملامح سعاد عن خجل أو انزعاج، كونه كان يحدِّق فيها بتصميم.

"أرنو إلى مثل ذلك العواء، تلك الآهة المديدة والحادة، التي تندُّ عن امرأة شارفت على اللذة". ولم ينظر هذه المرة إلى سعاد، معطيًا الشعور بأنه لا يرغب في قول شيء لها تحديداً. يختلط أحيانًا كلامه الشخصي، بمقولات وعبارات قرأها في كتب ومقالات. قرأ نجيب كامو وسارتر فأصبح وجوديًا، وما إن عثر على فرانز فانون حتى تحول مناهضًا للإنجليز، وقبل كل ذلك قرأ ماركس فشعر بأن الماركسية وُجِدت من أجله، وأخذ يتقلب في تياراتها واتجاهاتها.

كان سمير وسعاد ذاهبين إلى مسرح البادري، فشاهدوهم خارجين، انتبه هو لوجودهما فهرع إليهما، ولحقت به الفتاتان وعمر، وأخبرهما أن حفلة المطرب أحمد قاسم ألغيت بسبب تعارضها مع زيارة العيدروس. ولما رآهما صامتَيْن اقترح أن يذهبوا إلى مقهى قريب. لا يشبه هذا المقهى الذي لا يبعد كثيراً عن كريتر، أو عدن القديمة، تلك المقاهي الحديثة في الحي الأوربي، ومن يقومون بالخدمة ليسوا فتيات إنما شبان يمنيون، تبدو عليهم قلة الخبرة، وعدم الانتباه إلى التفاصيل. ولا لوحات معلّقة على الجدران، عدا عمل جداري يصوِّر شخصًا منهكًا يصعد بصعوبة سلالم، لا تقود إلى شيء.

تصغي سعاد وتتأمل الكلام، مع ابتسامة خفيفة، بينما تحرك ملعقة صغيرة في كوب كبير أبيض، وتتفقد الطعم الطيب للقهوة.

ثم رفعت رأسها وقالت إن مقاطعة غير علنية، نفذها خالها، عندما كان يشتغل عاملاً، مع عمال آخرين في ميناء عدن، ضد بواخر الدول المعتدية على مصر، في ١٩٥٦ أثناء مرورها بالميناء، اختزلت كل وجوده. وأضافت في خفر لكن بصلابة وهي تنظر في وجه نجيب، من دون أن تعني شيئًا بتلك النظرة، "لم يعد يشعر بوجوده قبل تلك اللحظة".

شعٌ وجه نجيب بابتسامة غريبة، وعاود النظر في وجه سعاد، وهمس: "الوجود". ثم رنا ببصره، خلال الزجاج، إلى التلال المحيطة، لا تبلغها الأنوار التي تنبثق من كل مكان.

لا يجهل أصدقاء نجيب عمله السابق، في أحد فنادق التواهي الكبيرة، إلا أن واحداً أو اثنين من عرفا طبيعة هذا العمل. في البداية دافع عن الغرابة فيما يقوم به، باعتبار أنها تجربة إنسانية لن تخلو من فوائد. لم يقتنع أحد بهذا الدفاع، وكان يمكن أن يوضح أنه في حاجة ماسة إلى العمل وينتهي كل شيء. عندما انخرط بمثابة عنصر في أحد فصائل المقاومة، وجد تبريراً قويًا أنه يريد التقرب من هؤلاء، دراستهم لتحقيق ضربة في الوقت المناسب، لكنهم مجرد سياح. في النهاية لم يعد أحد يسأله عن الدافع إلى مثل هذا الشغل، الذي لا يتمثل فقط بتنزيه الكلاب في الأماسي ومساعدتها على التبرّز، وأحيانًا غسلها في بقعة قصية من البحر. إنما أيضًا تلبية رغبات بعضهم الجنسية، نظراً إلى ما تظهره ملامحه أحيانًا من وحشية، تروق لعدد من الأوربيات اللاتي ينزلن في الفندق.

وحدث أن ترك الشغل في الفندق، وتعمد أن يعرف الجميع ذلك. ولم يظن يومًا، بينما يتقدم في صفوف الفصيل الذي ينتمي إليه، ويتبنى مواقفه من الإنجليز والفصائل الأخرى أيضًا، أن يجد بين رفاقه من يعايره بأنه غير كفؤ لأي شيء، باستثناء أمر واحد أن يقود كلاب الإنجليز، ويدفعها لقضاء حاجتها في يسر وسهولة. فتش عن سبب يدفعه إلى الانتقام بقسوة فلم يعثر. لم يجد نفسه، هكذا قال لاحقًا، في أطروحات الفصيل السياسية والفكرية، وبالتالي لم تعد به حاجة إلى البقاء ضمن عناصره.

وسمعوا عمر يتكلم ويقول كلامًا مختصراً نسب بعضه إلى فرانز فانون، عن أشكال العنف والقابلية للاستسلام، وعدم الإذعان لنداءات اللذة وإغواء التقدم. وتدخلت أشواق وقالت إنهم تأخروا على زيارة العيدروس، واقترحت الذهاب الآن. تخطوا كنيسة القديس جوزيف، في شارع أروى، وشارتر بنك وهبطوا إلى محطة التاكسيات ثم مطعم الاتحاد العربي، وهم يتخللون السيارات والمشاة، سمعوا أشخاصًا يتكلمون، والتفت واحد منهم وألقى التحية على نجيب، عن إقالة رئيس الحكومة الوطنية عبد القوي مكاوي. بلغوا نقطة في الشارع لم يعودوا عندها، قادرين على رؤية وجوه بعضهم. وعلق نجيب قائلاً: "هذا مصير من يدور في فلكهم". ووقعت نظراتهم في اللحظة نفسها، على شعارات تملأ الجدران والأعمدة، قدام المحال، ضد الإنجليز، وشتائم واتهامات من الفصائل المتصارعة لبعضها البعض. "نو فريدوم ويذ أوت بلود". "جهنم للخونة والعملاء". "برا يا استعمار".

المواقف المختلفة من الاحتفال الديني، وخصوصاً أن الدين عائق أمام التقدم، كما يردد نجيب دومًا، لم تمنع عنهم الشعور بسخاء روحاني، يأخذهم بعيداً، كلما راحوا يتخللون حشود المؤمنين، ويرونهم يضرَعون وتتهدّج حناجرهم بالأدعية، طالبين المدد، تغمرهم الروائح الزكية للبخور والأعشاب العطرية، جلبها الزوار معهم. وقالت أشواق إنها تقاوم انهيار ركبتيها أمام الضريح، أو أن تخرّ راكعة بين أحفاد الشيخ، الذي توفي قبل مئات السنين، وجال مدنًا، تاركًا تريم مسقط رأسه، قبل أن يدخل عدن في موكب مهيب تحفّه التراتيل.

يرون الجموع، أتوا من الريف والقرى والمدن المجاورة والجبال المحيطة، يلوّحون بالرايات والأعلام الملوّنة، بينما تتقدم إلى المسجد. يصغون إلى التواشيح والابتهالات بلهجات كثيرة. جاءت الفرقة الموسيقية منذ الصباح الباكر، وعلى صوت إيقاعاتها الشجية، جُلبت الكسوة ووُضعت فوق الضريح، الذي خرّ الزوار عند أسفله، يمسكون بأطراف الكسوة ويبكون. مأخوذين بمشهد الوجوه مبتلّة بالدموع والعرق، واختلاط روائح الأجساد، الشائخة والفتية، لنساء ورجال، أجساد الأولاد والصبايا الصغيرات، أجساد العساكر والموسيقيين، بروائح البخور والعطور القديمة. تخترقهم نداءات الاستغاثة والتضرُّع، وتضرب وجوههم هالات الأنوار، تشعُّ، رائقة، من مصابيح يدوية وأخرى معلّقة في الزوايا، بأخرى تعكسها وجوه نيِّرة، ضارعة وتائهة في ملكوت الله وأوليائه الصالحين. تلفُّهم

سحابة من الأدخنة المباركة، ويرون الألوان والوجوه والرقصات تتداخل وتتشابك. يتخللون المراجيح وصخب الأطفال، ويمرون بباعة القهوة والحلويات والمرطبات الباردة. ويتوقفون طويلاً عند رقصات بديعة يؤديها الرجال والنساء، تشاركهم الفرقة الموسيقية وتحرسهم قوة من البوليس.

اندفاع الزوار فرّقهم، ووجد سمير نفسه مع سعاد وحدهما، وكانا طوال الوقت متباعدين. أخذ سمير يتأملها ويطيل النظر فيها كأنما هو غير مصدّق أنها قدامه مباشرة، كانت تلبس قميصاً ورديًا ضيقًا، تثني كميه إلى منتصف ذراعيها، وتلبس إسوارة من الفضة في يدها اليسرى، زرّان فقط محلولان في القميص، ورأى قطرات عرق تلمع، أسفل عنقها. وشعر بالحاجة إلى أن يقول لها شيئًا، وحاول لكنها جفلت منه. صدمته ردة فعلها الغريبة، بينما يراهم يخرجون من الزحام، ويخلفونه وراءهم.

(١٥)

شجع ليبان فريقه بحماس شديد وخرج مزهواً، كأنه هو من أحرز نقاط الفوز، وليس فريق الحيدري. لم يخالجه أدنى شك في أنه سيحقق انتصاراً جديداً، في مباريات الهوكي والفوز بكأس بيكاجي. البريطانيون شجعوا راجا رامبور، كانوا يمنّون أنفسهم بأن يثأر لهم، إلا أن راجا رامبور سقط مهزوما. "نعم سقط" قالها ليبان وهو يهز قبضته أمام وجهه، وكأنه يوشك أن يوجه لكمة إلى خصم

شرس وعنيد. يردد دومًا أن الأمر يبدأ فيما يشبه الصدفة، لكن بعدئذ يتكشَّف أنه ليس سوى القدر، "قدري وقدرك" يقول مؤكدًا لقاسم. وأخرج صورًا من جيبه الداخلي، وفرجهم على واحدة له مع لاعب كرة القدم علي محسن مريسي، أول عدني يحترف في نادي الزمالك المصري.

ثابرت أمه، التي ترعاه منذ أن قتل والده في الصومال الفرنسي، خلال الحرب العالمية الثانية، على القول له إنها غير مستعدة لأن تراه مثل معظم العرب، يشغل عملاً متدنيًا، وأنها لا تشاء أن يذهب تعبها في تربية الدجاج والكباش الصومالية، بلا فائدة. غير أن الحال انتهت بليبان، رغم كل شيء، ألا يتخطى في تعليمه الصفوف الأولى، ليجد نفسه يقود العربة التي تنقل الفضلات، قبل أن يعمل طباخًا في إحدى البواخر، بعد انتهاء الحرب، يسافر إلى السودان والصومال وبومباي، ومصر وبيروت وبلدان أخرى. يبدأ يومه بإعداد الإفطار لطاقم الباخرة، بيض وزبدة ومربى مع الحليب وعصير البرتقال. وفي الغداء سيعد لهم الأرز والدجاج أو السمك، أو يطهو الكاري رز مع الزبيب والبساس، ويحلون بالكسترد أو اللبنية.

خطر له ليبان في لحظة معتمة، يعرف أنه يذهب كثيرًا إلى الأحياء التي يقطنها الإنجليز والأوروبيون، ويكاد يعرف بيوتهم بيتًا بيتًا. لم يشأ التسليم بالأمر ونسيانها، منذ متى تحولت رحلة العثور عليها إلى ما يشبه البحث عن معنى لحياته، بل عن حياته نفسها التي تاهت منه، عندما اكتشف أنه لن يكون تاجرًا، في ذلك الزمن

البعيد. فتش عنها حتى في الأحياء الجديدة، التي اضطر الإنجليز إلى إنشائها، لتخفيف الضغط على عدن لتفاقم أزمة السكن، مثل المنصورة والروضة. مشّط شوارع الروضة الثلاثة، الرصافي والرومي والزيتون، وجال في أسواقها ومنازلها من الدرجة "ج"، التي شيدتها شركة ماذر كات للعمال. ولئن لم يعد يعرف أين يعمل ليبان، فإنه لم يكن صعبًا عليه الذهاب إلى المعلاّ، وتخلل حاراتها ثم التوقف عند مقهى، غير بعيد عن حارة الطليان، يؤمه الصوماليون.

قال ليبان إنه بات يحب لعبة الهوكي والكريكت أكثر من كرة القدم، وأنه يمارسها مع الإنجليز والهنود، حين يذهب إلى البنجسار. يصمت قليلاً قبل أن يغير الموضوع ويعود إلى أيام البحر، كان مرتبكًا نوعًا ما وأحيانًا يلهث، فيما العرق يبقع جبهته، وأمال رأسه، بعيدًا عن قاسم، وذكر أنه كان يفضل الفترة، التي تعقب العاشرة مساء، عندما يبدأ الطاقم بشرب الخمر واللهو إلى منتصف الليل. أحب البراندي مارتيل، يباع بخمسة شلنات. أما البيرة أبو بنتين فبشلن ونصف. وأحيانًا يصطحبه بعض أفراد طاقم الباخرة، حين يكونون في عدن إلى بار قهوجي بيكاجي، الذي يشتهر بتوريد خمور فاخرة. ويروح يستعيد الشيف شاندر، الذي يمول الباخرة بالطعام والفواكه والخمور. والشيف أوفيسر، نائب الكابتن، والشيف انجنيير، مسؤول الماكينة.

ترك شاحنة الفضلات، وسيخلف وراءه البحار، ليعمل سائق باص في شركة للتخليص الجمركي، ينقل العمال يوميًا إلى إيدن

دوكيور في المعلا، حيث يتركهم عند الثلاجات الضخمة، التي تخزّن فيها الأسماك بكميات كبيرة، وفي الصباح يرسلونها إلى الأسواق. يرى من مقعده في مقدمة العربة، أماكن ترميم المراكب من أسفل، بعد أن تسحب. يترك شركة "بي بي" البريطانية على يمينه، وهو يتجه إلى منطقة الهلال، حيث شركات السياحة وبيوت الإنجليز والتجار الأوروبيين ومقر السفير الهندي والقنصل الأمريكي ونادي البحارة، والفنادق الفخمة مثل كريسنت هوتيل.

نظر قاسم إلى صبيان يرقصون على أغنية جديدة لمحمد سعد عبد الله، ويترقب متى يفرغ ليبان من الكلام، ويتفرغ له. عندما التقاه الأسبوع الماضي، لم يطل ليبان المكوث، تعانقا بحرارة وعرف ماذا يريد منه قاسم، وانصرف من فوره. لم يشأ قاسم التفكير في أنه يتهرّب منه. كان يمكنه ألا يأتي، قال في نفسه. أخذ ليبان نفساً من سيجار أبو ثلاث جنيهات البريطاني، حرك الكوفية فوق رأسه، وأصلح وضع المشدة على كتفه، وقال وعيناه تدمعان، من قساوة الذكرى، إن والده، الذي كان يعمل حينها في منزل أحد ربانات السفن في التواهي وقبل أن يذهب للحرب، كان يخبئهم في جروف الجبال المحيطة، من الغارات الإيطالية. كان يفتش عن الجروف العميقة، ثم يعود إلى الأكواخ البسيطة التي يعيشون فيها، وتنتشر فوق التلال الجرداء، ليصطحبهم. وجهه الأسمر بدا يعكس احمراراً خفيفاً بفعل التأثر، وهو يقول إن أباه كان يجلب لهم حين عودته من منزل الربان، زبدة إنجليزية لونها أبيض، وليس أصفر كما اعتاد أن

يراها في الدكان، وقطعًا كبيرة من الجبن، وكبدة بقر من أستراليا، وفي أعياد الكريسمس يأتي لهم بقطعة من لحم النعام، الذي تجلبه طائرات خاصة من بريطانيا للإنجليز، مع الكيك والزبيب.

يصغي قاسم ويتساءل في نفسه، عن الأوقات الماضية التي لم يلتق ليبان خلالها. ليست عدن مدينة شاسعة، رغم ما توحي به أحيانًا، فتأخذهما في مشاغلها ولا يلتقيان. وربما، خلال كل تلك الأوقات التي مرت، يكون كل واحد منهما، ليبان وهو، لمح الآخر، إنما ضمن برهة من العيش، أنانية بما يكفي، لأن لا يتعرفا على بعضهما بعضًا، وقد يفعلان ذلك، لكن تكون البرهة نفسها، من الغموض والانخطاف، فلا تجعلهما يسعيان للالتقاء ليردما الفجوة بينهما. لكنهما التقيا كثيرًا فيما مضى، بعد تلك الحادثة التي تورَّط فيها ليبان، مع أفراد إحدى عصابات حافة القطيع، إذ لم ينس ليبان أبدًا كيف أن قاسم خاطر بحياته لينقذه منهم، وكيف أن العصابة، التي كانت تبث الرعب في الحارات خلال ذلك الزمن، توعَّدت قاسم مرارًا إلا أنها لم تمسك به.

عاد إلى مكانه، وبقي ليبان يداري ما يشبه الحرج، بسماع محمود يقرأ لبعض العمال. وحملق في محمود وهو يخرج علبة السجائر من نوع كنت، بيضاء طويلة، يربت بها على طرف الطاولة، ثم يميلها قليلاً ويدفع السيجارة للخروج، يَخرجُ عددٌ منها، يلتقط واحدة، ويستلُّ القداحة من جيبه الآخر. وبحركة سحرية، تشبه تلك التي يفعلها ممثلو السينما، ينطلق اللهب، يقرِّبه

من طرف السيجارة، ثم بالحركة نفسها يطفئها، فينصتون إلى صوت معدني رقيق. يأخذ نفساً ثم يمجه باستمتاع، ويواصل القراءة: بشرى سارة إلى السيدات العدنيات. وصلت الآن أقمشة من المخمل. محلات أكبر علي قمر الدين وشركاه. سوق البهرة. اشربوا جرين سبوت. فواكه طبيعية. مصنع الأمين للتعبئة. أول مصنع عربي وطني في الجزيرة العربية. احتفل قبل أيام بعيد الجلوس عظمة السلطان على كرسي السلطة القعيطية. وقد أنعم عظمته أثناء الاحتفال على الشخصيات الآتية بألقاب الباشوية والبكوية اعترافاً بخدماتهم الخالصة. سعادة السر فننت جلاس المستشار المقيم، لقب باشا. فضيلة الشيخ سعيد الفيدال، لقب باشا. حيدر سالم محمد، لقب بك. الدراجات البريطانية هي الأفضل دائماً. قهوجي دنشوي. إنجليش إليكتريك. شركة بول بس وأولاده. عدن. المحدودة. عرض خاص لبيع ثلاجات صنع الولايات المتحدة الأمريكية. وأنصتوا إلى صوت من خارج الزبائن حول طاولة محمود، يتكلم عن إلغاء الإنجليز لبطاقات تحقيق الشخصية، التي أعطيت لأبناء الشمال، وأنهم استبدلوها بأخرى يصعب الحصول عليها، سوى بعد مضي عشر سنوات متصلة في مدينة عدن. "أبناء الجاليات الهندية واليهودية والصومالية وغيرها يحصلون على الجنسية والجواز، إذا أثبتوا بقاءهم مدة خمس سنوات فقط؟".

لكن الخبر لم يبدُ أنه شغل لهم بالاً، فهم يعرفون أن الإنجليز يلجؤون إلى تدابير كثيرة هذه الأيام، للحد من كثافة العمال التي

تشكل قاعدة صلبة للمقاومة. تأتي مثل هذه الأخبار دومًا من خارج طاولة محمود، فلم يحدث أن أخبرهم مثلاً عن انفصال الجبهة القومية من الوحدة، المكونة من جميع التيارات والأحزاب الوطنية التي تشكلت لمواجهة الإنجليز، ولا ما يفعله الثوار بأنفسهم، وقبل ذلك لم يتطرق أبداً إلى العمليات الناجحة التي نفذتها المقاومة ضد الاحتلال. كان محمود كمن التزم بمساحة مخصصة لا يحيد عنها. وسأل زبونًا عما إذا كانوا سيحتفلون هذه السنة، بميلاد الملكة إليزابيث الثانية أم لا. حتى قبل أن ينتهي الزبون من السؤال، تفجرت أمام ليبان ذكرى زيارتها في العام ١٩٥٤، وكانت للتو تزوجت وللتو أيضًا تُوِّجت ملكة، كما لو كانت واحدة من تلك الألعاب النارية، التي رآها تتشظى إلى نجوم صغيرة مضيئة سماء عدن، احتفالاً بمجيئها. ورأى قدامه استعراضات فاخرة وثارت شجونه وهو ينصت للموسيقى، موسيقى القرب على وجه الخصوص، تنسل رويداً، كأنما من أقصى أعماقه، آتية من ذلك الزمن، اثنتا عشرة سنة ربما ثلاث عشرة سنة، يعزفها جنود يلبسون فوطًا قصيرة ومخططة، مثل التي يلبسها العدنيون، من العرب وأبناء المستعمرات الأخرى، لكنها واسعة من أسفل ثم تضيق شيئًا فشيئًا عند الوسط. قال إنها لم تمنحه ميدالية، كما فعلت مع بعض الضباط. ولم تقلِّده وسام الشجاعة، مثلما صنعت مع جنرالات الحرب. وذكر لهم أنه لم يحصل على شهادة الكفاءة في القتال، ولا اقتربت منه ولا ابتسمت في وجهه، كحين رآها تفعل أمام كبار

المستقبلين، الذين كان بعضهم يركع واضعًا إحدى ركبتيه فوق مقعد صغير، لتتمكن هي من تقليده وسامًا. رغم ذلك لم تسعه الدنيا من الفرح، يوم نظر إليها وهي تمر داخل سيارة عسكرية مكشوفة، ولوحت بيديها، كانت تخفيهما في قفازين أبيضين.

قال لهم إنها كانت نحيلة قليلاً، وتغطي شعرها بقبّعة بيضاء. وأعاد على مسامعهم ما كانوا يعرفونه، أنها تجولت في عدن، ووضعت حجر الأساس للمستشفى الذي سيحمل اسمها، وستكون به أجهزة تكييف مركزي، ومعدات طبية متقدمة لم تُعرف من قبل. ولم يذكر أنها أمرت بالموائد في كل مكان، وأن الطعام كان وفيراً ومن كل الأصناف، لأن الجميع تقريبًا حضر هذه الموائد، وأكل كفايته منها. لم يسأله بعض الزبائن كيف رآها؟ هم الذين استحال عليهم، في ذلك الحين، رؤيتها من قرب، إذ لم يجدوا مكانًا يرونها منه، سوى تلك الأخاديد في الجبال والكهوف الغائرة، فانتشروا فيها منذ ساعات الفجر الأولى، ومع ذلك لم يبصروها بوضوح. "ملكتنا إليزابيث" أخذ يردد بانفعال، غير مصدق أنه كان قريبًا منها، إلى حد أن بياض بشرتها كاد يعمي عينيه، كما قال لهم.

حين حدق قاسم في وجه ليبان، وهو يستعد للانصراف، عرف أنه لا يحمل له الخبر، الذي يتوق إلى سماعه. قبل ليلتين عاوده الحلم في القطار، عشرات الأعوام مرت منذ أن رآه أول مرة. وبالعربة نفسها تضمهما معًا. لم يسمع ضجيجًا، لا شيء سوى الصمت. ثم في لحظة ويكونان في البحر، تغمرهما المياه الزرقاء.

يراها تسبح مثل سمكة، أجمل سمكة يمكن أن يراها بشر، شعرها مفرود إلى جوارها، وعيناها مفتوحتان، تحدقان في نقطة بعيدة، ثم يستيقظ.

"سألت كل بيوت الإنجليز التي أعرفها، لا أحد يعلم عنها أي شيء". قال ليبان وهو يتصبَّب عرقًا مثل من يحاول أن يزيح حملاً ثقيلاً عن كاهله. "وطرقت أبواب أوروبيين يطلبون مني خدمات من حين إلى آخر، وأيضًا لم أعثر على ما يدلُّ عليها". واقفين كانا، ومال قاسم بوجهه. لم يعد يرى صديقه، ولا عاد يسمع أغنية المرشدي التي يرقص عليها الصبيان، قريبًا منهما. وخمد ضجيج الزبائن حوله. لم تبدر عن قاسم ردة فعل مفاجئة، كما توقع ليبان، ولا تمّت ملامحه عن خيبة أو تأثر كبير، لوهلة بدت حيادية. وفي الواقع كان قاسم يفكر في أنه جرّب طرقًا كثيرة للبحث عنها، واختبر أفكارًا خطرت له، في كيفية العثور عليها، ما الذي بقي ولم يفعله؟ لن يتوقف عند هذا الحد، قال في نفسه.

يظن أحيانًا أن عدن أصبحت غريمه في هذه المسألة، فهي تتوسع وتتشابك ولا يعود يعرف حاراتها القديمة مثلما كان، كما أنه يجهل كثيرًا تفاصيل أحيائها الجديدة، التي تكاثرت بعد الحرب، الأمر الذي يصعب مهمة البحث. وشمل ليبان بنظرة واحدة، وبغتة انتشر طيف ابتسامة خفيفة على وجهه، لم يكن قاسم يمانع فيما لو ظن ليبان أن الابتسامة من أجله، فهو بذل جهدًا لا بأس به تجاه ما أوكل إليه. إلا أن المسألة تتخطى ذلك، إذ يمكن فهمها باعتبارها

إشارة على أنه لم ييأس تمامًا، وأنه على وشك العثور على طريقة جديدة، لم يجرِّبها بعد.

(١٦)

"يا لتوقي إلى مثل هذه التضحية بالهناءة، في سبيل حياة عريضة للجميع؟". تكلم نجيب، ورنا ببصره من فوق أحد التلال، حيث يصعدون ليراقبوا حركة الشوارع من علٍ، بينما يأخذون طريقهم إلى البارات والمقاهي الجديدة. وأخرج منديلاً وبينما يجفف وجهه وعنقه من العرق، الشارع تحتهم مزدحم بالبشر والعربات. رأى شخصًا يمر ويحمل فوق ظهره لوحًا خشبيًا عريضًا، يعرض صورًا للأفلام التي ستعرضها إحدى صالات السينما. ونظر أبعد قليلاً، عيناه بدتا غارقتين، تلمعان بالأسرار الخفية، فرأى الحاويات الضخمة والبواخر، حولها تبرم قوارب البائعين الجوالين، الذين لا ينتظرون نزول السياح، إنما يذهبون إليهم.

وتوقفوا عند عربة للمكتبة المتنقلة، ترسلها البلدية في أيام معلومة إلى الأحياء، التي لم توجد فيها مكتبات بعد، يقف عند بابها صومالي يلبس زيًا رسميًا، ينتهي عند الركبتين، وفوق رأسه طربوش. صعدوا السلم الصغير، ودلفوا إلى المكتبة، وشاهدوا الموظفة الإنجليزية قدامهم، وهي ترصّ كتبًا في رفوف فوق مستوى قامتها، وأخذوا يفتشون في العناوين بلغات عديدة. امتدت يد فائزة واختارت رواية لجين أوستن باللغة الإنجليزية. وتمنى نجيب لو

أنه يجيد اللغة الروسية، ومع ذلك استعار كتابًا يحكي سير منفيين إلى سيبيريا، قبل أن يحدِّق في اللغة الغريبة عليه. وخطف سمير كتابًا غلافه عبارة عن صورة كبيرة لتشرشل، رافعًا إصبعيه بعلامة النصر الشهيرة. مذكرات أو ما شابه، وطفق يتصفَّحه بحماس. اقترب منه نجيب، وصوّب نظرة إلى غلاف الكتاب، ثم أخرى إلى عيني سمير وقال ساخرًا وهو يشمخ بأنفه من الغطرسة: "أنت تتوحد مع هذا الوجود الزائف. سيذهبون عما قريب، ولن تعود تمتدحهم بعدها". ولم يترك لسمير فرصة الرد، ثم استدار وأخذ يقودهم إلى بار في الشارع، الذي يلي مباشرة صف البنايات الشامخة في الماين روود في المعلاّ.

لا شيء غير مألوف لاحظه سمير، فالمواجهات بين الفصائل، التي أخذت وتيرتها تصّاعد، انعكست بصورة أو أخرى، على نقاشهم. يغيبون طويلاً وحين يعودون للالتقاء ثانية، تجتاحهم رغبة في الخوض في كل المواضيع، كأنما لا يريدون أي شيء يفوتهم من دون أن يعلقّوا عليه، مثل: ماذا قال راديو صنعاء عن رابطة أبناء الجنوب، أو ما التُّهم التي وجهها راديو تعز إلى باسندوه. وبماذا ردت جبهة التحرير على استشراس الجبهة القومية، ودخولها مرحلة التصفية الجسدية لخصومها. وسيصحو سمير على لحظة مختلفة، أخذت تمتصُّهم جميعًا، في ما يشبه المستنقع، ثم تلفظهم واحدًا فالآخر، لحظة طفق فيها كل واحد منهم، عداه هو، يدافع عن أطروحات فصيل بعينه، ويبرر طريقته في الكفاح.

وكمن يفتش عما يتشبث به، فلا يغوص معهم في المستنقع نفسه، تعلقت عينا سمير بشعر سعاد وقد تركت الشال ينزلق تمامًا، لم يعد غطاء للرأس، إنما وشاح تضعه حول عنقها. الهواء الخفيف يبعثر خصلات كثيفة منه، فيما كانت هي ترفع بصرها إلى أعلى التلال، كانت السماء شاحبة، وغيوم قليلة تنحل رويدًا فتكشّر عن شمس حارة، راحت تشوي الأجساد والمخلوقات، فيما يشبه انتقامًا سماويًا، وتشعر بالرطوبة تتحوّل كائنًا لا مرئيًا يتسلل إليها، تحاول أن تعوقه بالضغط على الملابس، لكنه يكتسحها ويأخذ، في سيولة، طريقه، كما لو في مهمة مستعجلة، إلى المناطق السرية من جسدها، أسفل السرة، بين الفخذين، حول الردفين المتماسكين، وفي الإبطين الناعمين.

طلبوا بيرة وقهوة ومرطبات وشايًا وكيكًا. إن المكان هنا أنيق وهادئ، إذ لا يوجد كثير في هذا الوقت من المساء. تواصل النقاش هذه المرة بالسخرية من سعاد، والـ"فايف أوكلوك تي ويذ بيبس أوف كيك"، قالت إن شاي الساعة الخامسة مع قطعة صغيرة من الكيك، "من العادات الرائعة التي أخذناها منهم"، لم تذكر كلمة الإنجليز، ربما حتى لا تُغضب نجيب، ومع ذلك سخر منها واصفًا وعيها بالطفولي، ودلق الزجاجة في جوفه على جرعات كبيرة، وطلب بيرة ثانية، والتفت إلى سمير وقال "هل تعرف أن الإنجليز حرّموا على المعتقلين ضوء الشمس، وأن بعضهم فقد بصره بسبب ذلك؟". راق لسمير أن يكون هو وسعاد معا، موضوعًا لهجوم نجيب. وفكر

في أن ذلك قد يدفعها إلى مراجعة فتورها حياله في الفترة الأخيرة. لكنه رآها تقدِّم له قطعة كيك، وتطلب من نجيب بنبرة متودّدة أن يتذوّق حلاوة الطعم، بدلاً من مرارة البيرة، وفعلاً التقط نجيب الكيك والتهمها دفعة واحدة، وأخذ يهز رأسه، مستطيبًا الطعم. شعر سمير بلسانه جافًا، وتبدت كآبة على وجهه.

وسيحكي نجيب، الذي زحف مع بشر كثرين في ٢٤ سبتمبر ١٩٦٢ أي قبل حوالي خمس سنوات، باتجاه الرابية، حيث يقع المجلس التشريعي، وعبَّر عن رفضه القاطع لمشروع اتحاد الجنوب العربي، وقبلها قاطع انتخابات المجلس نفسه عام ١٩٥٨ التي تكرِّس سيطرة الجاليات الأجنبية على مدينة عدن، عن رفيق اتهموه مع آخرين بالضلوع في قتل مساعد المندوب السامي، في الحادث المسلح الذي وقع في مطار عدن، يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٣، لم ينفِ التهمة، وبقي معتقلاً مع مجموعة من الفدائيين، حتى ثبتت براءة بعضهم وكان واحداً منهم، فأخرجوهم من السجن. يومئذ شعر رفيقه أن حكم البراءة، إدانة له وتهمة لا يمكن دحضها. تحوَّلت البراءة إلى ما يشبه العار، طفق في محاولة غسله ببذل المزيد من الاندفاع والمغامرة وأحيانًا الرعونة ضدهم، إذ كان يعرف، قال نجيب، إنهم يصدرون أحيانًا أحكامًا بالبراءة، وهم متأكدون من ضلوع بعضهم، بقصد تشويه صورتهم أمام أنفسهم والآخرين، وكان هذا، بالنسبة للبعض، أقسى من أشد أنواع التعذيب وحشية.

وتكلم بغتة، مديراً دفة الحديث إلى وجهة أخرى، عن ضرورة الشعور بالسلام الداخلي. ثم قال مستدركًا، وهو يشعل سيجارة من عقب أخرى، "مهلاً، لا يعني السلام الداخلي أننا نستسلم لظرف ما أو شرط بعينه مهما كان. لا. أن نشعر بالسلام، يعني إعطاء أنفسنا برهة من الصفاء للتفكير الصحيح في الخطوة التالية". حل الليل وشعّت الأنوار في الخارج. في داخل الكوفي شوب، كان الضوء رائقًا، ينعكس على أقداح القهوة، وأكواب الشيوكلاته وآنية الآيس كريم وزجاجات المرطبات وقوارير البيرة، وآلة صنع القهوة ووجوه النادلات بوزرهن الزرقاء. وسرح ببصره واكتست ملامحه فجأة بشيء من حزن خفيف، "كنت طفلاً عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، لم تهرب أسرتي، كما عرفت، مثل أسر كثيرة خارج عدن، خشية الغارات الإيطالية وبحثًا عن طعام، كانت ستفعل، بالتأكيد، لو وجدت مكانًا تلوذ به، إلا أن عدن كانت لهم حينها الجحيم والجنة معًا". انتبهوا قبل أن ينتهي نجيب من كلامه، إلى أنهم يكادون لا يعرفون عنه الكثير. وقالت أشواق إن والديها لم يكن تعرّف أحدهما على الآخر، عندما اندلعت الحرب. جميعهم بدوا في أعمار متقاربة، فهم ولدوا إما قبل الحرب بقليل أو بعدها بسنتين، وهم وعدن كبروا معًا، ومعًا أيضًا تفتّح وعيهم.

تدخّل سمير وأوضح، بينما يخرج مناديل ورقية، ويروح يمسح وجهه ورقبته من العرق، رغم التكييف، أن الفدائي ليس هو من يضع القانون، وعبّر عن رفض شديد للانقسامات الحادة بين فصائل

الكفاح المسلح، معتبراً إياها مراهقة حزبية تغذيها الأهواء وليس الأحلام الحقيقية. "إن حماسة الفدائيين لا تعني سوى سيطرة الريف على المدينة". وأضاف أن هؤلاء سيعوقون كل شيء. وانتقل للكلام عن دور الإنجليز في نهضة عدن. ولم يتمالك نجيب نفسه ورد عليه بحدة، قائلاً إنه لن يتقبل بعد اليوم أي تبجيل منه لهم، مؤكداً أن هذه النهضة أقل ما يمكن أن يُصنع لمدينة، وهبت التاج البريطاني أكثر مما يحلم.

وجه نجيب آخذ في التجهم، وكأنما سمير وجه إليه سلسلة من الإهانات الشخصية، واستمر في القول إن الفدائي هو من سيحسم المسألة هنا، والأمر لا يحتمل أبداً عدم الوضوح. وصرخ في وجه سمير، وكأنه يوقظه من النوم: "معنا أو ضدنا؟". ومرت لحظات من الصمت، قطعتها فائزة، التي تلبس ثوبًا طويلاً أزرق، بكمين قصيرين، وواسعًا مع حزام عريض طرفاه يشكلان زهرة غريبة، عندما أخذت تحكي لهم كيف راح نجيب يصعد التلة يومها، وكانت بين عشرات الأشخاص يهتفون خلفه. قالت: إنه لم يكن يصعد، "يطير، لم يشعر بجسده، تحول غيمة خفيفة، لم يحس بقدميه فوق الأرض سوى عندما قذفوه بعيداً، لا نعرف بماذا، وأخذ يتدحرج بيننا". طيلة ما كانت فائزة تروي الحكاية بقي هو يشرب من الزجاجة مباشرة، ويمسح فمه بظهر يده، وكان ثملاً بعض الشيء ويدخّن بشراهة، كان كأنما يستمع إلى حكاية شخص آخر، حتى أنه كان يهتز من فرط الانفعال. ثم نهض مترنحًا إلى صندوق

الموسيقى، وراح يحشر النقود مرة وثانية، مفتشاً عن أغنية نسيها، بعد محاولات سمعوها:

Strangers in the night exchanging glances

Wond'ring in the night

What were the chances we'd be sharing love

Before the night was through.

وسادت برهة من صمت جليل، فيما يصغون إلى صوت فرانك سيناترا العميق، يغني لغرباء في الليل، وخامر بعضهم شعور نادر، جعلهم مع نشوة البيرة وأقداح القهوة وهدوء المكان، يحلّقون بعيداً. في لحظة تحول النزاع وسوء الفهم إلى رفقة لطيفة، الإيقاع الرائق للأغنية، بدّل خلافهم إلى شعور جماعي بالاستماع، والرغبة في الغناء. طفقت أشواق تتمايل بذراعين مرفوعتين، تارة تدخن ومرة تردد مع المغني الأمريكي كلمات الأغنية، تضع أحمر شفاه داكناً قليلاً، وتلبس بلوزة صفراء بكتابة حمراء بالإنجليزية، وترتدي فوقها جاكيت جينز أزرق، وتلبس جزمة بكعب عال وعنق طويل بسحاب. يدير والدها مكتبًا للاستشارات القانونية، وكان مستشارًا ومعلمًا للغة العربية للسلطان القعيطي، الذي لا يتكلم العربية جيداً، إنما الأردو والإنجليزية، بسبب عيشه الطويل في بومباي ودراسته في بريطانيا.

لم يعد سمير يحتمل التوتر الحاصل، وبدا له الجو مشحونًا أكثر من أي مرة مضت، رغم الأغنية التي لطّفته قليلاً. وفكر في

الانصراف لكن إحساساً غامضاً جعل يستبقيه. وخُيِّل إليه أنه شم رائحة دم، تخرج مع الكلمات التي كالها له نجيب. الدم نفسه الذي يشخب من أجساد مسحولة، أخذ مؤخراً يتعثر بها ليلاً في زقاق مظلم أو عند ناصية مهملة، لم تفعل شيئاً لتستحق عقاباً وحشياً مثل هذا، وربما كل جريرة أصحابها أنهم كانوا معارضين، أو خصوماً ألداء، لفصيل أصبح معروفاً أن شراسته فاقت كل الحدود. موجة وراء موجة من هبوب ساخن، هبوب سام، يغمره، يلطخ قامته التي يشعر بها تتأرجح، مثل لعبة بدائية معقودة إلى خيط نحيل، في مهبّ ريح عاتية. وشعر بالخشية، بينما يتساءل في نفسه كيف لنقاشهم في الفترة الأخيرة، أن يتحول إلى صورة مثل تلك.

مرة أخرى وجد سمير نفسه في موقف ملتبس، ما أكثر ما حدث له خلال الأسابيع الماضية من التباس، كل شيء ينطقه أو يفكر فيه يثير اللبس، وشعر أنه بات مهدداً. ولم تجد نظراته شيئاً يداري به شعوره بالخيبة ويبدد مخاوفه، سوى وجه سعاد، التي شعر بأنها خذلته، مع يقينه بأنها تفهمه أكثر من أي شخص آخر موجود هنا. ونظر إليها ورأى وجهها متألقاً، تشرب أشواق وفائزة، في حين تتوهّج هي وحدها. توهُّج وجه سعاد هو الشيء الوحيد، الذي بدا صادقاً بالنسبة لسمير، على الرغم مما راحت تفعله به في الآونة الأخيرة. في كل مرة يراها سمير، يدرك أكثر فأكثر كم يحب رؤيتها جالسة معه حول طاولة واحدة، غير أنها لم تعد تفعل ذلك، ويخالجه شعور بأن شيئاً ما يغيِّرها ببطء، ويدفعها إلى أن تشرد منه، وحتى

وهي تجلس حول الطاولة التي يقعد هو إليها. وكلما لَمّح لها برغبته في أن يلتقيها وحدهما، كما في السابق، تتحاشى الرد عليه.

شيئًا فشيئًا أخذ الملل يعتريه، بمجرد أن يبدؤوا الكلام عن صراعات الفصائل، ثم يشعر بالإرهاق يتسرّب إليه، فراح يؤثر الانسحاب ويغادر المكان بهدوء.

(١٧)

ترفض آيريس رفضًا قاطعًا، أن تعتبر طريقة الصوفي في الكلام، مجرد خطأ في استعمال الضمائر. وتلاحظ أنه يعيد ما يريد الكلام عنه مرات، ولا ينجح في الإفصاح. "هي ويل جو تو فارمسي، دو يو وانت ثنك". "هي لايك..". "هي ووانت". يسمعه سمير يجهد في الكلام، وهي تحاول أن تشرح له أنها تفهمه، لكن طريقة كلامه تجعل الأمور ملتبسة. في الواقع لم يكن يبدو عليها أنها كانت تكلمه، كانت تدير رأسها وتنظر إلى الستائر، يحركها هواء خفيف، إلى منحوتة لإله هندي من خشب الساج، فوق طاولة رفيعة، تعلوه على الحائط ثلاث صور لها، تظهرها في أعمار مختلفة، الشبه بينها طفيف، لكنها لم تنظر إلى الصوَر، وعادت ورمقته بنظرة خالية من أي معنى ونهضت.

يراها سمير تدير ظهرها للنافذة، يدفع الهواء أطراف فستانها، فضفاض ويرتفع إلى ما فوق ركبتيها، وتلبس جزمة بيضاء، بينما تضع إحدى يديها في جيب الفستان. قال له الصوفي مرة إن السيدة

الإنجليزية لا تعبأ برجولته وتخطر عارية أمامه، وأنها لا تفكر في احتمال أنه قد ينقضّ عليها كحيوان مفترس. بشعر منكوش وما يشبه الرداء الشفيف، يهف فوق جسد، يبدو فتيًا، تلفُّه رائحة النوم وأحلام البارحة، تبقى هكذا منذ اللحظة التي تخرج فيها من حجرة النوم، إلى أن يقترب المساء. لم يتعوَّد الصوفي بعد، رغم مرور سنوات معها، على حياتهم، "هؤلاء النصارى"، هكذا يقول عنهم. مهامه ليست قليلة غير أنها هينة، يشتري لوازم المطبخ، ويوفِّر المشروبات، ويزرع ما تطلبه من أشجار، في أحواض قدام الفيلا الصغيرة، وفي المساحة الضيقة خلفها.

تتوقف أحيانًا أمام النافذة العريضة، وتزيح بيد كسولة الستائر، فيتدفق عند المساء ضياء وردي يشوبه سطوع خفيف. تبدو ممتلئة قليلاً، وبمؤخرة مستديرة. فمها صغير وشفتاها مكتنزتان، ولها أنف حاد وعينان براقتان. اللون الوردي نفسه ينتشر بصورة لافتة للنظر، وينعكس على الأمواج الكسلى هناك، كأنما تعبت بدورها من الذهاب والمجيء، في مَدٍّ وجَزر. تبقى ترى منازل الضباط، قريبًا من ميدان الهوكي، بمعمارها الهندي - الإنجليزي. في واحد من تلك المنازل الصغيرة، في واحدة من غرفتي النوم، المكون منها، انغمر جاك، الضابط الستيني المكلف بتهجير المتبقين من اليهود، في مضاجعتها من الخلف، وكان يلطم ردفيها بقوة. تضاجعا أيضًا في الحمام وفي المطبخ، الذي يأخذ جانبًا من الشرفة المفتوحة، بجوار النافذة، تحت الشيش، المركب بطريقة تسمح بالتهوية، من كل الاتجاهات.

وهي تتأمل المسالك إلى التلال، أو تلك الدروب التي تهبط إلى السفح، يلفها شعور قوي بالفراغ. تذكرت حفلة الليلة في مطعم "الروك هوتيل"، فكرت في الوجوه التي ستتطفل عليها، وانكمشت داخل جسدها. يأخذها الحماس، ربما بتأثير الويسكي، وتجد نفسها تصرخ في وجوههم، أثناء حفلات الكوكتيل، تعبر عن امتعاضها من النساء الإنجليزيات، اللاتي يعمدن إلى تقليد الرجال، عندما يأخذن على عاتقهن جزءاً من المهمة الإمبريالية. تهاجم بشدة تعاليهن عن المشاركة في الحياة اليومية للسكان المحلّيين. وتجرّأت مرة ونشرت تقريراً في مجلة إنجليزية، قالت فيه إن ترفُّع النساء الإنجليزيات عن تعلم اللغة العربية، جعل من المجتمع الإنجليزي أشبه بمحمية داخل محمية كبيرة، وعابت عليهن التمسك بالتقاليد البريطانية في مجتمع شديد البساطة، ينتظر شعوراً بالتعاطف مع مشاكله، وليس سلوكا فظًا مبالغًا في غطرسته. إلا أنها اعتبرت في التقرير نفسه، أن سلوك النساء الإنجليزيات ما هو إلا رد فعل لموقف الرجل الإنجليزي منهن، عندما سعى إلى حشرها في خانة ضيقة، مستبعداً إياها بالمرة من الخوض في المشروع الإمبراطوري.

تعود لتقعد وتشعل سيجارة وتدخّن، وتنظر إلى السقف، ويشعر سمير بمشهد جسدها الطازج، رغم كبر سنها، يضرب كل أنحائه. ورفعت يدها بأصابع كسول ومنفرجة، وجمدت ملامح وجهها، جعلت تصغي إلى الأصوات، تدوي من بعيد. ثم انحنت ونظرت إلى صحيفة أخبار العالم، فوق الطاولة، تطالعها وتتوقف

عند أخبار الحروب والمجاعات وقصص القتل وتفاصيلها المشوّقة.

ثم حوّلت بصرها إلى سمير وعادت لتقول له، ما سبق أن قالته في شكل آخر وبعبارات وجمل مختلفة، أنه كان حريًا بها أن تدرسه هو، أن تُخضع آليات تفكيره للفحص. ويراها تنهض ثانية وتروح تتمشى ساهمة، ولا يشعر بحاجة إلى الرد عليها. صوت جزمتها فوق الأرضية الخشبية، يشبه نقرًا عميقًا وهو يأتي متباعدًا. ثم أخذ ينصت إلى يدها تلتقط سماعة الهاتف، يأتيه صوت إصبعها يطلب الرقم. قدر أن يفهم من المكالمة، أنها تحتاج إلى من يمر غدًا ليأخذها من المؤسسة التي تديرها إلى شركة "لوك توماس". يعرف هذه الشركة، احتكرت النقل البحري زمنًا، وكان الجنود الإنجليز يودعون أموالهم لديها، وتدفع لعائلاتهم في إنجلترا.

في الأسبوع الماضي التقى عندها سيدة، لها عينان ضيِّقتان ووجه متغطرس، تضع فراء ثعلب حول كتفها، وكانت تحتسي نبيذًا وتردد بفخر أنها حفيدة أحد المشاة الأوروبيين، الذين قدموا إلى عدن على ظهر السفينة "الكوت". وسمعها ترد على زائرتها بصورة غير مباشرة، قائلة إن أجدادها، ثم والدها لاحقًا، جمعوا الاهتمام بالدين والرغبة في تمثيل الطبقة الوسطى في بريطانيا، وأنهم كانوا يناهضون الرِّق. طالما كانت ضد إرسال عدد كبير من المبشرين، ففي رأيها أن البشر هنا يحتاجون إلى مساعدات طبية، ومعاونتهم كيف يتدبرون أمور عيشهم. وانتقدت كثيرًا المواعظ الدينية التي يلقيها الوعّاظ في الكنائس، موضحة أنها تفتقد الإقناع.

أحبت السيدة الإنجليزية الشعراء الفيكتوريين. تقرأ ييتس ويثيرها دومًا، على نحو إيجابي لم تفهمه، تفهمه أحيانًا غير أنها لا تريد أن تفسره في شكل سطحي، هو المولع بالأشباح وتخيل الجن يطوِّقون المدينة فوق ظهور الخيل. وراح سمير يصغي إليها في إحدى المرات، وهي تقرأ من الذاكرة، مقاطع من قصائد قالت إنها لييتس، فيما عيناه تتأملان بسطًا فاخرة، لوحات لرسامين إنجليز وأوروبيين، كتبًا في مجلدات أنيقة، تحفًا من الكريستال، ستائر من المخمل:

"عين باردة تحدق

في الحياة

وبالموت

وفارس يعبر بينهما".

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، طُلب من زوجها الانتقال إلى شرق أفريقيا، رفضت السفر معه، فتطلَّقا وبقيت تعيش وحيدة في فيلا صغيرة. طالما رددت آيريس على مسامع سمير أنها لم تقبل الامتثال، لما يسمى بمقتضيات الهيبة البريطانية في المستعمرات، وتتمثل بالدوائر الاجتماعية المغلقة دون السكان المحليين، والتقاليد الشكلية المتعارف عليها في المناداة واللبس، والحديث مع من هو أدنى منزلة من الناحية العرقية. قامت بتعليق صندوق بجوار المدخل الأمامي لمنزلها، بمجرد وصولها عدن، لتوضع فيه بطاقات من يرغبون في زيارتها من البريطانيين والأوروبيين. ثم وجدت نفسها، فيما بعد، تضع بطاقتها في صناديق الآخرين، لتتاح لها فرصة التعرف عليهم

في منازلهم، وتتأملهم عن قرب. سجّلت اسمها في سجل المقيم السياسي، ودعيت إلى حفلات الكوكتيل، وانغمست في المجتمع الإنجليزي، الذي جاءت من أجل دراسته. "فعلتُ ذلك مرات، ولم تلبث أن كرهت تلك الاجتماعات". قالت لسمير مرة وكانت أضواء كسولة، تكسو ملامحها بكآبة فاتنة. "وصف بعضهم سلوكي مع العرب، بأنه محض إعجاب رومانسي بالمتوحش النبيل، مع أنني كنت أفعل ذلك ليس حُبًا صريحًا في العرب، ربما كان ذلك لأني أنتمي إلى عائلة، كانت تكسب قوتها من الدفاع عن الآخرين".

كلما تباعدت الأوقات التي لم يعد يرى فيها سعاد، وجد نفسه ينظر بشراهة إلى آيريس. جسمه كله يشعر به محمومًا، وهو يمرغ نظراته في جسدها، الذي يقاوم الترهُّل بفعل السنين، تغطيه ملابس خفيفة. علاقته بسعاد لم تذهب يومًا أبعد من تشابك الأيدي. حكى له الصوفي مرة أنه رآها في منام. كانت آيريس تزحف، قال له، مثل أفعى ضخمة، وأن رؤيتها شلّت حركته فتجمّد في سريره. رغم ذلك شعر بجسمه كله ينتفض، يتحول إلى قضيب مبالغ في ضخامته، إلا أنه لم يقدر أن يفعل شيئًا، لم يجرؤ أن يتقدم ويحملها إلى السرير ويضاجعها. شعور بالنفور استولى عليه، لمجرد التفكير في أنه يمكن أن يمارس الجنس معها. في المنام شعر بالخشية منهن، يرعبنه. وقال إنه لم يجد تفسيراً لهذا المنام.

مثل كلب عجوز تحوَّل الصوفي، الذي مرت عليه سنوات كثيرة وهو يخدم في منزلها، يحدق بعينين هرمتين، في الوجوه. "أنت

تحبهن، الإنجليزيات". قال لسمير، وكشّر عن أسنان صفراء، في ما يشبه الابتسامة. ويجد سمير نفسه فعلاً مأخوذاً أمامها، وأحيانًا مستثاراً جنسيًا. يخيل إليه، في كل مرة يزورها، أنه يشم رائحة المني على جسدها، جسم آخر رجل عصرها بين ذراعيه ودس عضوه في فرجها. كان يراها بعيني الفرنسي العجوز، وتحت ضغط حكاياته عنها.

(١٨)

كان الجميع يلبسون قبعة الرجل، الذي انتظروه طويلاً فوق رصيف أمير ويلز. سيرفض هذا الرجل، النزول عندما رست الباخرة "راجبوتانا"، في الميناء الداخلي لستيمر بوينت، وأنه كي ينزل اشترط أن يتحقق طلبه، ويرى علم المؤتمر الهندي يخفق بجوار العلم البريطاني. واقفون بقوا، قال الهندي أشرف، منذ منتصف الليل إلى وصول الباخرة في الصباح الباكر. وفكّر سمير في أن هذه الحكاية ليس هو بطلها وحده، كما تعوّد منه في حكاياته السابقة، وسيعرف من أشرف أنهما، جَدُّه وأشرف، لم يعرف أحدهما الآخر سوى في تلك الليلة، عندما كانت الساعات تمضي وهم ينتظرون من دون كلل، فسنحت الفرصة للتعارف وستستمر بعدها علاقتهما طويلاً. وصف أشرف تلك الليلة، التي تنتمي إلى زمن بعيد، بالحارة وشديدة الرطوبة. كانوا يخوضون في الظلمة، ويركضون في الأزقة المتربة، بينما يصغون إلى حمحمة الخيول ومواء القطط.

عندما انعطف سمير يميناً ومر من الزقاق، الذي يفضي مباشرة إلى محل بيع شباك الصيد والسنارات لليهودي شاليمان، أراد تجاهله والمضي بعيداً، فهو يطلب منه في كل مرة يمر بهذا الزقاق التريث، ويحكي له حكاية جديدة بطلها هو في هذه المدينة. يقعد في أوقات المساء فوق درجة قدام باب بيته، المفتوح على الشارع، يقرأ القرآن باللغة الأوردية، أو يصغي إلى المطرب موكيش وأحياناً دويتو يجمع محمد رفيع وعاشه بوسيلاه أو مهيندار كبور، وبين وقت وآخر يراجع مع ابنه إنصاف دروس الإنجليزية.

"عدن لم تعجب جَدَّك" سمعه يقول، ورأى يده ممدودة بقطع من ثمار المانجو، مغمورة في مسحوق الملح والفلفل الأسود والكمون والبسباس الحار. "ويستحيل على عدن أن تعود كما كانت أيام جَدِّي"، جاوبه سمير، وهو يشعر في قرارة نفسه بتفوُّق أشرف على جَدِّه، الذي لا يملك اليوم سوى حكاية واحدة يرويها، حكايته بصفته موظف بريد قديم، قديم جداً. يكرر أشرف، الذي يرتدي سترة قديمة من الصوف الإنجليزي الخشن، تذمره من هنود، زملاء له في العمل، وينتمون إلى الطائفة الهندوسية، يعرقلون نيله مراتب متقدمة في السلم الوظيفي، ومع ذلك هو يرفض انضمام عدن إلى اتحاد الجنوب العربي، خشية أن تذوب الجاليات الأجنبية، في محيط عربي لا يعني لهم شيئاً. قبل أن يذهب إلى وظيفته، في إدارة الخدمات الطبية الخاصة بالمحميات، الكائنة في خور مكسر مقابل المطار، يمضي إلى السوق، يشتري خضراوات وفاكهةً بشلنين،

وبمثلهما خصارًا؛ لحمًا أو سمكًا، ويعود، ثم يركب سيارته الفورد، التي اشتراها جديدة، ويذهب.

يصغي أشرف، كأنما يلتقط أنفاسه، إلى محمد رفيع، يأتي من الداخل، إلى صوت السيتار، في نواحٍ رقيق، ويهزُّ رأسه، فيما هو يجدها فرصة لتتوه نظراته في الزقاق الطويل، كأنما يترقب رؤية شخص ما، ينبثق فجأة قدامه.

جو التوتر الذي ساد مؤخرًا نقاشهم، جعله يبتعد. أسابيع مضت ولم يلتق أيًا منهم. وقته أصبح موزَّعًا بين المدرسة في الصباح، حيث يعلِّم مادة التربية الفنية لتلاميذ، يكتشف كل يوم أنهم بلا مخيِّلة، لا يعرفون سوى الزورق والبحر والتلال والسماء الزرقاء، وبين آيريس والتاجر الفرنسي بعد الظهر. كان يتوقع أن تزوره سعاد في بيت جدته، على الأقل لتسأل عن جَدَّته، كما كانت تفعل بين حين وآخر، لكن غيابها طال كثيرًا. كم يتوق الآن إلى أن يراها تخرج من أحد الأزقة وتشاهده جالسًا، ثم تطلب منه أن يرافقها كما فعلا طويلاً. وحاول مقاومة التفكير في اللقاء بهم، بها تحديدًا، في أقرب فرصة وفشل، وقرَّ قراره بغتة أن يذهب إليهم بمجرد ما تسمح ظروف شغله. وشعر بالراحة لاتخاذه قرارًا كهذا. في الآونة الأخيرة لم يستطع النوم بسهولة. لا يقدر حتى على إغماض عينيه، أحيانًا ينهض وحينًا يبقى جالسًا في منتصف السرير، شبه عار يحدق في النافذة المفتوحة، بينما الستارة تتحرك خفيفًا.

"في تلك الليلة من عام ١٩٣٠ سرنا طويلاً، أنا وجَدُّك، على أقدامنا" . مزهواً، يأتيه صوت أشرف. لم يجد الإنجليز مفراً من الإذعان. سيعرف سمير أن أشرف يحكي له، عن زيارة المهاتما غاندي لعدن، ذلك الرجل الذي ذهب ضحية شغفه بالسلام، وكرهه العنف. وما إن لاح لهم جسمه الأسمر النحيل، مدثّراً بزي الململ، الأبيض والبسيط، ينزل من الباخرة، كان الوقت صباحًا، هل كان يوم ثلاثاء؟ ربما خميس! لم يعد يتذكر ذلك، حتى تعالت الهتافات، "فليحيا غاندي ولتحيا الحرية والاستقلال" . في حديقة الفرس خطب في الحشود. كان يلبس نظارة كبيرة، وساعة تدلّى بسلسلة يربطها في وسطه.

ينظر سمير خلال الشوارع الضيقة، تلاصقها النوافذ البارزة من أعلى، فتشكل ما يشبه سقفًا خشبيًا بديعًا، إلى منازل صغيرة مبنية على الطراز الهندي، تلفها العتمة من الداخل، أبوابها دومًا مفتوحة، تبدو له حينًا أنها جزء من الشارع، ولا سيما في الليل، عندما يخرج سكانها، يدفعهم الحر، للنوم أمام الأبواب. ويرى من مكانه، دكان الدوبي، وتتعلق عيناه بالألوان في الملابس التي يؤجّرها للزبائن، ويسمح لهم بالاغتسال وتبديل ثيابهم، مقابل شلنات قليلة، ألوان زاهية وساطعة، تستدرجه فيروح يتماهى معها، مثل طفل لا يستطيع كبح نفسه. ويتناهى إليه صخب "المخازنة" في المبرز، وسط أدخنة المداعة وأوراق القات، في منعطف الشارع. وفكّر في أن يمر بمقهاية قاسم، والجلوس قليلاً بين العمال وسماع

أخبارهم، ثم غير رأيه. كان واثقًا أنه لن يستطيع تلافي رؤيته، إذا صادف وكان نجيب موجودًا، إذ لا يجد في نفسه الرغبة في معاودة الالتقاء به الآن، وخصوصًا أنه سمع بانضمامه ثانية إلى عناصر الكفاح المسلح، وأنه أصبح عنصرًا ميدانيًا يحشد المؤيدين، وأحيانًا يكلّفهم بمهام سرية.

قال أشرف إن غاندي تكلم باللغة الإنجليزية وبلغة جوجرات، عن الاستقلال، ودعا الهنود إلى الوقوف إلى جانب العرب. وأضاف أن الجميع كان ينصت، كما لو كانوا في صلاة، فقط صياح طيور البحر، أو صوت صفارة باخرة شحن، بينما تعبر. وأشار إلى أن الناس كانوا يمسكون بقطع من الكراتين، أو بطرف أرديتهم ويهوون بها على أنفسهم، من شدة الحر. قبل أن يتخرج أشرف من الثانوية العامة، نتائجها تأتي مباشرة من بريطانيا، وجد فرص عمل كافية لئلا يختار فقط، إنما يتجاهل التعليم الجامعي. وافق على العمل في الحكومة، وتزوج من فتاة عدنية وأنجب منها بنتين وثلاثة أولاد، وبطل السفر إلى كيرالا، مسقط رأسه. في الليل ينام على سطح منزله، المكون من طابقين، هناك يكون الهواء منعشًا والجو يميل إلى البرودة الخفيفة. وقبل أن يسأله كيف يمضي أوقاته في منزل التاجر الفرنسي، فهو من دفع أحد معارفه للتوسّط له ليعمل عنده تقديرًا لجَدِّه، وسيرد عليه سمير أن الأمور ماشية رغم الصلف الذي يبديه العجوز بخصوص العرب. ذكر أشرف، وهو ينظر خلال الأزقة، أنه اتصل اليوم بشركة البس، وطلب تليفزيونًا بالتقسيط.

تنبه سمير إلى غناء نصرت علي خان، جاء دوره بعد محمد رفعت، لم يقدر أن يصغي إليه منذ جلس، تدريجيًا يتجلّى محمولاً على الصوت الشجي لآلة السيتار، وشعر بأن تلك الآهات العميقة تصعد من روح هذا المتصوف، الذي يغني لكل البشر وللأديان جميعها، لتلامس روحه هو وتبقى هناك.

تأخّر على التاجر الفرنسي فاستغلّ انشغال أشرف مع ابنه، الذي جاءه يحمل كتابًا ويستفسره عن مسألة، وانصرف. سلك طريقًا إلى محطة الباصات، يمر بجوار المقهاية، وحاول عدم النظر لكنه رأى قاسمًا، وهو يشمل الزبائن بنظرة متمهلة ويأخذ أنفاسًا من المداعة، وتصور أنه سمع صوت نجيب يواصل كلامًا ما إن ينتهي حتى يكرره ثانية. في الباص تذكر أن أول تعارف لهما، نجيب وهو، كان في مقهاية قاسم نفسها، لم يكن سوى نظرات تبادلاها من بعيد، لاحقًا ستعرِّفه سعاد عليه، وستأخذه إلى واحد من تلك المقاهي الحديثة، حيث سيكون نجيب موجودًا، وبرفقته عمر وأشواق وفائزة.

دخل الباص الماين روود، وما إن رأى سمير الحشود يمتلئ بها هذا الشارع الطويل، والذي يشبه في الليل نهرًا من الضياء، حتى اعتراه شعور بأنه صدئ، وأن مسام جسمه كلها معبأة رملاً. وشعر برغبة قوية في أن يعرق، أن يرى المياه المالحة تنبثق من جسده كله. وقرر في الحين ألا يمضي إلى منزل الفرنسي، الذي ازداد سخطه على المحليين مؤخرًا.

أوقف الباص ونزل. ترك جسمه للحشود، كأنما هم في عيد أو مناسبة كرنفالية. يخرجون ويدخلون في المحال التي تصطف على طول الشارع، أسفل عمائر شاهقة. محال معظمها تحمل أسماء إنجليزية ويونانية ويهودية وفارسية وهندية وفرنسية. تضرب وجهه الأنوار الساطعة للمبات النيون، ويغمره هواء بارد ينبعث من داخل الدكاكين المكيفة. ترتطم به وتتسلل إلى مسامعه، رغمًا عنه، لغات شتى يتفاهم بها سيَّاح من شتى بقاع الأرض، كأنما هو بصدد برج بابل آخر. لم تؤثر في تدفُّقهم الأخبار عن الوتيرة المرتفعة للكفاح المسلح، وإن كان نضال فصائله ارتدَّ بصورة عنيفة إلى بعضهم بعض.

يشم اختلاط الروائح، لعطور وعرق وسجائر وأطعمة وزهور وتوابل، ويصطدم بالأجساد، نحيفة وبدينة ورشيقة وفتية ومسنة ومترهِّلة ومتماسكة وشهوانية ومتبتلة ومتمرِّدة ومستكينة، تعبر كلها عن نهم للحياة، عن رغبة في الارتماء في كل هذا الخضم. ورغمًا عنه ذهب تفكيره باتجاه الحديدة وبقية مدن الشمال، لا يزال الملكيون يغيرون على مواقع للجمهوريين ويحتلون مساحات جديدة. تحولت الثورة إلى لعبة لا تمسك أصابع اليمنيين بخيوطها.

وأبصر عند ركن لبيع المثلجات جنودًا من الإنجليز، يتبادلون حديثًا سريعًا لا يخلو من مرح، مع فتاتين شقراوين وشخص خمسيني، فيما يبدو أصدقاء أو عائلة أوروبية نزلوا يومين أو ثلاثة. لم يظهر على الجنود أنهم يأبهون بالسطو المسلح لعناصر من الجبهة

القومية، على بنوك وشركات ومحال يملكها أجانب. وشعر فجأة بأنه هش وعلى عينيه غشاوة، يتحول البشر بغتة في عينيه إلى كتل سوداء، تزيدها الأضواء الساطعة سواداً. أين سيذهب في حال ترك الفرنسي عدن وهاجرت آيريس؟ ربما حتى الحي الأوروبي سيتغير. ما يجري حتى الآن في مدن الشمال، يجعله غير متفائل بأية حركة مماثلة، لن تخسر مدن الشمال كثيراً، لا يوجد ما تخسره، بينما عدن مسألة مختلفة كلياً. وسرعان ما أحس سمير بجسده يتصبب عرقاً، فيوض صغيرة يشعر بها تنز من جسمه كله. ولم يتنبه إلى خطواته السريعة، سوى عندما شارف نهاية الشارع، فنزل الرصيف متنهداً بعمق، وراح يأخذ طريقه بصعوبة، وسط الأضواء والسيارات والبشر، إلى مقهى في الضفة الأخرى للشارع.

"هذا دهر وليس ليلة".

جاءه صوت الفرنسي، متهدِّجًا، معبراً عن رغبة في عدم النوم. كيف يمكن للنوم أن يدخل عينيه؟ كل شيء تم حسمه في المفاوضات. ليس لأن الإطلاقات المتكررة، وأصوات المفرقعات، تنم عن ذلك، إنما لأن مشاعره الغامضة، بخصوص هذه اللحظة، هدأت وخلفت طعمًا مريراً، لا قدرة لديه على وصفه. الرجل الذي كان عنيداً جارحًا وسليطًا في الكلام، إلى درجة الإهانة، يبدو في هذه اللحظة مستكينا.

ترى متى يقتحمون المنزل؟ تتخيل قبضاتهم، ربما أخماص البنادق، تنهال على الأبواب، تقتلعها. لعلَّ من الحكمة تركها مفتوحة، فغالبًا ما تستفز الأبواب المغلقة كراهيتهم، وتثير عنفهم من أول وهلة. ربما بعد ساعة سيصلون، أو في الصباح الباكر. حينها كيف يكون تصرُّفك، هل تشتمهم، كما هي عادتك طوال الأزمنة الماضية، أم ستلجأ إلى أسلوب فيه من اللين والاستجداء، ما سيجعلهم يتركونك تمضي، دون أذى؟ ما أكثر الأساليب التي جربتها في حياتك لتحوز ما تريد. لعلك ستتمنى، ربما فعلت، أنك لم تكن ما أنت عليه من نفوذ وأملاك، فلا تجتذب طمعهم. ليس الطمع، وهذا غير مستبعد فالثوار يحرِّكهم الجوع أولاً، إنما شهوة

الانتقام، فالحقد الذي دفَعْتهم لتربيته طوال عقود، سينفجر عما قليل. شيئًا فشيئًا ربما لن أستطيع تمييز أي شيء في هذا المنزل. يغدو مرة، من دون أن أقدر على إدراك ذلك، فسيحًا أكثر مما كنت أتوقع، وتارة يتحول أيضًا، بلا استطاعة مني للفهم، أضيق من حجرة صغيرة. النسخة الوحيدة من "إيدن كرونيكل"، تاريخ اليوم نفسه يطالعني، لا لم يعد تاريخ اليوم، أصبح تاريخ أمس، أنت الآن بعد منتصف الليل بكثير، رغم ذلك ينبهني لئلا أنساه ٢٨ نوفمبر ١٩٦٧، يجعلني لم أعد أعرف هذه المدينة.

رائحة التبغ الفاخرة، تنتشر كالعطر بالنسبة للشاب، الذي بدا مرهقًا يغالب النعاس فلا يستطيع، تفوح في أرجاء المكان. يروق له أن يراقب طريقته في حشو الغليون بالتبغ، حين يخرجه بإصبعين من علبة أنيقة، ويضعه في التجويف الصغير، ويروح يضغطه بلين، في إشعاله وكيفية تدخينه، ثم حين يشيح بنظره بعيدًا، فيما الأدخنة تروح ترسم أشكالاً غامضة، مشدودة إلى فمه، قبل أن تتبدد. مَطَّ الشاب جذعه، يفتش عنه، يرغب في رؤيته وجه العجوز، ولم ير سوى وجهه هو، بدا تائهًا ومهمومًا.

وشمَّ رائحة المداعة، داهمته على حين غفلة فأخرجت الشاب من مخاوفه. يرى جدته، عندما تأخذ وقتًا وهي تعدُّها، تدوِّخه الرائحة، لها رائحة جدته نفسها، إذ تعبق بالبخور والأعشاب العطرية. ومثلما أخذته رائحة الغليون إلى مداعة جدته، ستنسيه رائحة المداعة كلام الجدة ومخاوفها عليه. كلما رأيتها قلقة وسمعتها تضرع إلى

الله، ينتابني شعور بالفزع وأحسُّ بأنني ملطّخ بالخزي. لم يستطيعا، سعاد ونجيب، تفهّم موقفي، ولا أنا قدرت أن أوضحه، وعجزت أن أقنعهما أنني معهما في الطريق نفسه، لكن خطواتي فقط هي التي تختلف. لم أفهم إصرارهما على الزج بي، فجأة، في صف المتواطئين مع الإنجليز، في طابور الذين يبجّلونهم، من دون انتباه إلى التفاصيل ولا مراعاة للخلفيات.

بعينين منطفئتين يراه، يجوس أزقة ترابية، وملطخة بالظلام، يدخل ميادين خاوية، تردد صدى دعساته، ويخرج إلى ساحات يكتسحها الغبار وروائح خيول متعبة من جر العربات، تفضي به إلى شوارع معبّدة تنيرها مصابيح معلّقة إلى أعمدة تشمخ عاليًا، تمخرها سيارات فارهة، تمتطيها شقراوات. في سمائي المظلمة والضيقة، يرتفع وجهها، مثل شمس صغيرة، بلا أشعة، ولا ضوء لها. أمد يدًا إلى الأمام لأنالها، سعاد، ولا تصل يدي. أفشل كلما حاولت انتزاع نفسي مما يجري، ومما ستؤول إليه الأوضاع في الأيام القليلة المقبلة. أبدو كمن يؤوب من رحلة طويلة، مهدودًا وبلا جَلَد. كلما ظننت أن الأرض أضحت قريبة، إذا بالهوّة تتسع، وتتحول الرغبة في سقوط سريع، حلمًا قصيّ المنال.

تعكسه المرآة للشاب وهو يغوص بجسده أكثر في الأريكة، ويهمهم بكلام غامض. أخذ نفسًا، لم يكن نفسًا حقيقيًا، ثمة تبغ في الغليون، لكن لم يشعله. واحدة من عاداته، أن يبقيه كذلك، ويضعه في فمه بين برهة وأخرى. وقال العجوز، بينما يفتش عن

صورته في المرآة: "لم يكن تنبؤ مواطني الفرنسي كاذبًا. ذلك الشاعر الذي غادر الشعر وباريس باكرًا، وانطلق يجوب الآفاق، رأى ما لم أره أنا في عدن، من الوهلة الأولى". وسقطت نظراته مرة أخرى على صور المفاوضين العدنيين، وهم يحرجون الوفد الإنجليزي يترأسه اللورد شاكلتون، بالملاحظات والطلبات باستمرار الدعم حتى بعد انتهاء الاستعمار. يرى صورة شاكلتون، وزير الدولة وعضو مجلس اللوردات وأكفأ الخبرات في شؤون الجزيرة العربية، يذعن لمطالبهم، على الأقل هذا ما توحي به الصورة.

إنه الليل، الهزيع الأخير منه، وعاود الشاب، الذي يحدق في المرآة، تروح تلمع كلما أعتم البيت، ذلك الشعور الغامض. ينظر الآن، مثل العجوز، إلى الخارج، حتى لم يعد يرى سوى كتل متماوجة، بلا ملامح. يستولي عليه الليل، منذ متى أمسى الشاب يحب الانزواء والعتمة. كما لو أن الأمر يشبه الوقوف أمام منظر في صورة فوتوغرافية، كل تفصيل فاقد للحركة، سوى ما يضفيه الرائي له. وأبصر الموج يتكسّر هناك، لم يبصره، تخيّله، وأحس بالهبوب الخفيف، يلف جسده الفتيّ، ويعصف به. عرايا بدوا له أمام أنفسهم، سعاد ونجيب والبقية، ليس ذلك العُري الجسدي، إنما عُري الروح في غفلة منهم، فتظهر التشوُّهات والنزعة الوحشية، المتخفّية، لا للاختلاف إنما للافتراس. أين كانوا يخبِّئون كل ذلك؟ أين الأغاني والموسيقى والأفلام والأحاديث الجادة والأطعمة الطيبة التي جمعتهم، في البارات والكوفي شوب؟ لماذا تحولت إلى محفزات للبطش؟

"أي نفوذ يملكه ذلك التاجر الفارسي، كي يستحق تكريم الملكة" ؟ طلع صوت العجوز واهيًا، متقطعًا. ولم تغب عن الشاب نبرة المرارة، مرارة حادة. ليس هذا سببًا كافيًا لكرهه بيكاجي، التاجر الذي هاجر من سورات إلى بومبي ومنها انطلق إلى عدن، ويحتكر استيراد السيجار الكوبي والآلات الموسيقية والبطاقات البريدية. قدّرت بريطانيا جهوده ومنحته العضوية في الجماعة الفيكتورية، ثم حصل على وسام الإمبراطورية. لم يعد حرمان الفرنسي من الأوسمة يعني له شيئًا، ولا تجاهُلُه في حفلات التكريم التي تقيمها الملكة في لندن، وتدعو إليها الشخصيات المرموقة والمؤثرة في إمبراطوريتها. ويبقى الفضول يتمكن من القريبين منه، ليعرفوا لماذا لم تكرِّمه الملكة، إلا أن الغموض الذي يكتنف حياته كلها، يجعل، كما يقول المقربون منه، كشف ما وراء البحار، وربما ما خلف الشمس أمرًا هينًا، مقارنة بمعرفة شيء عنه. عرف أن بيكاجي أرسل إليها، قبل ليلتين فقط، علبة شيكولاته، فاخرة، مع زجاجة من عطر لم تعرفه عدن بعد.

مع ذلك فبيكاجي لم يغضبه كثيرًا، كما فعل ريسيوس الذي أهداها سيارة أولدز موبيل، كانت أول امرأة تركبها. ريسيوس الذي عرفت عدن من خلاله مطابخ كينوود وراديوهات تيليفونكين، وشاحنات جي إم سي وسيارات سيتروين وديملر وأوبل، وبيجو ورولز رويس، كانت آيريس في واحدة من نزواتها تزوره في مكتبه. ليس الذي يقع في الدور ما قبل الأخير في "الروك هوتيل"، إنما

الآخر في سوق البز، وتطلب أن يأخذها ليتفرجا على الحي الذي كان عدن كلها. وعندما يعرف الفرنسي كان يزمجر، كمن يُشوى بعض لحمه فوق نار هادئة. أما الإيطالي باردیم، الذي لم يكتف بتشييد صالات سينمائية في أنحاء مختلفة من عدن، وواحدة في صنعاء، الأولى في تلك البلاد الصامتة، إنما نقل السينما إلى منزلها. ومع أنها تركته إلا أنه بقي يغذيها بالأشرطة، التي تصل إليه في مواعيدها من أمريكا ولندن وأوروبا.

ينتبه إلى العجوز يدفع قدميه بصعوبة، ويفرد ذراعيه أمامه، حتى وصل إلى النافذة العريضة، وامتدت يداه وأخذتا تتلمسانها ببطء، كمن يريد التأكد أنها مغلقة بإحكام، ثم أعطى ظهره للنافذة وبقي هكذا واقفًا، مائلاً بجسده قليلاً إلى الخلف. "في لعبة الورق أهزمهما، سواء أكان هو المهزوم أم هي، كنت آخذ جائزتي منها". بدا للشاب أن صوت الفرنسي المهدود والمتعب، تعود إليه الحياة بمجرد أن يروح يحكي عنها، "مضت الأيام واختفت هي، سافرت إلى الصومال الإنجليزي. والقنصل الأمريكي أصيب بالجدري، عندما تفشّى هذا الوباء في عدن كلها، فتشوّه وجهه ثم أصيب بالعمى، ودخل في عذاب نفسي رهيب، لم يرتح منه سوى بالانتحار، بعد أن أوصى ألا يعود جثمانه إلى أمريكا، وأن يدفن هنا ويبقى شاهد قبره مجهولاً، خاليًا من أي اسم. عقود التوكيلات وقّعتها على بطنها العاري، في لحظة ميزها انتشاء غريب بصورة لافتة للنظر. كان جسدها الرائع، يخترق عتمتنا مثل سهم مقدّس. لم أنظر إليها يومًا

بصفتها امرأة سهلة المنال، ولا كانت هي كذلك في أي يوم من الأيام، إنها تتسلى معنا وبنا. نعم بنا. ولم تطلب مرة ثمنًا، لكننا، نعم أقول ذلك بضمير الجمع، كنا نتسابق إلى رضاها".

تذكر الشاب مشوارهما إلى مطعم المطار، قبل أيام قليلة، وكيف رآها تخطف نظرة إلى العلم البريطاني، يخفق فوق السارية، وسط الفوضى. ورسمت ابتسامة غامضة على شفتيها. كانت آيريس كمن كان ينتظر هذه اللحظة، وأن تشهدها تتحقق، هو ما يعني لها برهانًا على أفول الإمبراطورية، التي جاءت هنا لتدرس انعكاس المكان على جنودها وموظفيها، فوجدت نفسها، يا للمفارقة، موضوعًا للدراسة، بدل أن تفحص الآخرين، راحت تتأمل نفسها، تفتش في هذه التغيرات عن معنى لحياتها، ولهذا المستعمر الذي يسكنها. وشعر الشاب بالإجهاد يهدّه، لا ينام جيدًا في الآونة الأخيرة، وبالتالي لم يقدر أن يأخذ حال الفرنسي الراهنة، إلى أبعد مما هو مقدَّر لها. ينصت إلى الصمت، يتوسَّع في الردهات الواسعة للمنزل، يفيض على كل شيء، ثم ينحسر مع كل حركة صغيرة تند عن ذلك العجوز، الذي خانته حساباته ربما لأول مرة، ولعل الإنجليز من فعلوا به ذلك، إذ بكروا بتوقيت رحيلهم عما كان محددًا امتثالاً لقرار الأمم المتحدة، حول حق الدول المستعمرة في الاستقلال، الذي جاء بدوره استجابة لثورات التحرر في العالم، وبدؤوا المفاوضات مع الفصيل الأقوى. هذا التبكير جعل الفرنسي عرضة في أية لحظة لبطش الثوار، يخشى أن ينكِّلوا به مثلما فعلوا مع سواه من التجار

الأجانب. يتأمل الشاب المنزل من الداخل، ويفكر أنه اليوم بينما كان يصعد التل باتجاهه ورآه يشرف من بعيد، لم يرَ فيه ذلك الإعجاز المعماري، الذي يتحدث عنه الناس، كأنما يبصره أول مرة، حتى المشاعر المتناقضة، التي طالما شعر بها تتلاطم في داخله، وهي مزيج من الخشية والرهبة والإجلال والإعجاب والحسد والعجز، تلاشت اليوم بل بدا له المنزل خاويًا، ولم يجرؤ على تصديق ما يحدث له.

كيف فقد المنزل الذي يتربع فوق قمة جبلية ويشرف على عدن، ويتبدّى مهيبًا مثل قلعة أو قصر منيف، كل تلك الأبهة. حتى الحس الطاغي بالأنا الذي يفشيه المنزل تبدد، كأنما الفرنسي أراد أن يقارع الإمبراطورية، بتشييد إمبراطورية أخرى في قلبها، لكن كل شيء أخذ يتهاوى في لحظة واحدة. يتكون البيت من عشرات الغرف والقاعات، واحدة كبيرة للاحتفالات الباذخة، والأجنحة الخاصة المعزولة، مؤثثة بكل ما يلزم لقضاء أوقات هانئة. تطل شرفاته الفسيحة على عدن، من زوايا مختلفة، فالرجل يتمكن من رؤية البواخر والسفن الضخمة، بينما ترسو أو هي تدخل. ويشرف من مطله أيضًا على عمارات الماين رووود الشاهقة في المعلاّ، وفي الليل تتلامح قدام عينيه، مثل شموس رائقة، أضواء ذلك الشارع. وتتيح له شرفة أخرى مراقبة التغير الذي يطرأ على مدينة كريتر، إذ إن الأحياء الجديدة جعلتها بالية وقديمة ولا تمت بصلة إلى عدن "جوهرة التاج البريطاني"، كما كان ينصت إليهم، أولئك الإنجليز

المتغطرسون حتى عليه هو، يرددون، كأنما يذكرونه بفضلها أو بالأحرى بتفضلهم عليه.

صدر دجاجة مشوي، وخضار مسلوقة، وقطعة صغيرة من الخبز، وكوب ماء، وطبق فيه عنب. تأمل العجوز الطعام وتسرب إليه شعور بالامتلاء، رغم أنه لم يأكل شيئًا منذ ساعات طويلة. في النهاية أبقى على العنب فقط. حمل الشاب الصينية وعاد بها إلى المطبخ. ازدرد حبات من العنب، ونمَّت ملامحه عن انفعالات وضيق، لم يكن العنب، الذي يجلب من اليمن، هو السبب، ولا ما يحدث في جنيف، في قاعة مضاءة بأحلام الشابين وبقية الوفد. حدق في المرآة ولمح الشاب يتفرَّس فيه، كمن لم يعرفه طوال الأعوام القليلة، التي انضم فيها إلى لائحة مستخدميه. وفي المرآة نفسها، بدا لنفسه شخصًا آخر، في حال مزرية، تغضن جبينه وتهدَّلت وجنتاه أسفل عينين مفتوحتين، كأنما على ظلام شاسع. طالما شعر به، ذلك الشخص الآخر، يدفعه إلى مهالك يتطلبها عنفوان الحياة، العنفوان الذي يراه الآن يذوي أمام عينيه هو. كم مرة فكّر في أن هناك من سيحرك إصبعًا، بعد أن أمست الأمور في أيديهم، فوق خريطة عدن، ويطعن مواقع لبيوت وشركات وأملاك تخصه. الذين كانوا مجرد عتالين في بواخره، أو كانوا عمالاً في مستودعاته أو خدمًا في بيوته، سينقَضُّون في لحظة، ربما تحين الآن وربما خلال ساعات، على ما قضى عمره كله في تشييده.

يرمق الشاب صورته في المرآة، ويجول في خاطره أنه أيضًا بات يخشاهم. ليس لأنهم كانوا يجلدونني، حالَما أكون هبطت المنحدر،

أو في الطريق إليه، وأصبحت في مرماهم، بنظرات ملؤها الشكُّ والتخوين، ويبصقون بين قدمَيّ بعنجهية، ولا أعرف بماذا أدافع عن نفسي، إنما لأنهم كفوا فجأة عن التعرُّض لي. في مرة أبصرتهم، وصَعُب عليَّ التأكد من ذلك، كانت هناك أدخنة والظلمة حالكة، يخلون الطريق لي حتى قبل أن أقترب. واعترتني لحظة غامضة، وتكوَّن لديَّ على الفور انطباع، أن هناك من طلب منهم فعل ذلك، مثلما دفعهم قبل ذلك لمضايقتي. وجهدت في ألا يخطر لي أن لحظة ستأتي، يجبروني فيها على أذية الفرنسي. فهم لن يتوانوا عن دفعي إلى ذلك، وقد امتدت نيرانهم إلى بعضهم بعض. ونظر الشاب إلى العجوز، عبر المرآة، التي لم يعد يعرف هل تعكس الأشياء كما هي في الواقع أم لا، ورآه يحرك جسده الضخم بهدوء قلق.

"ارفع قليلاً الصوت" قال العجوز، ورآه الشاب، في المرآة، يحاول البحث عنه. "صوت ماذا؟ لا يوجد أي صوت". لا شيء سوى صمت مربك، له ألف شكل ولون. وخطر له ثانية أن حواس العجوز أصبحت مشوَّشة. لم يخرج منذ أيام، ولا يحتاج إلى الخروج ليعرف ما يجري. عرف برحيل التاجر الإنجليزي أوليفر هاري، الذي احتكر خدمات تموين الجيش. ولم يفته خبر انتقال التاجر اليوناني ميلوس إلى أفريقيا، ومغادرة الهندي ديباك، الذي زوَّد كل شوارع المدن بالمصابيح، إلى مدينة جدة.

"لا، لن أندم على شيء،

لقد دفع الثمن، لا أبالي بالماضي،

ذكرياتي التي أملكها أضرمت فيها النار".

يصغي إلى إيديث بياف تغني من كلمات مجنّد، ذاهب للحرب. يتردد صدى صوتها، فقط في ذاكرته.

أبكر من هذا الوقت بكثير، تكون تستعد لقضاء سهرة رائعة، لا تكون فقط مع أقرب الأصدقاء، إنما أحيانًا مع المنافسين لك في التجارة والأعمال.. والنساء. قبل هذا الوقت، تقضي تقريبًا حوالي نصف ساعة يوميًا، واقفًا تستريح كلتا يديك فوق حافة الشرفة الفسيحة، أو جالسًا تسند ظهرك إلى ظهر مقعد مائل قليلاً، وتراقب الغروب. لم يكن الغروب يعني لديك، سوى الاستعداد ليوم جديد، لقطف ثمار اليوم ومكافأة النفس على تعبها، والجسد على ما عاناه طوال ساعات من إرهاق.

في الأزمنة البعيدة تلك، كان الفرنسي ينظر أمامه أو في الجوار، فلا يرى سوى أشباح تهتز، تتماوج من الصهد. بمنديل كبير مربع، بني اللون، يمسح العرق ويجفف رقبته وصدره، ويلاحظها، تلك الأشباح، رويدًا رويدًا تتحول إلى بشر، كلما اقتربوا منه. يتوقفون أمامه، يناولونه أوراقًا، يوقعها، أو يتركها جانبًا، بعد أن يتفحصها بنظرة ضيقة من عينيه، اللتين يجهد أن تبقيا مشعتين رغم الجحيم. وإذا لم تناوله تلك الأشباح أوراقًا، فإنه يراقبها تعبر، وتغمر المكان بغيمة من رائحة الجلود، التي تأتي من بلاد الصومال ومن السلطنات المجاورة. خلال ذلك يشعر فعلاً بأنه مغمور بالرائحة. قد يروق لشخص ما التفكير في أنها تؤذيه، تزعجه، والصحيح أنه كان قد

اعتادها منذ الصغر، فوالده عمل طويلاً في تجارة الجلود. تآلف مع أنواع من تلك الرائحة. لم يتذمر أبداً من الرائحة، كما لو أنه يعرف سلفاً أنها ستحمله إلى حيث يكون، أميراً للبحار وكابتن الجو وسيد البر، لكم يجعله هذا منتشياً، طالما تاه فخراً بما أصبح عليه.

هال الشاب حجم الأحداث التي شهدها هذا اليوم، منذ مطلع الشمس. وسأل نفسه، هل تصبح هذه الأيام قديمة أيضاً، كم من الأشخاص غيره، سيتذكرون في أزمنة مختلفة أيامهم القديمة في هذه المدينة؟ يسكنها بشر ويرحل عنها آخرون، ويتركون وراءهم روائحهم وألوانهم وأغانيهم ومعابدهم وصلواتهم، كيف يحزنون وكيف يفرحون، وكيف يطهون طعامهم وكيف يدفنون موتاهم. يحدّق في الليل، في ضوء أصفر لمصابيح بعيدة. يشحذ بصره لرؤية البحر، فوق مياهه الزرقاء السفن العملاقة والبوارج وعشرات المراكب، ويصغي للهدير والصخب وصوت الحياة، هل يكون ذلك فيما مضى؟

لم أعد أدري هل أنا أنا، أم آخر سواي؟ وهل العجوز الفرنسي من عرفته طوال المدة التي خدمت في منزله، أم غيّرته هذه اللحظة الفظيعة؟ أتخيّله يتفوّه أحياناً بما أريد قوله أنا، وما ينبثق من أعماقي كأنه اعتراف مر. وأفهمه أنا بدوري وأتفهّم شعوره، بمثابة إمبراطور التجارة، هذه الصفة التي استحقّها بجدارة من خصومه، في هذه المدينة التي تشعّ على العالم من حولها. جرّدته هذه اللحظة من ألقابه، بدّدت عجرفته وقضت على وجوده.

(١٩)

"وجودي كله" قال نجيب "لا شيء دون هذه الوثبة، التي ستجعلني أتحدّى كل الخطوط". ورد عليه سمير، بينما عيناه على إنجليزي متأنق يقعد قريبًا منه، ويبدو عليه أنه يستمتع بمذاق القهوة، في الوقت الذي يطالع فيه مجلة، قائلاً إن من المجحف تجاهل طابور طويل من الأشخاص، طالما نادوا، بما ينادي به هو الآن. "أنا، عفواً، لا أنادي ولا أقول مثلهم"، رد نجيب بعنجهية، "ينبغي كذا وكذا، أنا أقول: أرغب في أن أشرب عصيراً. أريد أن أتخلص من كذا. ومثلما تلاحظون هنالك فارق". وليثبت لهم صحة ما يقوله، صرخ فجأة في وجه النادلة، التي تصادف مرورها بطاولتهم، قائلاً: لا أريد أن أشرب قهوة سوداء. هل تقدرين أن تأتي لي بكأس ويسكي؟" قابلته النادلة، أثيوبية تحافظ على مظهر أنيق ونظافة ملحوظة، بالارتباك ولم تدر بماذا ترد. "لكن هذه مغامرة ربما مآلها غير متوقع".

شهر يونيو حار جداً، والهزيمة تكتسح آثارها كل مكان. وذكر عمر شيئًا عن الصراع غير المتكافئ، بين الجبهة القومية وجبهة التحرير، التي تلاشت قوتها كثيراً بعد النكسة، إذ كان المصريون يدعمونها. "أن تكون إنسانًا، يحتاج ذلك إلى مغامرة وجرأة". قال

نجيب الذي إن صمت، فلكي يفكر في كيف يبدأ موضوعًا جديدًا، "جرأة التنازل عن العيش الرغيد، عن الحياة نفسها". لكن سمير رد عليه بنبرة لم تخلُ من ضيق واستخفاف، "عبث أن يتكلم أحدنا عن روح الفدائي، من دون أن نشاركه تبعات التمرّد نفسه". وقرر أن يروي لهم ما رآه اليوم، في طريق عودته من منزل التاجر الفرنسي، وفي قرارة نفسه يعرف ما سيثيره ذلك من سخط عليه. قال إنه شاهد أطفالاً يقذفون الإنجليز بالحجارة، "لكن ما أدهشني هو رد فعل الجنود. حيث راحوا ينثرون الحلوى عليهم ويلوِّحون لهم". وعبَّرت ملامحه عن إعجاب منقطع النظير. لم يستفزّ هذا الكلام نجيبًا فقط، إنما حوَّله إلى ثور هائج إذ اندفع يقول إن سمير لا يرى الإنجليز سوى بمثابة ملائكة، بلمسة حوَّلوا عدن إلى مدينة لا مثيل لازدهارها في المنطقة كلها، وأنهم وبدلاً من معاقبة الأطفال، كما يعتقد هو، أخذوا يهدونهم الحلوى. "أنت ساذج"، أخذ يصرخ ويتطاير الرذاذ من فمه، في وجه سمير. "بطّل إعجابك بهم، وإلا...". لم يكمل نجيب، إلا أن عينيه اللتين قدحتا شررًا، عبَّرتا عما كبح نفسه عن قوله.

نظر سمير حوله مشوشًا، كمن تلقى ضربة فوق رأسه، فرت عيناه تفتشان في الوجوه عن ملامح تتعاطف معه أو نظرة تتفهم موقفه فلم ير أحدًا، بمن فيهم سعاد، يمكن له أن يسنده ولو بإيماءة صغيرة، في اللحظة التي بدت له غريبة. ووقعت نظراته على قلادة تحيط عنق أشواق، عبارة عن حلقات كبيرة بألوان برَّاقة، تتوسط

كلاً منها مرآة صغيرة، المرايا الصغيرة مجتمعة تعكس وجهًا واحدًا، بملامح مشوّهة، يرى العينين في مرآة والأنف في الثانية والفم في أخرى، ولم يكن هذا الوجه سوى وجهه هو. ثم في لحظة أخذ سمير يتأمل أشواق وراق له ما اعتبره غموضًا خفيفًا في شخصيتها، وخصوصًا عندما تشرب أو تدخّن. لم تكن واضحة تمامًا مثلما هي فائزة مثلاً، حيث لا أحد يمكنه أن يتساءل عما تريد قوله، فيما لو تعذر عليه الفهم.

في لحظة بدا أن نجيب اتخذ قراره، واعتبر سمير خائنًا، طالما هو ليس معهم. وراح يعدد المرات التي أخذ فيها ينصت إليه، وهو يمتدح الإنجليز. انتهى من كلامه، وانتبه إلى الوجوه من حوله وهي تحدق فيه، غير دارية كيف تطورت الأمور إلى هذه المستوى من العنف والحدة.

كان سمير قد قرر المجيء اليوم، كي يرى سعاد، فلم يعد يحتمل الابتعاد عنها أكثر، وليعرف إلى أين ستمضي علاقته بهم جميعًا. عندما أخذت سعاد تتكلم راح ينصت بكل جوارحه، كان يتفقد صوتها ويتأمله بينما ينظر إليها بوله شديد. وطفق يتحين الفرصة للانفراد بها، ليعاتبها على عدم زيارته في بيت جدته، وعلى سلوكها معه قبل ذلك. وكان ظن أنها ستسأله، حالما تراه، عن سبب انقطاعه، وتأهب ليرد بأنه تعذر عليه ذلك، لانشغاله بأمور خاصة، لكنها خيبت أمله ولم تسأل، كما أنهم هم أيضًا لم يبدُ عليهم أنهم افتقدوه. وأيقن لحظتها أنه كان محقًا في الابتعاد عنهم، وشعر بطعم المرارة يعبئ فمه.

سمع عمر يقترح تغيير المكان، وكأنما كانوا فقط ينتظرون مقترحًا مثل هذا، هبوا جميعًا دفعة واحدة باستثنائه هو، إذ بقي يتلكأ متظاهرًا أن شيئًا ما يعوقه عن الانضمام إليهم، وعرف أنه لا حاجة به إلى التظاهر، فهم كانوا قد ابتعدوا من دون أن ينظر أحدهم إلى الخلف ليتفقده. عندها سلك طريقًا آخر وأخذ يسير بخطوات واسعة، كمن يلوذ بالفرار.

(٢٠)

فور دخوله البيت، هاجمته رائحة سمك زينوب يطبخ في زيت السمسم، مع البصل والطماطم والفلفل الأخضر، قادمة من المطبخ. وشعر باحتياج شديد، لأن يغتسل للمرة الثانية بماء بارد. ولم يخطر له، وهو يتناول منشفة ويجفف بها شعره المبلل، أن هناك علاقة، بين ما تفوهت به جدته، قبل دخوله الحمام وبين ذلك الشعور غير المريح، الذي يعتريه بين حين وآخر. وأنصت لحفيف خطواتها في المطبخ، وسمع جلبة الآنية وأقداح الشاي والقهوة، ثم وهي تغسلها في صحن كبير. بدّل ملابسه، ثم عاد إلى الصالة وجلس قريبًا من الشارع. التقط صحيفة الأيام، التي جلبها معه، وأخذ يطالع أخبار الصفحة الأولى، بينما يتناول طعامه ويحتسي شايًا بطعم القرنفل. "عبد الناصر يوقّع اتفاقية جدة لتسوية الوضع في اليمن وسحب القوات المصرية في ظرف أشهر قليلة، مع وقف المساعدات العسكرية السعودية للملكيين". وقبل أن يفكر في أهمية مثل هذا

الخبر، خيل إليه أنه يسمع طرقًا على الباب، وهمٌ بالنهوض ليفتح، لكن كان جده في طريقه إلى الخروج لصلاة العصر، ففتح الباب وجاءه صوتها قبل أن يراها، إذ انطلقت في الكلام ما إن تخطت العتبة، تسأل عن جدته. وعندما رأته نصف عار وليس حول وسطه سوى فوطة زرقاء مخططة، لم يند عنها أي شعور بالخجل، بينما تحرّج هو فركض إلى الداخل، وخطف قميصًا معلقًا إلى باب حجرته. انتابته حال من الفرح الطفولي، لكنه قهر هذا الفرح في داخله ولم يسمح له بالتعبير عن نفسه، كبرياؤه فوق كل شيء.

لم تأتِ جدته، وجعل ينتظر كيف سيبدأ الكلام بينهما، كأنما لا يعرفان أحدهما الآخر. وفكّر، وهو يشعر بتبدل الطقس في مساء خريفي، يلمح طلائعه من الشباك المفتوح، وتذكر تماديها في تجاهله حتى بعد غيابه الطويل عنهم، أنه على وشك أن يفقدها إلى الأبد. ورأى جدته تأتي بينما تطوي سجادتها على مهل، تفوح منها رائحة البخور، قبّلت سعاد بحرارة، وسألتها لماذا لم تزرهم طوال المدة الماضية، وقالت إنها فكرت مراراً في زيارتهم، لكن أخاها كان يحتاج إلى رعايتها، وأنهم أكثر من مرة أخذوه إلى الهوسبيتال، ثم كانت تخرج معه للسير قليلاً فوق الفوت فات، حتى استعاد صحته. وتأسّفت لها سعاد وتعذّرت بالأحداث التي تجري.

نهض هو وذهب إلى المطبخ وعاد بقنينة ماء بارد، صب ملء كوب كبير ودلقه في جوفه، على جرعات، ثم وضع القنينة فوق الطاولة، وسمعها تقول، وكأنما فاته بداية حوار بينها وبين جدته،

"النشاط يأخذني بالكامل في جمعية المرأة العدنية". ونظرت إلى الجدة، وهي لاهية في تنظيف مداعتها، تدعكها بقطعة قماش، وبدلّت ماءها بآخر نظيف، مع قطرات من ماء الورد. "ولمصلحة مَنْ هذا النشاط؟"، كابر وسألها. ظنها لن تجيبه، إلا أنها قالت بنبرة استغرق وقتًا ليس قصيرًا ليتلمس مراميها، "أعني اللحظة التي تعيشها عدن، جعلتنا خدمًا لها، شئنا أم أبينا. نجيب قال لا بد من لعب دور في هذه اللحظة، وإلا فسنؤول إلى النسيان". ولم ينتظرها لتذكر له، أنها حققت أخيرًا تألقها الشخصي، وقال: "يبدو أنكما اقتربتما كثيرًا، أنت ونجيب، فتحقق لك تألقك أخيرًا". ولم يفتها المعنى الدقيق وراء كلماته.

قامت الجدة ودخلت المطبخ، وتبعتها سعاد، كانت كمن تشرد بعيدًا، ثم تلكأت متوقفة عند الدولاب، وراحت تتظاهر بأنها تنتف ريش الطاووس الطويل بألوانه الخلابة. ولحقتها الجدة وهي تفعل ذلك، وتناهى إليهما صوتها من المطبخ، وهي تقول إنها ما كانت ستقبل الزواج في تلك السن المبكرة قليلاً، لولا شهوة تملّك مثل هذه الخزانة، التي تجلب من الهند. طاووس هندي يتيه في حديقة تغص بالورد، في لوحة طويلة من الزجاج. زوج جارتهم فارسي، كان يشتغل في جيش الليوي، يرتدي الفوطة والعمامة الكاكي، ويذهب إلى العمل، وهناك يصرفون له اللانجوس، عصير ليمون، تعطيهم زوجته بعضًا منه. هذا الجار هو من جلب الخزانة لها، بعد أن دفع الثمن الزوج، الذي كان يعمل مسرجًا في زمن

بعيد، قبل دخول الليل يروح يشعل، واحداً وراء الآخر، مصابيح الشوارع، التي تضاء بالزيت.

صمتت الجدة لكنهما لا يزالان يسمعان صوت حركتها في المطبخ. وبدأت سعاد تتكلم إلى انعكاسها في لمعان الخزانة، قائلة إنها تعي حقيقة الوضع الذي هم فيه، وإنها تدرك أحيانًا السبيل إلى الخروج منه. خمن سمير أنها تحاول الاعتذار إليه بطريقة غير مباشرة، عما فعلته بعلاقتهما، وأنها لم تقل له، ما كان عليها أن تقوله. مرت أوقات طويلة لم يلتقيا وحدهما، وشعر بأنه لا يعرفها بشكل كاف، واحتاج بشدة إلى من يطمئنه، بأن كل شيء يسير على ما يرام في هذه المدينة.

وهمٌ بطرح سؤال عن مصير علاقتهما، لكن عودة الجد وجلوسه، قطعت أي احتمال للاسترسال في الكلام بينهما. وبعد قليل جاءت الجدة بالقهوة وطبق حلوى، ووضعتهما قدام الجد، الذي كان مثل مهراجا هندي بالمعوز والعمامة والعصا المسندة بجواره، كانت له طريقة مميزة في لبس المعوز، وأخذت قدح قهوة وناولته لسعاد، ثم عادت وجلبت صحن الحلوى لتأخذ منه قطعة، وقالت شيئًا وهي تجلس عن زواج واحدة من بنات الجيران يوم الجمعة المقبل، "أعرف أنك تموتين على الأعراس". أكدت الجدة مخاطبة سعاد.

تذكر سمير أنها سبق لها أن باحت له بهذا الولع بالأعراس، شغفها باختلاط أناشيد النساء بأهازيج الرجال، والرقصات التي

تؤدّى على إيقاع الطبول. وخطرت له رغبة آيريس في وداع مختلف، يجمعها بأكبر حشد من المحليين. وسمعوا الجد يقول وهو يمضغ قطعة حلوى على مهل، إن عناصر الجبهة القومية أجبروه اليوم على الدخول إلى الحافة، عبر الحي اليهودي. ترك إلى يساره، وهو يأخذ طريقه إلى البيت معبد ماجن إبراهام، الذي بني على صورة معبد في الهند، ملاحظًا خلوّه تقريبًا. وذكر أنه في أيام السبت، فيما مضى، لا أحد منهم يمكن رؤيته في الشوارع الأربعة للحي اليهودي، إذ يكون المعبد غاصًا بهم. وقالت الجدة إنه لم يكن "البيساخ"، الاحتفال بمناسبة خلاصهم من العبودية، والخروج من مصر رفقة النبي موسى، يمر دون أن تتبادل فيه الهدايا مع بعض جاراتها منهن، أما في عيد السكوت فكان عدد من العرب يهدونهم "الأترج" و"اللولافيم"، وهي ثمار باركتها التوراة، مؤكدة أن الأمور انفرطت، "احتفالات خجيم الأخيرة مرت بصمت، لم يسمع أحد أي غناء في شوارع اليهود". واستيقظت حاسة الشم عند سمير، وطغت رائحة الدم، وتذكر كيف كان يشمها تخرج مع الكلمات من فم نجيب، حين يحتدّ الموقف بينهما، لأي سبب.

تنهّد الجد تنهيدة عميقة، ونهض داخلاً إلى حجرته، وتناهى إليهم نقر عصاته فوق الأرضية النظيفة، رقيقًا ومتباعدًا. وتبعته الجدة لكن لتتناول قطعة قماش، من رف صغير في إحدى الطاولات، وراحت تمررها فوق الخزانة، كانت نظيفة حد اللمعان. أدخلت المفتاح الجميل وسمعا تكة رقيقة، ثم أدارت إحدى الدرفتين، فغمر

الحجرة أريج ساحر، مزيج هو من رائحة بخور عدني وفل قديم، وروائح أخرى للزمن وللحياة في صورها الأولى. خانات وأرفف صغيرة وكبيرة، وأشياء المرأة المسنة، تأخذ مكانها في دعة. وسمعاها تترنم، بصوت خفيض، مفعم بالحنين، "يا شجرة البسابسي. عاده الفل يابسي".

وفي لحظة قال سمير لسعاد ولا يدري ما الذي دفعه إلى ذلك، إنه متفائل بما يحدث. ورمقته هي بنظرة أحيت فيه الأمل، بأنها هي الفتاة التي عرفها يوماً وأصابته بما يشبه العدوى، عدوى الحياة، إلا أنها، هكذا اكتشف بعد قليل، نظرة خالية من أي معنى.

"هل أراك في العرس؟" غامر سمير وسأل، فيما كان يتظاهر بقراءة الصحيفة. ولم ترد، وبقي يتحرّى كلمة منها، واستمر الصمت طويلاً بينهما. لم ييأس ومثل من يحاول ويستميت في المحاولة، أن يدفع أحداً لتغيير قناعته المتصلّبة في شأن ما، قال لها إنه سيتخلّى عن المسرحية. وترقّب أن تهز رأسها، وتسأله: "هل غيرت رأيك في رواية الإنجليز حول عدن قبل مجيئهم؟". عندها سيقول لها: "أنت من دفعني إلى ذلك". وسيضيف أيضاً: "من أجلك فقط، يمكنني تغيير أي شيء". إلا أنها لم تقل حتى كلمة، وبقيت تحدق في صورة الملكة إليزابيث على العلبة الفاخرة من الخشب، هدية الملكة لها وهديتها لجدته. ثم نهضت وقبّلت جدته وانصرفت.

تركته في مواجهة مع نفسه ومعهم هم. الأشياء بقدر ما يراها سمير تصير إلى وضوح، فجأة تتشابك في ذهنه. ولم تجعله جدته

يمكث طويلاً في الحيرة، وقالت وعيناها تغمران الحجرة بشبابيكها المفتوحة: "براس أمك قل لي كيف با تكون عدن بكرة؟". ولم يدر بماذا يردُّ وبقي صامتًا.

(٢١)

في العرس راقب آيريس، وهي مشغولة بتدقيق النظر في الأيدي المتشابكة، في الأذرع السمراء اللامعة من الحر والنشوة، في الأجساد المشدودة، تتقدم خطوة إلى الأمام، ثم تعود خطوة أخرى إلى الوراء، على إيقاع الطبول، يأتي صوتها من الخلف. تتلوى أجسادهم، وتتداخل الحركات فيما يشبه الدائرة، ليتحرر أحدهم ويقتحم منتصف الساحة، ولكن في سياق الإيقاع نفسه. فيما هي منهمكة في تحديد العلاقة السرية، بين الإيقاع والتواء الأجساد، تنبهت آيريس إلى جسدها نفسه، آخذاً في التمايل، جسد كما لو يفيض عن قدرة القدمين اللتين تحملانه. وابتسمت، ولم تجد حرجًا في أن ترخي شفتيها ليرى الجميع أنها تبتسم، إذ فكرت في أنهم يروقهم أن يروا امرأة إنجليزية تترك نفسها لموسيقى الطبول وحركة الأجساد، على مسافة من لحظة حاسمة.

كانت بصدد طقس وداع لعدن، أو شيء من هذا القبيل. ولم تكن لتجد أكثر من مناسبة زواج، لتترك جسدها يسحب الروائح من الحضور المختلط، يمتّصها بطريقة لا تعود معها قادرة على الخروج ثانية والتلاشي. ستبقى هذه الروائح والوجوه كالأشياء المكنونة،

في علب مغطاة بالقطيفة، أو أسراراً مخبأة في أدراج صغيرة في غرف مغلقة.

تحقق آيريس الآن رغبتها الثانية، قبل أن تبحر فوق متن الباخرة "كوين". أما الرغبة الأولى فكانت مغامرتها قبل يومين بأخذ جولة على خور مكسر، وتحديداً المطار، حيث تعودت الذهاب، بين آن وآخر، لتتناول وجبة في مطعمه الأنيق. رغبت في ترك جسدها، يغوص، هكذا قالت، بين حشد كبير من الناس المحليين. ذكرت أنها تريد أن تعرق، وأن تشم روائح عرقهم. قدر سمير أن يتفهم دوافع الرغبة الأولى، أما الثانية فعجز ولم يشعر بحاجة إلى تفسيرها، لكنه لبى لها رغبتها هذه، بمجرد ما سمع جدته تتكلم عن عرس لابنة أحد الجيران، قبل أيام.

في الطريق عبرت بهما السيارة كرسنت ستريت، وشعر كأنما كانا في حلم، أو مشهد يكتنفه ضباب خفيف، مرا بكوين فيكتوريا قاردن وأمبسادور هوتيل، ثم كرسنت هوتيل ومحال هونداي وسوني ورولز رويس. لم تكن تنظر هي خارج الزجاج، بقيت عيناها مسمرتين في ظهر المقعد قدامها. في كل مكان لها ذكريات في هذا الحي الأوروبي، ستيمر بوينت، أو ملتقى البواخر، روحها وجسدها توزعا إلى أشلاء، في بيوت وفنادق وبارات ونوادٍ ومطاعم. تتخلل السيارة، وهما في داخلها، المكان والزمان معاً، فيما كانا ينصتان إلى الأمواج تهدر بعنف وتلطم بقسوة الصخور والبواخر الراسية. خلفت السيارة المنعطف الذي يتجه إلى الروضة،

وراحت تتقدم في ظهيرة ملبدة بالأدخنة السوداء، برائحة البارود، وبالنيران، تشتعل في إطارات وبراميل بترول.

عبرا الماين رووود في المعلا، وخطف هو نظرة إلى المحال على جانبيه، مغلقة كانت مثل روح منطفئة. تلاشى الوهج، طالما تسللت عدواه إلى دواخل أنفسهم، من هذا الشارع، الذي لم يكن يقود إلى الحي الأوربي ومباهجه فحسب، إنما صورة زاهية لازدهار هذه المدينة وأحد وجوهها الكثيرة، المتنوعة والمختلفة والمتآلفة والمتنافرة. واهتزت عواطفه بعنف وهو يلمح الكوفي شوب ثم البار الذي كانوا يقضون فيه أوقاتهم، مضطربين وقلقين بفعل ما يتشكل هادئًا، في عمق مدينة استثنائية، راحت تغذّي فيهم نزعة دائمة إلى التمرد، وتعلمهم كيف يكونون حالمين كبارًا، قبل أن تنقلب نقاشاتهم إلى اتهامات متبادلة. منذ متى لم يلتقوا معًا هنا؟ وحاول أن يتذكر وفشل، كان هو الآخر مشوشًا. ولاحت لهما الرايات المناهضة، مزروعة فوق البنيّات، والشعارات وعبارات التراشق التي توجهها فصائل الكفاح المسلح ضد بعضها، "سنجعل من جلودكم أحزمة لنا". "سنجعل من جماجمكم مطافئ لسجائرنا".

طوال ما كانت السيارة تعبر بهما الحواجز ونقاط التفتيش، تتبع الإنجليز مرة والفصائل المختلفة مرة ثانية، كانا محل شبهة عند الجميع. يكسو الذهول ملامح جنود إنجليز، وهم يرون سيدة بريطانية تركب مع عربي في سيارة واحدة. وتشوب الشكوك إلى حد الاتهام بالخيانة وجوه فدائيين، أخذوا يحدقون فيه مرة وتارة في

وجه آيريس، التي بدت كبيرة في السن، أكبر من أي زمن مضى، شعرها منفوش تغطيه بمنديل أخضر، ووجه تخلت عنه نضارته المعتادة بصورة مفاجئة، تجلس بجواره صامتة وغارقة في اليأس.

يهتز جسدها وتشعر بالإيقاع يتسللها، فترفض الإذعان له، تخشى أن يدفعها إلى اختراق الحلبة، والانخراط مع الراقصين. باستثناء بعض النساء من كبيرات السن، معظم الحضور كان من الرجال. لم تبدُ آيريس للجميع امرأة كبيرة في السن، سيدة إنجليزية فقط، هكذا نظروا إليها، وهم يخطفون نظرات إلى وجهها، إلى جسدها الذي يجعله صخب الإيقاع، يعرق ويتفلت وينضج ويتهيّج بفعل الروائح الذكرية، التي تنشرها أجساد الراقصين. كانوا يهزّون لها رؤوسهم، إعجابًا مرة وتشجيعًا لها تارة ثانية. وتطلع سمير لرؤية سعاد ولم يرها. وكان سيستغرب لو أنها أتت، فهي تغيرت كثيراً، وبالتالي لا بد أن تتغير معها بعض الأشياء، التي كانت تمثل اهتمامات خاصة بالنسبة لها. رأى والدها وأمها، هل يسألهما عنها أم يصمت؟ وبعد تردد قرر تجاهل الأمر.

"يقدمون أطباقًا لذيذة، ليس من الممكن التمتع بها في غيره"، قالت آيريس له عندما جلسا إلى أقرب طاولة، بينما تفر نظراتها إلى مسافرين يحملون حقائبهم، ويسيرون في عجلة ملحوظة إلى الطائرات الجاثمة. " لكني اليوم لن آكل شيئًا. أتيت فقط لـ..." . ولم تكمل، كأنما الكلمات لم تسعفها. بعد حين أضافت، بنبرة لم تخلُ من التشفّي، أن المطار الذي هبطت فيه أول طائرة مدنية في

الجزيرة العربية عام ١٩١٩، وشهد أول معرض للطيران الحربي في الشرق الأوسط، وكان يضم أكبر قاعدة جوية، في تاريخ مستعمرات الإمبراطورية البريطانية، ومنها تنطلق المقاتلات الحربية لسلاح الطيران الملكي البريطاني RAF الهوكر هنتر، والليتننج، أضحى بلا نظام وتشيع فيه الفوضى.

في أثناء ذلك كان سمير مشغولاً بالتحديق في صدرها الممتلئ، ببقع نمش خفيف الجزء العاري منه، تهبط نظراته إلى فخذيها في التنورة الكتانية، ساعداها تحيط بهما أساور ملوّنة، وفي أصابعها خواتم كبيرة بفصوص من العقيق، لها لون أخضر، ولم يشعر بأية إثارة. "لم أتخيل نفسي أمضي كل هذه السنوات هنا". قالت وهي تنظر إليه بابتسامة بدت له أقرب ما تكون لجدته، ولا تخص امرأة حطمت قلوبًا، في أزمنة خلت من عمر هذه المدينة. "امتصّتني عدن، وربما آن الأوان لتلفظني إلى الأبد، عارية من كل شيء". سمعها تضيف.

كان الجو يتخفّف من الحر الشديد، حين مرّا في طريق عودتهما، بشارع جديد يغص بمطاعم ومقاهٍ، ربما لم يمض عليه وقت طويل، منذ أن وجد بجوار وحدة سكنية مكوّنة من طوابق عديدة، وتطوّقها الحراسات المشددة. مطعم التركي، قصر الجزيرة، روما، دي لوكس، بلو باي، المطعم الصيني. توقفا بجوار مقهى ونزلا، طلبت لهما شايًا. راحت تسكب الحليب أولاً، القليل منه كعادتها، ثم الشاي. وينصت إليها تقول الجملة التي سمعها مراراً في منزلها، خلال

تناول شاي الساعة الخامسة، "هكذا يبقى الطعم رائعًا". ثم باغتته بطلبها في أن يرافقها لاحقًا إلى الميناء، ستبحر منه على متن إحدى السفن. ووضحت له، في نبرة رقيقة وكانت الكلمات ترتعش بين شفتيها، أنها لا تريد أن تكون وحيدة في تلك اللحظة، لأن الإبحار سيكون عند الفجر.

سكت هو، فقط تذكر الفرنسي الذي يصر على وجوده بجواره هذه الأيام، وخصوصًا في الليل. ونظر إليها، وهاله شعوره العميق بالشفقة عليها، ثم على نفسه، ورآها ترنو ببصرها إلى البنايات البعيدة، إلى السور الطويل لمستشفى الملكة إليزابيث، يتوسع بمبانيه الضخمة ووحداته الطبية فوق رقعة كبيرة. راحت خصلات من الشعر الطويل تشاكس وجهها، وتحاول التسلل إلى فمها الرطب. ورفعت رأسها وحدقت في فتيات عدنيات يرتدين تنانير، وبعضهن فساتين فوق الركبة، وأخريات يلبسن بنطلونات وبلوزات خفيفة، مع جزمات رياضية، بقَصّات شعر قصيرة. ثم كأنما لم تعد ترى شيئًا، تاهت نظراتها عند نقطة غامضة، ذاهبة في التلاشي.

"دورت له ما لقيته يا ممباسا

هذا الليد بحراني ما بمشي معه"

يصغيان بجوارحهما كلها لغناء الراقصين. وتبدو آيريس تعشق ما ترى وتسمع وتتنفس وتشعر. كأنما هذا أكثر ما يمكن أن تتمناه، وهي توشك أن تغادر المدينة، التي جاءت إليها في زهرة شبابها. بصورة مفاجئة انشغل سمير بممباسا، تلك المدينة الكينية في شرق

أفريقيا، التي هاجر إليها يمنيون كثيرون، وجلبوا، ضمن ما جلبوا، هذه الرقصة التي تشبه طقسًا أسطوريًا لإله غامض. وفي أثناء ذلك رأى جده غارقًا في حديث مع أنداده، بينما ينظرون إلى أجساد الراقصين، التي تلمع من العرق والنشوة. وجال في باله أن جده وجد أخيرًا شيئًا لم يتغير، شيئًا لا يزال ينتمي إليه، ويتعرف على نفسه فيه. وتلاقت بغتة نظراتهما وتأكد له أن الجد يراهما معًا، آيريس وهو، ولمح نظرة غامضة في عينيه، رغم الإنارة الخفيفة. فتّش عن جدته، من المؤكد أنها في الداخل حيث يتناهى نشيدهن، "قمري شل بنتنا. قمري شلها وراح. قمري عاشق الملاح".

يفتح عينيه أحيانًا، خلال نومه، ومثل من يشعر بلمسة يد تُمرِّر خطفًا على وجهه، ينتبه فجأة وأنفاسه تتخاطف، ليخيل إليه أنه يراها، جَدّته، وسط غشاوة سوداء تحملق فيه، كأنما ليست مصدقّة عينيها أنه قدامها وبين يديها، كما لو أنها هي أيضًا كانت تشم رائحة الدماء، في الخارج، وتزكم أنفها.

(٢٢)

ولا مرة عنى له منظر جنود إنجليز، وهم يمرون في حارات كريتر، شيئًا غير مألوف. بغتة ومن دون أن يدري كيف، صاروا يعنون له شيئًا هؤلاء الجنود، إذ راحوا تدريجيًا يذكرونه بالضابط. وتذكر قاسم أنه لم يحدث أن فكر فيه بصفته خصمًا، وأنه هو من تسبب له بكل هذا الشقاء. كان قاسم يلوم الحرب، فهي تغير

النفوس وتقلب الموازين وتغير القيم، وفاته التفكير جديًا في أن الضابط، هو من دفعه إلى تلك الأكواخ ليجلب له نساء، وهو من تخلى عنه بعد انتهاء الحرب، وهو أيضًا وراء اختفائها، فمنذ غادر هو عدن، تلاشت هي ولم يجد لها أي أثر. وتمنى الآن لو يواجهه ذلك الضابط.

ولأن مواجهة كهاته مستحيلة، أكان الضابط موجودًا أم لا، ولأنه شعر بما يدفعه للانتقام، ليس منهم بطبيعة الحال، فهو يخشى بطشهم وقد تقدم به العمر، فلم يجد سوى لأعينهم فأخذ يتعقبهم، أعينهم التي تراقب لهم المكان، يوجس بهم وسط الزبائن والعمال في مقهايته، في الوجوه الغريبة أو التي أصبحت كذلك، يشعر بهم يجلسون على طاولاته ويحتسون المشروبات نفسها التي يطلبها الآخرون. وعند ساعة اللزوم سينهضون ليدلوا الإنجليز، بعد منتصف الليل غالبًا، على أي باب يدقون بخشونة، ويقتحمون المنزل ويروِّعون ساكنيه. بدلاً من الضابط صار هؤلاء العرب خصومه. راح يترصدهم واحدًا واحدًا.

ينهض إلى الشخص، الذي يتأكد له أنه واحد منهم، ويبصقها في وجهه، قدام الجميع: "اخرج". ما يفعله من طرد لهؤلاء الذين يسمون المشذرين، يجعل الإنجليز مثل العميان يتخبطون في العتمة، التي كانوا يقودونهم فيها. بلغ قاسم من العمر ما يجعله لا يعود يخشى شيئًا، ولا يبالي بأحد حين يتم تحذيره من تشغيل أغان ضد الإنجليز. يهز رأسه بينما ينصت ومعه بقية الزبائن، لـ"يا شاكي

السلاح، شوف الفجر لاح. حط يدك على المدفع، زمان الذل راح". وغيرها من أغان مثل: "أخي كبلوني"، "برع يا استعمار"، "هنا ردفان من فم كل ثائر".

أمسك بلَيٍّ المداعة وراح يأخذ أنفاسًا، وينفث الأدخنة الكثيفة بعيدًا، بينما يرمق عجوزًا يعاوده الحنين إلى عدن القديمة، له وجه رقيق وجسد نحيل، فوق رأسه طاقية رسم العرق خرائط رمادية في حوافها، ورأى يدًا فوق الطاولة، قرب كوب الشاي الفارغ، واليد الأخرى مسندة على فخذه، ينحسر عنه إزار ملون، ويسمعه يترنَّم، بصوت متعب ومهدود، "أشتي سلا قلبي ما شاش كرابه، شاسكن بعيد وشاكل من ترابه".

يفكر قاسم في عدد الحيوات التي عاشها. قاسم قبل الحرب العالمية الثانية، ليس هو الشخص نفسه أثناء اندلاعها. وقاسم بعد انتهاء الحرب، يختلف تمامًا عنه في الخمسينيات أو ما تلاها من سنين. وهو في هذه اللحظة الملتبسة من عمر عدن، لا يشعر بأنه يمتّ بصلة إلى كل ما كانه في لحظات ماضية، مختلفة. لم يعد يريد أن ينشئ أسرة وحياة غنية مفعمة بالعواطف مع تلك المرأة، لن تعود قوية ونضرة يملؤها عنفوان الشباب، بالتأكيد طعنت في العمر، لكن في خياله لا تزال تلك الفتاة وإن خشيها كثيرًا عندما كانا يخرجان معًا. يستميت اليوم ليزيل البقع التي التصقت بجسده، ولم تبرحه لحظة واحدة، كلما تعرى في حمام المقهاية للاغتسال، رآها تكشّر بابتسامة وقحة. يدرك على نحو، لم يفطن إليه من قبل،

أنه أضحى شخصًا آخر، شخصًا ليس فقط مهمّته الفصل في نزاعات الزبائن، وإيواء العمال والوقوف على احتياجاتهم والبحث لبعضهم عن أعمال مناسبة، هذه أدوار مهمة، لكن يوجد اليوم ما هو أهم.

من فوق قدح الشاي قدامه، على طاولته المرتفعة، وخلال أدخنة المداعة ينشغل بالنظر إلى الزبائن. يسمع من يقول إن الإنجليز قرروا تسليم عدن للجبهة القومية، ما أثار غضب الفصائل الأخرى التي اعتبرت في هذه الخطوة استمراراً لخبث البريطانيين، حتى في آخر لحظة. ثم يدير رأسه ويحملق في صور جديدة لفنانين لمعوا في الفترة الأخيرة، أخذت مكانها فوق أخرى بليت وتهرّأت. يرى مشروبات انضمت أخيراً إلى لائحة المقهاية، ويفكر قاسم في أن كل ذلك لم يغيّر من طبيعة اللحظة، التي يشبّهها هو أحيانًا بالمكنسة، تكنس كل ما هو أمامها من أشياء، لم يعد فيها نفع.

ينظر إلى مقهى سليم اليهودي، ويترقب خروجه، لا ليرى المشاعر التي تكسو ملامحه، ولم يعرف كيف لها أن تجد طريقها إلى وجهه هو، مشاعر الفرح بالعودة إلى البيت والعائلة، إنما ليفكر بأسى، الأسى نفسه الذي يشعر به كالداء ينخر فيه هو، عندما يكون وحيداً مثل شيء مهجور، في أنهم أضحوا قلة قليلة هنا، هاجر بعضهم من تلقاء نفسه، وبعضهم الآخر أجبرهم الإنجليز، تحت دعاوى عدم ضمان سلامتهم، مع كل هزيمة يتعرض لها الفلسطينيون هناك. ويتذكر صوت الرصاص في منتصف الليالي، يستهدف منازلهم في الحي الذي يقطنون فيه، وسيعرف أنه ليس من

صنيع العرب، كما يشاع بهتانًا من الإنجليز لدفعهم إلى الهجرة قسرًا، إنما هو فعل إحدى فرق الجيش البريطاني. وعرفت الحارة كلها أن سليم قاوم بشدة محاولات الترغيب، من أجل أن يهاجر إلى إسرائيل، ولم يذعن لأساليب الترهيب التي جربوها عليه فيما بعد، وبقي صامدًا ولم يغادر عدن.

يتطلع في ناجي يهش بيده، كمن يطرد بعوضًا مزعجًا. كان شخصًا، يقف فوقه، يواصل الكلام، فينهره ناجي وينبهه إلى انشغاله. "أشتي أركز مع الترجمة، رح لك بعيد عني". يأتي ناجي إلى المقهاية قبل عرض المسلسل بنصف ساعة، يطلب شايًا ملبنًا ويضع فوق الطاولة وجبة كاتلس، بطاطس مهروسة في هيئة كرات، تحشى باللحم المفروم وتغمس بالبيض المخفوق ثم البقسماط وتقلى بالزيت. ويروح يأكل ويرتشف من الشاي على مهل، حتى يسمع قاسم يأمر أحد عماله بأن يضع الراديو بجوار التلفزيون، الذي لا يزال مجهولاً خارج عدن، ليصغي الزبائن إلى صوت المذيع وهو يترجم مباشرة، من إذاعة عدن للمسلسل الإنجليزي الذي يُبثُّ بلا ترجمة. لا يريد ناجي لأحد أن يزعجه، أثناء ما ينهمك في متابعة ريتشارد كامبل، تطارده الشرطة، ولم تفلح في القبض عليه. وكلما لاح لهم أن مسألة القبض أصبحت ممكنة، تسلل من بين أصابعهم. وفي كل مرة ينجح "الهارب" في الفرار، يطير ناجي فرحًا.

البارحة لم يكن النوم أطبق جفنيه، وسحبه إلى الأسفل من شدة التعب، طالما شعر قاسم أن جسده يمتص للأسفل عندما يروح في نوم

تحت ضغط الإجهاد، حينما أبصرهما، في الحلم نفسه، هي وهو. كانا يركبان العربة ذاتها، يجرُّها القطار. وفي كل مرة يصحو من الحلم، يستغرب، فهو لم يتعرف على القطار. سمعهم يحكون عنه، عندما كان ينطلق من المعلا، قبل أن يتوقف العمل به قبل سنوات كثيرة، ويقتلعون قضبانه، في طريق المملاح. لم يتكلم في الحلم بينما هي ما سكتت أبدًا. قالت له كلامًا كثيرًا عن الضابط وعن نفسها وعنها معه هو.. وفجأة لم يعد يرى القطار، فقط العربة تجري في الريح وحدها، حتى سقطت في البحر، وتحولت هي إلى سمكة، فاستيقظ.

مفقودة هي ليست أكثر، تاهت منه إلى وقت لن يطول حتى لو اقترب من نهاية العمر، قناعة جديدة وجد نفسه يؤمن بها، لن يرضى بغيرها. وتعود إليه، فيما يشبه حلم متقطع، تفاصيل تلك الليلة البعيدة جدًا، كيف امتد جسمها فوق الأرض، حين توقفت السيارة في جانب الطريق، وكيف أنه مسّ ظهرها على مهل، فراحت ترتعش. كان جسدها حارًا تحت يده. لم ينسَ مشهد البحر، يلمع كان، يكسره دوي الطائرات وزعيق طيور النحام. وتذكر الآن تفاصيل لم يتسنَّ له، من قبل، تذكّرها، بل لم يخَلْها حدثت فعلاً، أنها دسّت وجهها في حضنه، حين كانا لاطيين بجوار السيارة، وأنه أصغى، وسط الجلبة، إلى نهنهة متقطعة، ثم شعر بها توسد وجهها فوق فخذه، شعر حتى بشفتيها حارة فوق لحمه، الذي تستره ملابس خفيفة.

ما إن يصمت محمود وينحي الجريدة جانبًا، حتى ينطلق صخب الزبائن، في كل الاتجاهات، "من الذي قال لك هذا الشور؟ كثر الحكوك يسيل الدم. الرجال أنا أعرفه عمل دريول، ومرة شوكي دار، وبعدين مساعد طباخ". "خاور فتة خبز مع لبن وسكر وشاهي". "شيز، عادوه شيز. خلي كلامك ساني". "مشكلتك مش قادر تنظر إلى المسالة أبعد من ذلك، صح أو لا؟". "سوي لك مبصرة، نظرك ضعيف". "لا تجزعوها علينا يا أصحاب القطيع". "تشتي لك ديم محمض بليم. من صديقوه، مش من كديبوه". "فيبك.. فيبك.. البيومي بايجيبك". "أنت تشتي لك معه ميسم صرع". "مين شيضربنا أنت ولا هو؟". "يا رومانة قد القلوب مليانه".

لا تنقطع حواراتهم، يطول كلامهم حول كل شيء، الفيلم الهندي الذي يطارد فيه أفعوان البطل، والذي عندما يهم بقتله سيظهر من يحذّره، ويكشف أن الثعبان ليس سوى والده وقد غضب عليه الإله. تثير قهقهاتهم أدوية المغص التي تلا محمود الإعلان عنها، واشتراها سعيد الخَمّال في دكة الكباش، واستعملها فورًا، وبدلاً من تبديد المغص أدخلته في غيبوبة. يتطرقون إلى الانقسامات الحادة بين فصائل المقاومة، ويكسو الغموض وجوههم. ويحلو الكلام عن زوجات شقراوات، يذهب أزواجهن في طلعات جوية إلى حضرموت ولحج، فيما يبقين يتناوبن على حارس العمارة الصومالي، حتى وهن عضوه وتقشّر من كثرة الاستعمال. وسينسون كل ذلك، فيما هم يعودون ليلاً إلى أسرّتهم تتناثر في

الساحات وفوق المقهاية، أو في غرف أخرى بنوافذ عريضة ومراوح تضرب الهواء طوال الليل، باستثناء ما يبقى يعيث في الجسد ويوقظ رغباته الوحشية، ويجعلهم مثل الممسوسين.

لأيام مضت كان قاسم يخترق قلب المدينة، يمر بسوق الكدر، يرى بائعات الخبز، فتيات جميلات يلبسن ثيابًا ملونة، بعضهن يضعن وشومًا في ظاهر أيديهن وأسفل شفاههن، ويتخطى سوق البز، ثم الحراج. يتخلل سوق الحدادين، تغير كثيراً، لم يعد كما كان قبل عشرين سنة، قبل عشرات الأعوام، يقول لنفسه، عندما كانت سروج الخيل تُصنع هنا، تُطعَّم بالذهب وتطرَّز باللآلئ وترسل إلى ملوك وأمراء الصليحيين. يخترق الأزقة، يسير بجوار معبد اليهود، يتركه على يمينه ويتخلل دكاكين البانيان، وتفغمه رائحة زيت النارجيل الذي يدهنون به شعورهم، وسيخطف نظرة إلى نبات الحلتيت فوق مداخل دكاكينهم لطرد الشياطين، سيتجاوز الجمعية العدنية للرفق بالحيوان، وصولاً إلى محطة التاكسيات. في التاكسي يقضي ساعتين على الأقل، يدخل شوارع خلفية لأحياء جديدة، يقتحم أزقة ويسير على مهل قدام محال حديثة، قبل أن يرجع خائبًا.

خطر له وهو يستيقظ بذهن مشوّش، ويشعر بجسده محطّمًا، أنه راح في نوم طويل، وليس مجرد غفوة استسلم لها رغمًا عنه. الأنوار القليلة، التي كانت تضيء داخل الفيلا، انطفأت. بصعوبة رفع الشاب جفنيه ورنا إلى النافذة، فعرف أن الليل انقضى، لكن ظلمة خفيفة لا تزال تتخلل الأشياء.

تطلع إلى الأريكة حيث يجلس العجوز فلم يره، والمرآة ما عادت موجودة. ينهض بتثاقل يأكل الهلع قلبه. سار خطوات فاصطدمت قدماه بحطام المرآة، انحنى فوقها فلمعت الشظايا، ورأى وجهًا غريبًا موزعًا في القطع الصغيرة الحادة الحواف، ظهر مشوهًا وقريبًا من القبح، لم يكن سوى وجهه. شاعراً بالفزع اندفع على مهل، يجوب أرجاء المنزل، وأحيانًا يسبقه صوته، كلما توغل في الأقسام الداخلية للبيت، كي يعلن عن نفسه، إلا أنه لا أثر للعجوز. أين يكون ذهب؟ لم تترك مكانًا لم تفتش فيه، حتى غرفة نومه، التي دفعت بابها وهالتك مساحتها، خزائن من الخشب الفاخر، أرائك وبسط وسرير فسيح، يرتفع درجات، إلى يمينه نافذة عريضة وباب يفضي إلى شرفة وسيعة. أغلقت باب الفيلا وراءك وخرجت، رحت تسير ببطء خلال الأشجار وبين الصخور، تحد بصرك في الغبشة الخفيفة، ولم ترَ أحدًا.

هل يكون التاجر الفرنسي رحل، على متن إحدى الطائرات، التي

جهزت لعائلات الإنجليز والجاليات الأوروبية، أو ربما أبحر فوق واحدة من بواخره، التي طالما مخرت البحار والمحيطات، محملة بالبضائع، ترفرف فوقها رايات اختار لها ألوانًا وشعارًا خاصًا به؟

أحسست رأسي ثقيلاً، مثل صخرة بين كتفي، وفجأة لم أعد أشعر بأية رغبة في البقاء، تركتني أمضي، خطواتي متمهِّلة، وعيناي مجهدتان، لكنهما كانتا تنظران في كل شيء، كما لو أنهما للمرة الأخيرة تريانه. لمن أنتسب؟ أي الشخصين أنا الآن؟ يشعر بالشخص الذي يتحول إليه يتفكك في هذه اللحظة، ويحس أيضًا بنار خفيفة تتقد في أطرافه.

كأنما هو بلغ تلك النقطة التي لا تعود فيها الحياة هي نفسها، وأن عليه اختيار اتجاه مختلف. غير أنه لا يمكنه فعل ذلك. هناك من يقومون بذلك الآن، حرف اتجاه كل شيء إلى وجهة، لا أحد بإمكانه التكهن بملامحها، أو تخمين ما سيواجهه فيها من مصير. ويلح عليه السؤال، من يترك من في حال الانحراف بعدن؟ هل نكون نحن من يتركها أم هي التي ستتركنا عند تلك النقطة الحرجة؟

وداخَلَه يقين بأن شيئًا ما منه سيخلفه وراءه، شيئًا عزيزًا على نفسه، ومن دونه حياته لا معنى لها. قبل تلك النقطة، كان الوقت يمضي به معهم، كما لو في قطعة من الفردوس، ليس لها علاقة بما خلقه الإنجليز في عدن فحسب، إنما مشدودة إلى كل ما يحدث في العالم الواسع. كان العنفوان، التألق، الوجود، التحقُّق، في متناولهم جميعًا، هكذا كانوا يشعرون وهكذا كانوا واثقين من ذلك

الشعور. وبدا أنه يفقد النفس، أو في حاجة ماسة إلى حبة هواء منعش، فاندفع إلى إحدى النوافذ، التي أحكم إغلاقها البارحة، كانت مفتوحة الآن والستائر قد أزيحت عنها، وبقي واقفًا. يجهد، بسبب غبش الفجر، في رؤية البحر، مجرّد خَطٍّ أزرق نحيل، لم يرَ بواخر عملاقة، ولا مراكب صغيرة تعوم.

لم تجد مبرراً لتبقى، وأنت تتصورهم على بعد خطوات، يتهيؤون للانقضاض على البيت الفخم ومَرافقه وكل شيء، أسلاب حرب، غنيمة معركة. وخيل إليك أنك فيما لو بقيت قليلاً، ستراه، يتقدّمهم، وهو يصدح بعباراته التي شهدتها المقاهي والبارات والمطاعم والشوارع الفسيحة والمضيئة ليلاً، الضاجّة نهاراً بالعربات الجديدة وحشود السياح. لكن هل تكون سعاد معه، ترافقه في هذه اللحظة الحاسمة، وتكون تخلّصت تمامًا من الشال، تتقدم، إلى جواره، لتواجه العالم الجديد، بوجهها السافر وبشعرها المكشوف وصدرها نصف العاري. أم أن نجيبًا سيكون بمفرده، ربما معه عمر وفائزة وأشواق! ومَنْ أيضًا؟

مشاعر مرتبكة وضاغطة تمنع الشاب من التفكير، في منتصرين ومهزومين. يهبط التل ويلتفت وراءه فيرى البيت، يتوسع في رقعة كبيرة، لكن بلا أبهة. وجوه الفدائيين، إذ يمر أمامهم، لا تشي بشيء، يلمحهم بطرف عينيه وهم يتخللون الحواجز، أو يتكئون على أعمدة الإنارة، فيما يشعلون سجائرهم، ويترقّبون الخطوة التالية. وشعر بأن الطريق طويل قدامه، وأن خطواته أضيق من أن تعبره، بالسرعة التي يتمناها الآن.

وأخذه الظن، في هذه البرهة، أنه لن يكف عن الأحلام، عن المشي وحيداً على الأرصفة، في طرقات تطول بلا نهاية، في محاذاة تلال جرداء، عند أطراف مياه لها لون النحاس. يتخلله الهواء، كثيفًا يحس به، ويسمع صفيراً بعيداً وراءه، يفقد فجأة الاتجاهات ويجد نفسه وحيداً ثانية، وسط حشود يعرف وجوهها وتبدو له غريبة. يسهو للحظة، ثم يفكر أنه ليس أهلاً لأن يكون شيئًا مذكوراً، وأنه يمكن له أن يصبح موظفًا بسيطًا، أو يبقى معلمًا، في مدرسة لأبناء العمال، ويقبض معاشه من تبرُّعات الميسورين، أفضل مما لو كان عنصراً في جيش الاتحاد العربي، الذي بناه الإنجليز لحماية السلاطين، يوجِّه، ساعة اللزوم، أسنَّة الحراب إلى صدور رفاقه. ونظر إلى الأفق الشاحب، ورأى رؤوس التلال تتوّجها بنايات، بعضها غاية في الجمال، وأغمض عينيه بشدة، كما لو كان غبش الصبح يجرحهما.

تنبه الشاب إلى أنه أصبح في منتصف الطريق، حيث يمكنه سماع الهدير في المرفأ الكبير، لكنه لم يشأ سماع شيء. كم طريق تؤدي إلى عدن؟ تساءل في نفسه، طريق قوافل البخور في الأزمنة السحيقة، أم مسالك الغزاة منذ الرومان إلى الكابتن هينس إلى..؟

وضربته لفحة حر شديدة رغم الصباح، يتخلله ضباب خفيف.

٢٠١١-٢٠١٤

عدن، الرياض، صنعاء

الكاتب

أحمد زين

روائي يمني.

- يقيم في السعودية، ويعمل في الصحافة الثقافية (صحيفة الحياة اللندنية ومجلة الفيصل).

• صدر له:

- أسلاك تصطخب، قصص، دار أزمنة - الأردن ١٩٩٧.

- تصحيح وضع، رواية، دار الانتشار -بيروت ٢٠٠٤.

(أعيد طباعتها في اليمن بمناسبة صنعاء عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٤، وطبعت ثانية في القاهرة ضمن إصدارات سلسلة "آفاق عربية" عن الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٩).

- قهوة أميركية، رواية، المركز الثقافي العربي - بيروت - الدار البيضاء ٢٠٠٧.

- حرب تحت الجلد، رواية، دار الآداب -بيروت ٢٠١٠.

- ستيمر بوينت، رواية، دار التنوير -بيروت ٢٠١٥.

صدر في هذه السلسلة

١- فستق عبيد، رواية، سميحة خريس، الأردن، سبتمبر ٢٠١٦.
٢- يدٌ في الفراغ، شعر، علوان الجيلاني، اليمن، أكتوبر ٢٠١٦.
٣- قصص تكتب مرتين، قصص، يوسف البحري، تونس، نوفمبر٢٠١٦.
٤- من قلب العالم - من عالم بلا قلب، شعر، لينا شدود، سورية، ديسمبر ٢٠١٦.
٥- تل الخزامى، رواية، عبد الوهاب الرامي، المغرب، يناير ٢٠١٧.
٦- صندوق كرتوني يشبه الحياة، قصص، لنا عبد الرحمن، لبنان، فبراير ٢٠١٧.
٧- الرغبات المتقاطعة، شعر، د.فيصل الأحمر، الجزائر، مارس٢٠١٧.
٨- يؤثث الفراغ.. ويضحك، قصص، حميد العقابي، العراق، أبريل ٢٠١٧.

٩- كرنين أجراس بعيدة، شعر، خالد الجبور، فلسطين، مايو ٢٠١٧.

١٠- أسبوع حب واحد، عدنان فرزات، سورية، يونيو ٢٠١٧.

١١- دوزان، قصص، يوسف ضمرة، الأردن، يوليو ٢٠١٧.

١٢- أسند ظهري إلى الرياح، شعر، أنور عمران، سورية، أغسطس٢٠١٧.

١٣- ربما سوف قد يكون، قصص، محمد حجو، المغرب، سبتمبر٢٠١٧.

١٤- كل ما قلته للمحلل النفسي، شعر، محمود عبد الغني، المغرب، أكتوبر ٢٠١٧.